

الكوايبس

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدماً.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.



الكتاب: الكوابيس

❖ المؤلف: محمد البوعبيدي

❖ نوع العمل: رواية

❖ الطبعة الأولى 1440 هـ - 2020 م - القاهرة

❖ الناشر: ببليومانيا للنشر والتوزيع - مصر

❖ رقم الإيداع : 5309 / 2020

❖ الترخيم الدولي (ISBN): 978-977-6808-06-5

❖ تنسيق وإخراج: ببليومانيا

❖ المدير العام: جمال سليمان

❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق - مول الميرياند - مصر الجديدة

❖ عنوان (2): 38 شارع عمر المختار - الأميرية - القاهرة

❖ تليفاكس: 0020226061014

❖ محمول: 00201210826415 - 00201065534541 - 00201208868826

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: <https://www.facebook.com/bibliomania.eg/>

❖ الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة

عن رأي الناشر. ودون أدنى مسؤولية على دار ببليومانيا للنشر والتوزيع

الكوابيس

رواية

محمد الوعيدي





www.bbibliomania.com

2020

الإهداء

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

إهداء

فكرت كثيرا قبل كتابة الإهداء، فقلت في نفسي:

هل من المفروض أن أكتبه؟

و ماذا سيحصل إن لم أفعل؟

هل ستكون الرواية ناقصة فرضا؟

لأن كل الإهداءات التي أفكر فيها استهلكت قبلي، و إني لا أحب أن أردد كلاما كرره غيري كثيرا، كالبيغاء.

ماذا أقول إذن؟

هل أقول: إلى والدي اللذان سهرا على تربيتي رغم شقاوتي في الصبا؟

هل أقول: إلى كل من علمني حرفا، فصرت له اليوم عبدا؟

هل أقول: إلى كل من تجرع عناء قراءة هذا الكتاب، و إلى كل من لم يقرأ كذلك؟

هل أقول: إلى كل الأصدقاء و الأهل، كل من رباني، و كل من مد إلي يدا بيضاء صادقة و لو بالدعاء؟

فكرت كثيرا في شكل الإهداء...

فآليت في الأخير، إلا أن لا أكتبه، هكذا أحسن.

الجزء الأول

"أبوك سيأتي غدا"

حلم أم كابوس.

كنت دائماً أعتقد أن الحياة حلم، حلم جميل، الواقع فيه ليس سوى لحظة تأتي وتمضي سريعاً، و الباقي كله ذكريات، بعضها في الماضي و بعضها في الآت، و صدقت نفسي.

إننا لا نرى الحياة بعين واحدة، و لا نرى منها إلا المظاهر، أما الحقيقة، فتغلفها معتقداتنا بما نريد أن نراه و ما نتمناه، و من قال؟ ربما تكون هذه الحياة مجرد صورة لحياة أخرى حقيقية، تماماً كما نرى وجوهنا في المرأة، فنعتقد جازمين بأن الصورة هي نحن، و ربما تكون مجرد ظل لها، تماماً كما نستظل بالظل فنعتقد بأننا رأينا الشجرة. هكذا فكرت، و صدقت نفسي.

نعم، عندما تكون جالساً مع أقرانك، و تحكي و تتذكر الماضي الذي فات و لن يعود، و الذي، حتى أوجاعه تزينها بكلامك الجميل، تتحسر في الأخير قائلاً: (أيام مرت كأنها حلم).

نعم، الذكريات أحلام، و المستقبل نفسه، ليس إلا ذكرى متخفية أمامك، لأن كل الذي فات، مات و انكشف، و أما الآتي، فهو أكبر دافع لصبرك على مرارة الحياة و قسوتها، فإنك عندما تفقد الرغبة في انتظار حدث ما تحققه في المستقبل، ستفقد الرغبة في الحياة. و الزمن هو العدو الأول للإنسان، لذلك طفق "مارسيل بروس" يبحث عن زمنه الضائع ليسترجعه.

تخيل لو أنك تعرف المستقبل؟

ستفسد الحياة، و تخلو من كل فكرة اسمها قضاء و قدر، و يختفي الأمل،
وينعدم الطموح، و تذوب الكثير من الأحاسيس، و يتغير معجم الكلام الذي
يحكم لغتنا و وجودنا، ستنتهي ألفاظ من القاموس، و تظهر أخرى جديدة،
وتبذل المتعة من كل شيء، حتى الزمان، ستتزع منه هذه السطوة التي بها
نعيش، والشيء الأكيد، هو أن الإنسان، لن يكون كما نعرفه الآن.

إن معرفة المستقبل مرادف للموت المحتوم، و رغم ذلك، يتمناها الإنسان،
فالإنسان يسير إلى حتفه برجليه، و ما يعزیه، هو فقط جهله بهذا الأمر.

عندما كنت صغيراً، كنت مولعاً بالاستماع لأغنية الموسيقار "فريد الأطرش"
التي تقول: (الحياه حلوة، بس نفهمها).

كانت طريقة تلحينه و نطقه لكلمة (نفهمها) تثير انتباهي، لأن الكلمة نفسها،
قد تتعدد معانيها مع تعدد الألحان، فطفقت أبحث لي عن سبب لذلك، كنت
أكبر، و كان السؤال يكبر معي، بينما كان بحثي يزداد عمقا، لأنني في كل يوم
أكتسب وسائل و مهارات جديدة للمعرفة، و مع البحث، تزداد الحيرة.

و في يوم من الأيام، قلت لماذا لا أفعل كما يفعل أهل المنطق، بحيث عندما
يستعصي عليهم الجواب، يعكسون السؤال، فتساءلت: (و ماذا لو لم نفهمها يا

"فريد"؟)، فكان الجواب قد سبقني إلى خيالي: (سينقلب الحلم الجميل إلى كابوس).

الحياة مجموعة من الكوابيس التي تتناوب في هذا الليل، و الإنسان اليوم، إن لم يقتله أخوه الإنسان يقتله السرطان، الفزاعة المخيفة لطيور بداية القرن الواحد والعشرين.

تعيش طفلا سعيدا، لأنك لا تتساءل - و حتى إن تساءلت فهو ليس من أجل الفهم، ولكن من أجل المعرفة فقط - لأنك لا تدرك مغزى الحياة، لأنك لم تفكر في لعبة الزمن، و لأنك لا تفهم، فالرسالة ليست هي ما يبعث فقط، ولكن هي كل ما ينطق، و الأموات، ليسوا هم من تحت التراب فقط، ولكنهم كذلك كل من ينتظر.

ثم فجأة، تأتيك الأجوبة الناقصة تباعا، كأن الحياة تعتمد أن تعاقبك. كأنها تعتمد أن تؤذيك.

من منا لا ينتظر دوره اليوم أو غدا؟

من منا يعرف متى سيمد عنقه للمقصلة؟

من منا لا يدرك بأنه في القريب سيغادر الحياة بلا رجوع؟

إننا، يا سيدي، نقاوم قسوة الحياة بالنسيان، و نواجه أحكامها باللامبالاة.

ألسنا كالمحكومين بالإعدام؟ ننتظر في كل لحظة هبوب قابض
الأرواح؟

كان سيهون الأمر علينا لو اعتقدنا بأن الموت لا يدهم الجميع، حتى
إن كنا نجهل هل نحن في قائمة الموتى أو الخالدين.

الحياة يا سيدي حلم، نعم حلم، نحن فقط لا ندرك ذلك، و لأن
الحقيقة الوحيدة المدرجة في عداد اليقين هي الموت، فكل الأجوبة الناقصة في
الحياة، تحول هذا الحلم الجميل إلى كابوس مرعب.

الخوافون من الحياة

هل تعرف من هو الأكثر شجاعة فينا؟

الأكثر شجاعة فينا رجل لا يفكر في الانتحار انتقاما من الحياة، و لا يفكر في القتل انتقاما من الموت.

و هل رأيت يوما رجلا يفكر من الموت بأن يدفع إليه الآخرين دفعا؟ نعم، إنه ذاك الذي يتسلى بالحروب و يقتل الأبرياء كأنه يريد أن يسرق أعمارهم وينعم بالخلود على حسابهم، فينتقمون منه بأن يفروا من الحياة لكي يتركوه فيها وحيدا، ربما لا اعتقادهم بأن الوحدة هي كذلك موت.

كانت الكاتبة الانجليزية "فيرجينيا وولف" تفر من الحياة كأنها تفر من الطاعون، و تفضل أن تموت برغبتها من أن تكون فريسة للتحرش الجسدي من قبل أخيها غير الشقيق، أو ضحية لانهيار عقلي على إثر موت أمها في فجر مراهقتها، أو تنتحب ألما بعد موت أختها غير الشقيقة التي كانت ترى فيها بديلا عن حنان الأم، أو أن تعايش الموت البطيء لأبيها بعدما داهمه السرطان، ثم موت أخيها الذي جعل الانهيار النفسي يتوغل في حياتها بإتقان.

و اكتشفت "فيرجينيا" بأن الحياة قاسية، و أنه يحق لها أن تهرب منها إلى الأبد، فحاولت الانتحار بعد موت أبيها وفشلت، نعم فشلت، لكنها كانت عاقدة العزم رفقة زوجها على الانتحار بالغاز فور اجتياح الألمان لبلادها.

"لا حدثا يحدث بالفعل إن لم يكتب"، هكذا كانت تقول، وهكذا دونت عملية انتحارها في نهر أوز المحاذي لبيتها، "...بالمناسبة، ما هي الحجج التي يمكن أن تقام ضد الانتحار؟ هل تعلمين ما هي مشقة فليبيرتي التي أعاني منها؟ حسنا، يباغتني مع صوت الرعد فجأة، شعور حاد بعدم الجدوى التام لحياتي، هذا شيء يشبه الركض برأسك صوب حائط في نهاية حارة مسدودة. و الآن، ما هو التصرف حيال هذا الشعور؟ أليس من الأفضل إنهاؤه؟ ...إني ببساطة أريد أن أعرف... ما هي الحجج ضد إنهاء الحياة؟".

و بعدما كتبت رسالتها الأخيرة لزوجها: "عزيزي، أنا على يقين بأنني سأجن..."، ملأت جيوب معطفها بالحجارة لكي لا تملك فرصة للرجوع، وأغرقت نفسها في النهر.

فكرت كثيرا أن أعرف أية شجاعة يتحل بها من يصر على الانتحار؟ خيف هذا الإحساس إن لم تجربه، و أما إن تجربته، فهو أمر آخر.

أما الروائي النمساوي "ستيفان زفايغ"، فقد قاوم قسوة الاكتئاب بالترحال، وكتب نفسه في الشخصيات، و فر إلى أبعد مكان من الحرب، لكنه لم يجد سببا لبقائه هنا، بعدما شعر بالخيبة الكبرى على إثر انهيار السلم العالمي، فآثر أن يأخذ الوقت الكافي لكي يبعث عشرات رسائل الوداع التي كتبها رفقة زوجته

لكل أصدقائه المقربين في العالم، بل و فسر فيها رغبته في الانتحار، ثم عانق حبيبته و طال العناق.

و كذلك حصل للكاتب الأمريكي "ارنست همنغواي"، و الفرنسي "جان جنيه"، والفيلسوف الألماني "فريدريك نيتشه"، و الرسام الهولندي "فان غوخ"، والشاعر اللبناني "خليل حاوي" وغيرهم.

هل ذنبهم أنهم تساءلوا و عرفوا الجواب؟ أم ذنبهم أنهم أخطأوه؟ هؤلاء و أمثالهم، هم الخوافون من الحياة، من قسوتها، من ظلمها، إنهم طالبوا اللجوء إلى الموت.

إن الأكثر شجاعة فينا، شخص أدرك الحقيقة و صبر عليها، لأن الحقيقة، يا سيدي، كالنار، قد تدفئك من بعيد، و قد تنير دربك من بعيد، لكنك إن وضعت ملمسك عليها، فإنك لا محالة تحترق.

الحقيقة، يا سيدي، توجد فيك، و توجد أمامك، فأنت تعيشها في كل يوم، وتراها كل يوم، لكن عقلك وحده ليس قادرا على إدراكها، لأنك كلما اقتربت منها أكثر، خفت أكثر.

حديث الجذور

كان وجهها غير مألوف في هذا المكان، فمعظم الوجوه التي تمر من هنا، أعرف تقاسيمها واحدا واحدا، لأنني ابن هذه الأرض، وابن هذا الزمان. و غير مألوفة نظراتها المحتشمة، و هي تتفحص النوافذ و الحوانيت الموجودة في جنبات الشارع الكبير.

و غير مألوف منظرها و هي، لا طويلة و لا قصيرة، تحمل طفلتها الصغرى بين ذراعيها، بينما تجر خلفها الأخريات، و تدب بخطى متثاقلة و جسد متآكل هزيل، و عينين غائرتين كأنها آتية من مرض عضال، و "جلاية مغربية" سوداء، تبدو وسطها كعود الخلال...

و غير مألوفة نظرات بعض المارين إليها، و هم يكتشفون بأنها حقا غريبة الدار، قليل كلامها، و أكثره اعتذار. كان يبدووا جليا بأنها تحاول أن تحفظ من حولها لكي تؤمن مواطني أقدامها.

و كعادة الغرباء، يظهر التوجس في نظراتهم و حركاتهم، و حتى إيماءاتهم فيما بينهم، كأنهم يحاولون إخفاء غربتهم، فيتضاكون، و لو بغير سبب، و يساعدون بعضهم على إيجاد أجوبة للأسئلة الغير مفهومة، لأنهم يدركون أن الإنسان عندما يفهم، يرتاح.

و العجيب، أنك لا تسمعهم و هم ينسون لبعضهم بعض الكلمات الناقصة المعاني، فالهم عندهم، هو أن يحركوا ألسنتهم و شفاههم كأنهم يهربون من الصمت، فيضحكون عليها أو يهزؤون منها، أو يبتسمون.

تلك الابتسامة، ليست سوى درأ للإحساس بالغربة بين الناس، هو نفسه الإحساس الذي راودني حين كلمتها خلال الأيام الماضية، إذ كانت الحيرة تغتال تقاسيمها اغتيالاً، فما تقوله ابتسامتها، ليس هو ما تعلن عنه نظراتها، و ليس هو ما تعبر عنه كلماتها و حركاتها.

لست أتذكر جيداً ما الذي جعلني ألح حينها على السؤال عن اسمها، ليس هذا من طبعي، لكنني ألححت، و زادني تمنعها رغبة و إلحاحاً، حتى نطقته مرة باحتشام، سمعت بعضه، لكنها ابتلعت باقي الحروف، فاقتربت منها أكثر، و مددت عنقي نحو منطقتها، لكنني فهمته هذه المرة، حتى إن كانت تتعمد إخفاءه...

- "شرقية"؟ (سألتها في إثبات)
- نعم (و لم تضيف تعليقا)
- و لماذا كل هذا التعب و العناء؟ كان عليك أن تنطقه منذ المرة الأولى جيداً؟

لم تقل شيئاً، ولكنني فهمت بأن الإنسان هكذا، يعف عن النطق بما لا يعجبه، أو ما يراه غريباً بالنسبة للآخرين، حتى ولو كان اسمه ونسبه ولقبه، وحتى إن كان اسم أبيه.

لكن عينيها كانت تقول أشياء لست أفهمها، وقلت لعلها الآن تلعن إلحاحي على استنطاقها و مساءلتها، لعلها تلعن اللحظة التي قصدتني فيها، ولكي أهون الأمر الذي ربما استفحل في خيالي أكثر مما يوجد في عقلها، أردفت متسائلاً في نبرة متسول كئيب، كأنني أستفسرها عن أمر لا أفهمه، لكنها تعرفه، فأجعلها بهذا تحس بأنها في موقع أعلى مني، و أنها تملك الاختيار بأن تفسره لي فأفهمه، أو أن تمتنع عن ذلك فأصير بين يديها كمسكين يتذلل من أجل كلمات كأنها صدقات:

- ولماذا هذا الاسم؟ أم أنك لا تعرفين أنت كذلك؟
- تلك حكاية حكته لي أُمي مرات متعددة حتى حفظتها، لقد قالت بأنها، بعد الزواج من أبي لسنوات، لم تتمكن من الإنجاب، فحملت "الذبيحة" إلى الولي الصالح "سيدي بوعبيد الشرقي"، و ذبحوا في القبة، و أقاموا بين ظهرائي الولي مدة ثلاثة أيام، و تبركوا بحفدته أشرف الزاوية، الذين أقاموا على شرفهم أورادا من "الحضرة"، و في الأخير، دعوا الله لهم بالتيسير في القريب العاجل، و قد حكّت لي أُمي بأنها في إحدى الليالي من أيام الزيارة، كانت نائمة على

الحصير، فرأت في المنام بأن الولي قد وقف عليها بلباسه الأبيض و لحيته الطويلة، وأهداها ثيابا تلبسها، ولما قامت من النوم وجدت في يدها قطعة من الثوب، فاستبشرت خيرا، و علمت أنه أعطاها الخلفة، و لم تكن سوى شهور معدودة، حتى حملت بي أمي، فلما ولدتني، سمّنتني "شرقية"، تيمنا بالولي "سيدي بوعبيد الشرقي".

- و لولا أنها ذهبت إلى الولي، لما كان هذا اسمك؟
- ربها ما كانت لتلدني (ابتسمت هي و استغفرت الله في سري، و أردفت) ذهابها إلى الولي الصالح هو السبب الأول في اعتقادها بالحمل، لقد قالت لي بأنها تثق كثيرا في "بركة" الولي، و أنها قد رآته وقف عليها في المنام بجلبابه الأبيض و لحيته الصفراء، كأنه يحمل في مثواه العصا السحرية للتلبية، فما كان منها إلا أن تلبّي النداء، فعندما تكون مضاما، ترى في كل حلم تفسيراً لحالتك.
- لقد قالت بأنها بعد الرجوع من الزيارة، كانت تؤمن بأنها سوف تنجب أولادا، بل كانت تعرف ذلك، و أنها كانت تعرف اسم مولودها منذ ذاك، فإن كان ذكرا، فاسمه "الشرقي"، و إن كانت أنثى، فاسمها "شرقية"، لأنها وعدت الشرفاء أحفاد الولي بذلك، كان الجميع يوافقها هذا الرأي، و لا من يعترض عليه، نحن في البادية نعيش حياة قبلية تنطوي على الكثير من المسلمات التي لا يمكنك تغييرها أبدا.

- متشرفين لالة "شرقية"، أنت الآن امرأة شريفة. (بادرتها بالابتسامه حتى أدفعها إلى الحديث بعيدا عن السؤال)
- و لكنني معروفة وسط أهلي باسم "فاطمة الشرقية".
- وإذن فقد يكون اسمك فاطمة؟
- لا، لقد غلبت "شرقية" على فاطمة، نحن في البادية نسمي الكثير من مواليدنا بأسماء مزدوجة، فخالتي اسمها "زهرة علي"، و قريبتني اسمها "فاطنة حمو"، و أمي نفسها اسمها "زينب الحاج".
- و ما هي العلاقة الموجودة بين الاسمين؟
- قد تكون هناك علاقة و قد لا تكون، في الغالب يستعملون هذه الطريقة من أجل التمييز فقط.
- ألا تعلمين أن اسمي العائلي أنا كذلك له علاقة بالولي الصالح "سيدي بوعبيد الشرقي"؟
- (كنت أبتسم حينها، حتى ظنت بأنني أمزح، فابتسمت هي الأخرى وسكتت في انتظار أن أفسر لها لغز كلامي، فأردفت قائلا):
- كان أبي يقول لي بأننا ننتمي إلى قبيلة اسمها : "اولاد بوعبيد"، و أضاف بأن المعني بالأمر هو "بوعبيد الشرقي"، كان يقول لي بأننا شرفاء، لأنه ينحدر من سلالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

- "أرأيت؟ ها قد وجدنا عاملا مشتركا بيننا، أنت ابن عمي إذن."

(قالت ذلك ضاحكة، ثم قلت لها) :

- "كنت أعرف سفيرا سابقا للمغرب اسمه العائلي "التادلأوي"، كان يقول لي

دائما: أنت ابن عمي، فأنا "التادلأوي" و أنت "البوعبيدي"، و المثل عندنا

يقول : (بوعبيد الشرقي، يا قنديل تادلا).

كان يعجبني كلام هذا الرجل، و كانت تعجبني طويته، فمهما أنه جال

في الكثير من الدول الكبرى، لكنه كان يحتفظ في نفسه بحيز كبير من التمسك

بالجذور، كان يروق له أن يكلمني عن البادية، عن الخيمة، و عن البهائم

و الزرع و الغابات، فكنت أشعر حينها كأنني أكلم فلاحا، لا سفيرا مثخنا

بالتجارب و مفعما باللغات، و كان بهذا يجعلني أحس بالقرب منه أكثر، فأكثر

الناس تواضعا، هو من يبذل مجهودا كبيرا للاقتراب منك."

كانت "شرقية" حينها تكشف الغطاء عن وجه ابنتها الصغيرة، و تتفحصها

بإمعان، لمحتها من خلف الثوب الأبيض، فلاحظت أن عينها دامعة و مصابة

بالرمد، دهشت للمنظر فسألته بنبرة جادة :

- هل هي مصابة بالرمد؟

- نعم (أجابتنى بلهجة فيها الكثير من اللامبالاة).

- الأمر ليس بالصعوبة التي تتخيلين، اشتر لها الدواء و سوف تكون بخير؟
(نظرت إلي وقالت كأنها تستهين بالأمر).
- يا سيدي، ستشفى الصغيرة، و سوف تعيش، و تكبر، فإنه لا يكبر رأس حتى تشيب له رؤوس، الأولاد يقتلوننا يا سيدي من دون أن ندري و يدرون، إنهم يتسلقون الحياة على أكتافنا و يغرسوننا كل يوم في الوحل، و لا يصيرون رجالا، إلا عندما نختفي نحن تحت التراب.
- تلك سنة الحياة، لكن عليك أن تقومي بواجبك تجاه أبنائك، تماما كما أدى أبواك واجبهما تجاهك و تجاه إخوتك؟
- كنت قد أحسست بأنها تتحدث كفاقدة للأمل في الحياة، ما دفعني لمحاولة التعرف عليها أكثر، و مساءلتها أكثر، لكن الرمد الموجود في عيني الصغيرة أمره أحزني، و أحزني أكثر فقدان أمها كل رغبة في معالجتها، لم أتمالك نفسي، فتساءلت :
- هل أذهب لكي أشتري لك الدواء الآن؟ هل عندك مشكلة نقود؟"
- لا، ليس ذلك المشكل، سأشتري لها الدواء حالا، شكرا لطيبتك و لطفك.
- حينها كانت ابنتها الكبرى و التي تليها قد دخلتا في خصام صامت حول من تستأثر بالهاتف، تدخلت "شرقية" و انتزعتها منها انتزاعا ثم ساقتهما أمامها و هي ترغي و تزيد.

كان هذا الذي حصل في المرة السابقة، و كانت تلك هي كل المعلومات التي أعرف عنها، و منذ ذاك، بقيت الكثير من الأسئلة حائرة في ذهني، قلت ربما يأتي الوقت لكي تجيبني عليها، كنت أشعر بذلك، حتى رأيته اليوم.

زوجة القاتل (هروية)

يبدو أنها بدأت تستأنس بالمكان شيئاً فشيئاً، لأنها تعرفت على بعض الناس، و ربما مرت من هنا مرات أخرى، لكنني لم أرها، فاليوم أرى على وجهها علامات الانفراج حتى إن كانت بعيدة عني، لكنها قادمة إلى هنا لا محالة، فأنا لست مضطراً للاقتراب من وجهك أكثر، لكي أعرف هل أنت باسم أم متجهم، فالتقاسيم التي ترسمها الأحاسيس الصادقة على الوجوه، تكون ساطعة، لدرجة أنك لا تحتاج لبذل مجهود لتكتشف حقيقتها.

كانت تحمل صغيرتها في ذراعها كالعادة، و في اليد الأخرى تحمل ربطة نعناع فاح عبقها بمجرد أن وضعتها أمامي، قطفت ورقة منها و أخذت أنشقها بلهفة، رائحة (النعناع البلدي) فواحة تبعث الحياة في الأحاسيس الراقدة، كنت دائماً أثق في دور الروائح الزكية في تصحيح الأحاسيس، لكنني لا أدري، هل الرائحة المنبعثة من النباتات و الورود في الطبيعة، هي كذلك تأتي بنغمات ثلاث كما تأتي رائحة العطور الذي نصنعه بأيدينا؟

بعض الناس كالأخشاب، لا يتأثرون بنغمة و لا يتململون لنسمة، حتى إنك تحس بأن وجودهم هو فقط من أجل ضمان توازن الطبيعة.

كانت ربطة النعناع ملفوفة في صفحة جريدة يومية، أخذت أنظر إليها عندما لمحت عيني صورة شباب في قوارب الموت، يرفعون أصابعهم بإشارة

النصر، كأنهم هزموا الوطن عندما غادروا الحدود باتجاه "جبل طارق"، و تبدو على بعضهم علامات البغض و النكاية، بينما تغتال الحيرة وجوها أخرى، من بينها فتيات جميلات.

كانوا يتزاحمون، ربما بهذا يتراحمون و يشعرون بالاستئناس خلال الهروب المحموم.

و من يدري؟ فربما تعود هذه الوجوه في القريب، جثا مرمية على ساحل البحر أو المحيط، فحتى البحر نفسه، يشتاق أن يغرقك، و يخنقك، ويقطع نفسك، لكنه يرفض أن يبقيك في قاعه، فيحملك موجه رويدا، ويرميك جثة هامدة للكلاب، أو ترجع بعاهة نفسية على إثر مغامرة قاتلة في الأعالي. قليل منهم من تتيح له الأيام فرصة نصف نجاح، فيعود إلى الوطن ذات صيف بعد طول الغياب مستقلا سيارة بياضة خارجية صفراء، تلعب بأحلام العاجزين المتخاذلين من شباب الوطن.

نظرت إلى عنوان الصورة، كان مكتوبا باللون الأحمر الدموي :
"بسبب البطالة و اليأس، عشرة آلاف مغربي هاجروا إلى إسبانيا في ثلاث سنوات".

تحت عنوان مكتوب بالأسود العريض : "المغرب فوق قبلة موقوتة".

لم أكمل القراءة، فالمعنى واضح وجلي، لكنني، وحبا في الاستطلاع، ألقى نظرة على مقدمة المقال، كان اسم الكاتب واضحا في أولها:
 "شيء ما ينقصنا، هذا ما أكدته الملك محمد السادس في خطاب العرش الأخير، و هو الواقع الذي تؤكد أرقام المغاربة الذين شرعوا في الهروب في السنوات الثلاث الأخيرة."

فكرت: "هل حقا يدري الملك بهذا؟ هل حقا يهتم به و يلتفت إليه؟ أم أن الأمر يتعلق بمقال و كفى؟ بحيث صارت بعض الكلمات مفروضة لكي يكون المقال مقبولا لدى بعض الجهات".

أدرت عيني، فقرأت في عمود على اليسار، نصفه ممزق: "طبيب الفقراء يصرح: الحكم علي هو محاولة لإسكاتي".

كان المقال غير موجود لأن الورقة ممزقة، لكنني فهمت مغزى هذا المقال، فهو يتحدث عن طبيب أثار ضجة في الساحة الإعلامية في الأيام الأخيرة، بحيث يقوم بفحص الفقراء مجانا و بدون مقابل.

أثارت هذه المسألة حفيظة الأطباء الموجودين في الجوار، فقاموا برفع دعوى على طبيب الفقراء، لأنهم يعتبرون أن الفحص بالمجان، يسيء إلى جيوبهم و إلى مهنتهم كذلك، حتى إن كان المستفيدون من هذه العملية هم المعوزون فقط.

قلبت الجريدة، فقرأت عنوانا على صورة منمقة لبعض المغنيين الشباب المعروفين، وتحتة إشهار لشريط سينمائي جديد، به فتاة من بنات الليل في شارع الأحلام، و مكتوب بالخط العريض: "سقطنا في أغاني الميوعة و سينما الليل..."

و في مساحة فارغة على الهامش، يبدو بأن أحدهم كتب بالقلم الأزرق بخط سيء بعض المعلومات حتى لا ينساها : "الأستاذ بدر التلمساني المحامي - المحكمة الابتدائية - قضاء الأسرة - الرباط - الهاتف - قضية طلاق."

كل هذا مر في لحظة من زمن، رفعت رأسي فوجدت "شرقية" تنظر إلي كأنها تنتظر أن أنتهي من القراءة، كانت لا تعير للجريدة اهتماما، كانت على استعداد أن تتخلى على تلك الورقة، و ربما حتى على ربطة العنق التي تفوح روائحها في المكان، كانت لا تفكر إلا في ما جاءت من أجله.

نظرت إليها في شبه استغراب، فهمت حيرتي، ثم اقتربت مني و أسرت إلي قائلة :

- هل تريد الجريدة؟ خذها إن شئت، أما أنا فإني مذ غادرت المدرسة، صرت قليلا ما أعتاد الكتاب.
- هذا خطأ يقع فيه الجميع.

- زد على ذلك أمر الزواج، فإنه لا يترك لك فرصة الانتباه إلى نفسك، تضحكني مقولة ل"محمد شكري" يقول فيها بأن كل الذين تزوجوا من أصدقائه الكتاب قد صاروا يلعبون النرد و الورق مع أصهارهم... (ضحكنا معاً ثم قلت لها)
- ربما بهذه المقولة، يبرر "شكري" عزوفه عن الزواج، لكنني أرى بأنك مثقفة إذن؟ لا يظهر هذا عليك.
- الشواهد العلمية و المستوى المعرفي من الأمور التي لا يملك الإنسان إمكانية تعليقها في لافتة على ظهره، و لا تظهر إلا عندما يتكلم، لقد نلت شهادة الباكلوريا منذ سنين خلت، كان زوجي حينها ريفيقي في القسم، لكنه لم ينجح فجرني جراً إلى الزواج، كان لي طموح كبير في الحياة، كان لي أمل أن أصير طبيبة تعالج المرضى، أو على الأقل ممرضة تزف الأخبار الجميلة للوالدين.
- و من يمنعك من تحقيق طموحك اليوم؟ ففي طلب العلم لا يفوت الأوان أبداً.
- ربما أنت لم تتعرف علي بعد؟
- تعرفت عليك، لأنني سبق أن حدثتك في مرة سابقة، و ما قلناه، هو فقط ما أعرفه.
- و ماذا آخر؟ (ترددت ثم قلت لها)
- لا شيء... (اقتربت مني أكثر ثم بدأت تهمس لي)

- هل تذكر الرجل الذي ذبح صديقه منذ شهور خلت؟
لا أنكر بأنها سألتني، كأنها صفعتني، استغرقت لحظات كي أستفيق من الصدمة، لأني حينها لم أكن أفكر في الحادثة التي أذكرها جيدا، و لكني كنت أفكر بعلاقتها بهذه المرأة الغريبة، لأن الخبر الذي شاع حينها هو أن الرجل قد قتل صديقه لأنه وجده مع زوجته متلبسين، أما الآن، فإني أرى أمامي امرأة بريئة، لكنني رغم ذلك حاولت أن أخفي دهشتي ثم تساءلت متماسكا ربما أكتشف معلومات تفيدني:
- هل تتحدثين على الرجل الذي ذبح صاحبه بالسكين؟
- نعم، لقد تسلل إلى بيته في الليل، و ذبحه و هو نائم.
- كنت منبها لهذا الحديث، كنت أقول: "يا له من جبان، قمة العار أن تغدر حتى و أنت تقتل".
- حاولت أن أستكشف أكثر، و أطل على ما لم أكن أعرفه من أحداث هذه الواقعة، لطالما كنت أسمع فقط روايات بعض الراوين، و معظمهم يزدون في الرواية أو ينقصون، فالإنسان بطبعه يحاول أن يكتب الأحداث كما يريد لها هو، حتى إن كانت جزءا من الماضي الصحيح، سألتها :
- هل كان نائما لوحده؟ (فهمت قصدي، ثم تبسمت كأنها جرحت، حاولت أن أتدارك خطئي فسألتها)

- و أين هو زوجك الآن؟ (كانت تفهم ما دار في نفسي، لكنها أجابت متسائلة)
- و أين سيكون برأيك؟ إنه في السجن.
- هل كنت تعلمين بأمر القتل؟
- زوجي كان رجلاً صالحاً، لم أكن أصدق أنه قادر على القتل يوماً، إنه لا يذبح حتى كبش العيد، و لم أره يوماً ذبح دجاجة، كان يجلس معنا، يضحك معنا ويعيش معنا بسلام، حتى وقع في غرام فتاة مطلقة، فجرتة إلى عالم آخر بعيد عن حياته الأسرية، صار لا يزورنا إلا قليلاً، و تغير حاله، حتى الابتسامة اختفت من محياه دهرًا، و كنا لا نراها إلا لمامًا، صرنا نفرح عندما نرى أسنانه البيضاء على إثر ابتسامة صغيرة.
- و هل كنت على علم بهذه العلاقة الغرامية؟
- كان الخبر شائعًا، و كل الناس يتحدثون به في القرية، بل كانت بعض النساء تأتين إلي بأخبار كثيرة في كل يوم، لا أعرف الصحيح منها و لا غير الصحيح، حتى كدت أفقد عقلي، كانت تأتي إلي امرأة لتقول لي: (ما هذا الذل الذي تعيشين فيه؟ لو كنت مكانك لطلقت نفسي و تخلصت منه)، ثم تأتي إلي امرأة أخرى فتقول لي: (يا بنيتي اصبري و اعذري زوجك و لا تتسرعي، و لا تسمعي كلام العذل و الشامتين، إنهم يريدون أن يشتتوا شملك و ييتموا أولادك ثم يضحكون عليك، فإن من عادة الإنسان يا بنيتي، أن يستمتع

بالتفرج على مصائب الآخرين، بل و يتلذذ باقتراح حلول لها و مساعدتهم على تجاوزها).

كنت أعرف كل شيء، لكنني كنت أصبر و أتمنى و أحتسب أمري لله... (حاولت أنا الآخر أن ألعب دور المصلح قائلاً):

- كان عليك أن تذهبي إلى هذه الفتاة و تحدثيها بشأنه.
- لقد حدثتها كثيرا، لكنها كانت في كل مرة تحلف لي بأنه ليس بينها و بين زوجي أية علاقة، و أن ما أسمع، هو فقط من قبيل الإشاعة و كلام الناس، لكنني كنت أعرف أن هناك أمرا ما، فزوجي كان متغير الطبع حاد المزاج في الأيام الأخيرة، و ليس هذا طبعه كما أعرف، (ثم التفتت خلفها كأنها سمعت صوتا ينادي، و أعادت النظر إلى لامبالية، ثم أنهت كلامها شبه مهزومة، كأنها تسدي إلي نصيحة أو تبعث إلي برسالة) أتعلم؟ (انتبهت إليها أكثر، لأنني فهمت بأن ما ستقوله الآن هو الأهم في الحديث عن تجربتها) إن أعظم الانتصارات و أجملها، هو الانتصار على النفس، إنك تجد الواحد منا يعرف الخطأ و يعرف عواقبه، لكنه لا يستطيع أن يقنع نفسه بالعدول عن فكرة معينة، فيجد نفسه منساقا خلفها كأنه مرغم على اتباعها، بل و مجرد لها ترسانة من المبررات التي لا حصر لها، و في الوقت ذاته، تجده ينصح الآخرين و يسخر منهم لبعض

أخطائهم التافهة، هكذا هو الإنسان، لو انتبه إلى نفسه، لاكتشف بأنه مصاب بالشيزوفرنيا.

- و هل علمت شيئاً عن سبب القتل؟
- "لقد وقع الحادث بعد منتصف الليل، حينها كنت نائمة، و كنت قد اعتدت على غيابه في الشهور الأخيرة، حتى داهمت الشرطة بيتنا بحثاً عنه، أخذوني معهم لأقضي تلك الليلة في مركز الدرك، و لما طلع النهار، أطلقوا سراحي وأوصوني بأن أخبرهم بكل جديد حال معرفته، كان قائد الشرطة في كل مرة يردد على مسمعي : "هذا الرجل خطير، و قد يقتل كل من يقف في طريقه"، أما أحد رجال الشرطة فقد اقترب مني و همس في أذني : "إن التستر على القاتل يعتبر جريمة أكبر من القتل نفسه"، كان يحاول إيقاظ حاسة الحذر في نفسي بهذا الكلام، و كنت أعرف ذلك.

كان كل هذا الكلام لا يهمني، لأنني كنت أدرك بأني بريئة، و أنه لن يأت إلى البيت، لأنه يعرف أننا مطوقون بحزام من الشرطة، و أنه لن يفلت من بين أيديهم في حال الرجوع.

لقد حكى لي زوجي بعد ذلك، بأنه في هذه اللحظات، كان قد هرب إلى مكان مجاور حيث تدثر حتى الصباح، كان يخشى أن يجده أهل القتل فيتقموا منه."

و هنا جاء دور السؤال الذي كنت أتستر عليه و أخشاه، فما أن رأيت

الطمأنينة و الثقة في ملامحها حتى بادرتها:

- ولكننا سمعنا حينها بأن زوجك قد وجد صديقه معك في نفس الفراش، و لهذا قتله.

- هذا ليس صحيحا، لقد ذبحه و هو نائم في بيته.

- و ربما كان ذلك انتقاما منه لنفس الخطيئة؟ (أحسست بأني قد أزعجتها بعض الشيء، و قد بدا ذلك على كلامها حين أجابت منفعة):

- و لنفرض أن هذا الكلام صحيح، هل يملك الواحد منا أن يطبق القانون الذي يريد بيده؟ إن الواحد منا في الكثير من المرات يختار خطأه، فيزينه و ينمقه ويغمض عينيه و ينفذه، و إن منا من ينفذه و عيناه مفتوحتان، و لو كان المقبل على الخطيئة يعرف أن مداها سيذهب إلى حد قلب حياة عائلة رأسا على عقب لما فعل، ولكنه المستقبل الذي لا نعرفه.

- و هل أخبرك زوجك بسبب القتل؟

- "أنا لا أثق في كل كلامه، لأنه يحاول أن يبرر أخطائه الكثيرة و مواقفه المشبوهة و ظلمه الكبير لي و لأسرته، لقد قال لي بأنه كان في حالة سكر، و أن صاحبه قد استعان بغريمته للاستيلاء على أمواله، أنا لا أصدق هذا الكلام، و ربما بعضه صحيح، لكن زوجي قد صار متغير الأحوال في الشهور الأخيرة، و صار

يسبني بأني لا ألد سوى البنات، و بأني فاسقة، لا أدري هل هذه فكرته، أم أنه كان يسمعها ممن يسامرهم في كل ليلة، فإن كل الكلام الذي يقال خلال جلسة خمر، يلتصق بالنفس و يردده الإنسان في كل لحظة، هكذا صرت ألاحظ عل تصرفاته.

إن سبب الجريمة، هو الخمر و النساء، لا شيء آخر، و لن أقنع بأني قتل صديقه من أجل مثل أعلى أو فكرة سامية، كاسترداد المال المسروق أو الدفاع عن العرض و الشرف، ناذرا ما يكون القاتل على حق."

كانت ابنتها الكبرى تعرف أنها تحكي لي قصتهم المثيرة، كانت تخطف إلي نظرات بريئة، اسمها "البوشتاوية"، لقد سمعتها تناديا هكذا، فلما انتبهت إليها، عرفت أنني مستغرب بشأن الاسم، فنظرت إلي و ابتسمت و قالت : "شيلاه أسيدي بوشتى الخمار".

نعم، أفهم جيدا أن هؤلاء الناس، و أنا منهم، يؤمنون كثيرا ببركة أولياء الله الصالحين و بكراماتهم، و يؤمنون بعلاقة الأحداث بحياتهم اليومية، و حتى بمصائرهم، فإنهم إذا ازداد لهم مولود في عيد المولد النبوي، يسمونه "الميلودي"، و إذا ازداد في عيد الأضحى يسمونه "الكبير"، و إذا ازداد في عيد الفطر، يسمونه "الصغير"، إبداعهم في الأسماء، يقتصر على الأحداث

والتواريخ و الشخصيات، فلما حبلت بابنتها خلال زيارتها للولي الصالح، نسبتهإ إليه.

فانصرفت "شرقية" و "البوشتاوية"، و تبعتهما "سكينة" الصغيرة، و بقي السؤال حائرا في خيالي، كيف وثقت في و حكّت لي؟
و لماذا تحكي لي ثم تأمرني بالكتمان؟
كان عليها ألا تخبرني، و ترتاح.
ولكن، من قال؟ لعلها تخبرني لترتاح، فكتمان السر معاناة، أكبر معاناة، خصوصا إن كان كسرهما، فيه جرم و هروب.

امراة معلقة.

كنت كلما سألني أحدهم : هل أنت متزوجة؟

أقول:

لا.

فما يلبث بعدها إلا أن يهمس إلي واثقا : إذن أنت مطلقة؟

فأقول: لا.

فتزداد حيرته، بين أن يشك بأني أمازحه، أو يفهم بأني أسخر منه، لأن

زوجي قد يكون ميتا، فيسألني بانتهاار : و ماذا إذن؟

فأتصاحك ثم أقول له : أنا، يا سيدي، لا متزوجة و لا مطلقة، أنا معلقة !!!

فيحتار لأمري، و لكن لشيء ما في نفسه، هو يريد أن يفهمه أقول له :

ألم يسبق لك أن رأيت هذا النوع من النساء؟

كان لا يهمني هذا الكلام، لأنني أتسلّى به في غالب الأحيان، و أعرف

أنني بعد كل حوار، لن أقتنع بقول أحدهم، كما أنه لن يقتنع بترهاتي، فإني

لازلت منذ أفرعني رجال الشرطة في منتصف الليل، في صدمة رهيبية و غيبوبة

لا أدري متى أفيق منها، كنت أخاف أن أفقد أعصابي في لحظة من زمن، فأبوح

بكل ما في جعبتي من أفكار و أحاسيس، فينكشف المستور و يظهر الحق، لأنهم

يعرفون بأن المستسلم المتذمر المرعوب المرهوب الذليل أكثر قابلية للاعتراف.

أحس بأني لن أخلص من هذا الحمل الثقيل من الآهات إلا إن خرجت إلى الشارع الكبير في ساعة الاكتظاظ، و نزعت كل ملابسي، و بقيت تماما كما ولدتني أمي، ثم بعثت رسالتي إلى المارين، و صرخت بأعلى صوتي دون رقيب و لا حسيب :

"أيها الناس، ألا تعرفون من أنا؟
أنا زوجة القاتل.

الرجل الذي ذبح صديقه من الوريد إلى الوريد ثم هرب.
زوجي داخل سجن صغير هناك، و أنا داخل سجن كبير هنا.
هو مسجون بين حيطان من الإسمنت، و أنا مسجونة داخل نفسي الجريحة و قلبي الذي أعياه الخفقان.

و ما ينفع إن كان السجن كبيرا أو صغيرا؟
ما ينفع سجن أنت فيه، أو سجن هو فيك؟
ما ينفع أن تمشي وسط الناس و أنت خائف أن يعرفوا حقيقتك؟
ما ينفع أن تحسب نفسك حرا طليقا و أنت تتوجس خيفة من أهل القتل أن ينتقموا منك أو يقتلوا أبناءك؟

أيها الناس، هل تعرفون معنى العبودية؟
العبودية هي أن لا تستطيع التخلص مما لا تحبه حتى في خيالك.

هي أن لا تجد شيئاً يدفعك إلى التفكير في الغد.

و هل تعرفون معنى الحرية؟

الحرية هي ألا تفكر في الآخر و أنت تمشي.

أن لا تفكر في الآخر و أنت تنام.

أن لا تفكر في الآخر و أنت تسعى في الأرض.

أن تلبس ما تشاء، و تقول ما تريد، و تسير بدون قيد و لا تفكير.

الحرية، أن ينظروا إليك إن شاءوا، فهذا لا يغير شيئاً فيك.

أن يعرفوا حقيقتك إن أرادوا، فهذا لن ينقص شيئاً منك.

لأنك أنت، تعرف نفسك، و تعرف حقيقتك، و تعرف حدودك، و ترسم

لذاتك عالماً في الذاكرة، فلا تتعدها.

و عندما أنتهي من خطاب الحرية، ستنخفض دقات قلبي المتسارعة،

و تعود وجنتي للاحمرار من فرط الخجل البريء، و أرفع رأسي، و لو قليلاً،

كي أنظر أبعد من أنفي.

ثم أغادر الشارع و قد أفقت من حلمي الجميل، و تمنيت لو يطول، لقد حققت

كل الراحة و أنا أصرخ، أصرخ، أصرخ بأعلى صوتي.

حققت الراحة و أنا أنظر في أعين المارين، و هم يحملون في وجهي مندهشين.

حققت الراحة عندما تخلّيت عن كل العقد التي كانت تجثم على فؤادي، عندما نزعّت ملابسّي ثوبا ثوبا، ثم لبستها ثوبا ثوبا، ما كان يهمني أن ينظر أحدهم إلى عورتي، ما كان يهمني أن يسخر أحدهم من تصرفي، ولكن كان يهمني أن أدرأ المطارق التي كانت تنهال على رأسي حين أتوسد مخدتي، فتفزعني أصواتها البائسة، فلا هي تتوقف عن الصراخ، ولا أنا أخلد إلى النوم الهنيء.

- على الأقل، عندما تخرجين، لا تأخذي معك كل البنات مرة واحدة، هل تقومين باستعراض في الشارع؟ خذي معك ابتك الكبرى و اتركي الأخريات في المنزل، (قالت "حكيمة"، أخت زوجي و هي واقفة في باب البيت كقابض الأرواح، كانت ملاحظتها تشي بكل الكيد الذي أعرفه عن النساء القبيحات، وكنت لا أجيبها، و لا أفكر أن أبرئ نفسي من تهمها الباطلة، كنت فقط أتجاهلها).

كنت أتساءل دائما كيف عاش معها طليقتها عامين كاملين؟ و كيف

تحمل وحما حتى ولدت ابنها "ياسين"؟

كانت تتهمني دائما بأنني السبب في تورط أخيها في القتل، كانت تردد دائما على مسمعي مثلها المفضل: "كصاص ولا غصاص و لا غرفة من غرفات الخيل"، و هي تعني بذلك سوء طالعي الذي حل بأخيها و قد كان قبلي سيد الرجال، لكن ابنها لطيف و هادئ الطباع، أظن بأنه يشبه أباه، حتى إن كنت لا

أعرفه، لقد تسلل من حيث لا يدري الجميع، و دخل علينا البيت مبتسماً،
وأعطى لابنتي "سكينة" ذات التسع سنين قطعة من الحلوى ثم انسحب
بسرعة قبل أن يتنبهوا إليه.

الأطفال لا يعرفون الحقد و لا الحسد، لا يعرفون الحسابات،
مشاعرهم بريئة و تصرفاتهم تلقائية، نحن الكبار، من نزرع فيهم المشاعر
الجميلة أو السيئة، فالحرب بيننا على أشدها، و الأطفال يعيشون هدنة مستمرة
غير محدودة.

وضعت رأسي على وسادتي و أغمضت عيني رغم أن النوم يخاصمني
هذه الأيام، أكثر الأشياء التي أطمئن إليها و أرتاح معها و أحس بالأمان و أنا
برفقتها، هي هذه الوسادة التي تحتضن خدي و تلامس كل وساوسي.
بدأت أقرأ أورادي كالعادة قبل أن أنام، قاطعني سيل من الذكريات،
شيء ما بداخلي لازال يريد أن يبقى صاحياً، و لا أستطيع أن أمنعه، فإنه يملك
أن يمنعني من النوم إلى الأبد، لا تستطيع أن تنام أنت بينما عقلك صاح.

تذكرت المرحوم جدي بلحيته البيضاء و ظهره المنحني و عصاه
القصيرة، لا أعرف كيف حصل هذا، ولكن صورته التصقت في خيالي، زادها
نصاعة هذا الليل البهيم، و أزيدها حضوراً عندما أغمض عيني، كان جالسا

كعاداته يتفحص تسيحه القديم و يردد: "من قال بأنك ستعيش إلى الغد؟ إننا يا بنيتي، قبور تمشي".

تذكرت طفولتي و براءتي.

تذكرت زواجي و فجيعتي.

تذكرت أجمل اللحظات في حياتي، لكنها كانت مصبوغة بالأسود.

تذكرت عندما سألني ذلك الرجل هل أنت متزوجة فقلت : لا، ثم سألني هل أنت مطلقة، فقلت : لا، ثم سألني : و ماذا إذن؟ فأجبت بـأنني لا متزوجة و لا مطلقة، و لكنني امرأة معلقة، ثم داهمتني ابتسامة عريضة عندما تذكرت كيف كانت ملامحه تبدل كلما تكلمت، ما كنت أدرك بأن المعرفة لها كذلك ألم.

نعم، لقد صدقته القول حينها، فكل شيء بداخلي معلق، لا شيء صحيح، و لا شيء مكتمل، و لا شيء مرتب.

هجرت داري و بيتي و أرضي و فراشي، أمور ألفتها و كنت لا أصدق أني يوما ما سأبدلها بغيرها، بل بأقل منها، لقد صرت أسكن في دار غيري و بين غيري و أنا في فراش غيري، أسكن في جحر غائر بداخلي، لست أنا من حفر حفرتي، و أنزل ظلمته، و ملس حيطانه، و أوصل ثقبه.

لم أتأقلم أنا، و لم تتأقلم بناقي مع الواقع الجديد، في كل لحظة تبكي ابنتي "البوشتاوية" و تقول لي : لماذا نحن هنا؟ ألم يحن الوقت لكي نعود إلى منزلنا؟ حينها عرفت بأنك إذا أردت أن لا تتألم لفراق إنسان أو مكان، فحاول أن لا تألفه.

أما "سكينة" فهي في كل يوم تخاصم صديقاتها في المدرسة بسبب موضوع أبيها، بحيث تغيظها بعضهن بأن تناديهن : "يا ابنة القاتل"، فصرت أخاف أن ترتكب في حقهن جرما، و أنا لم أبق قادرة على تحمل هذا كله.

"حكيمه" أخت زوجي، تلعب دور الحسيب و الرقيب، و كل الناس يراقبونني كأنهم يحمونني من نفسي، و ليتهم يحمونني فيخلصوني فقط من سطوة نظراتهم الحادة المليئة بالبغض تارة و تارة بالازدراء.

و كل من سيسمع قصتي في الشارع، فهو كذلك لن يرحمني، فلا أنا متزوجة، و زوجي معي، و لا أنا مطلقة أعرف قيمة نفسي، أنا امرأة معلقة، و لست أنا من كتب هذا، و لست أنا من قدره...

موحش جدا، أن تجد نفسك في الطريق وحدك بعد طول المسير، وحتى الخطوات التي كنت تظن زمنا بأنها تؤنسك، لم تكن إلا ارتدادا لصوت خطواتك.

موحش جدا، أن تكتشف أن مؤنس غربتك الوحيد، هو أنت، لا غيرك.

بيت الفران.

إن الفران لا تبني عشا، و لا تشيد بيتا، ولكنها، فقط، تحتل المكان الذي تراه
مناسبا لتخفيها عن الأنظار، ريثما تنتهي من العبث بالأشياء، وإني لا أدري هل
تتمتع بإحساس، ولكنني أراها دائما تحس بأن الآخر يطاردها، و أنه إن عثر
عليها، سيفتك بها و يقتلها، لأن الفأر بالنسبة إليه، عدو دائم.

كنت أقيم في بيت زوجي في البادية مع بناتي و أختي التي جاءت
لتؤنس غربتنا و لو لبعض الأيام، تماما كما تؤنس النساء أهلهن بعد فقدان
رجالهن، لم أكن أدرك بأن الذي حصل قد أدرجني أنا كذلك في دوامة الانتقام،
كنت دائما أظن بأن المذنب هو زوجي، و أن الذي يستحق العقاب هو زوجي،
لأنني لم أكن معه حين كان يسهر بالليل، لم أكن معه حين كان ينام خارج البيت،
لم أكن معه حين وقع التفاهم على أشياء و عند الاختلاف في أشياء، و لأنني لم
أدفعه إلى القتل، و لم أكن على علم بما فعل، بل و إني كنت أختلف معه في كل
شيء، و لا يستشيرني في شيء، فكيف أحاسب على ما لم أفعل، فقط لأن الذي
فعله هو زوجي؟

و بعد غروب الشمس بلحظات، و بينما كنت جالسة في بيتي، وقفت
ببابنا فجأة شاحنة متوسطة الحجم، و بها سائق و ثلاثة شبان، و معهم حماي
"الحاج" بقامته القصيرة و جلابته المغربية المنسوجة من الصوف المصبوغ

بالأسود، و قبعته الحمراء التي ينعتها الناس هنا بقبعة المقاومة، أو قبعة محمد الخامس، كان رجلا طاعنا في السن، و قد جاء فقط لكي يدهم على الطريق.

لم يستشيروني، لم يسألوني، لم يبالوا بي، كأني لست موجودة في هذا المكان، لم يكلفهم الأمر أكثر من نظرات بسيطة إلينا من أجل الاستطلاع، ثم بدأوا بحمل كل أغراضنا في الشاحنة بطريقة غير منظمة، يراكمون الثياب والأواني و كل الأشياء و أنا أنظر إليهم باستغراب، لكني كنت حقا أحس بأنهم يمارسون فعلا أعيشه بعد الذي حدث، فقد صارت حياتي ركاما من الأشياء، ركاما من الأفكار المتضاربة و الأحاسيس التالفة، و كأنهم جاءوا من أجل إعادة ترتيبها، اقترب مني "الحاج" بخطى متثاقلة ثم خاطبني بلغة ملؤها العطف و الحنان، الكثير من الحب يندلع من صدر هذا الرجل قبل أن يتكلم، قال لي و هو ينبس بشفتيه كأنه يخشى أن يسمعنا أحدهم: "يا بني، عليك أن ترحلي من هذا المكان، أنت لست هنا في أمان."

لم أكن أحسب لهذه اللحظة حسابا، لم أكن أظن يوما أنني سأغادر هذه الأرض هكذا في الليل، دون أن أودع شعابها و هضابها و أشجارها، دون أن أنبطح فيها على صدري ثم أشم رائحة المكان، ما أقسى هذا الإحساس على نفسي، ما أقسى أن تغادر مكانا ألفته و عشقته و أحببته، ثم غادرته مرغما

بحجة بسيطة ألقاها على مسامعك رجل عجوز قائلاً: إن كل الأرض أرض الله، وحيثما أكلت الخبز و نلت الأمان، فذاك وطنك...

هل الوطن يا أبت هو الخبز والأمان؟

أفي الدنيا وطن بلا حب و لا حنان؟

أفي الدنيا وطن بلا إخوان؟

كيف يملك القدر أن يغير مسار حياتك كاملاً في لحظة من الزمان؟
لا أحد منا يملك نفسه.

دخلنا إلى غرفة النوم، حتى أتمكن على الأقل من الحفاظ على المحفظة
حيث أأخذ بعض أسرارى، لا يحق لهم أن يرموها فوق الركام، كانت أختى لا
تفتر عن مساءلتى: "إلى أين نحن ذاهبون؟ هل أخبرك الحاج؟".
إنها كانت تعرف، لكنها تسأل، فنحن لا نسأل لأننا لا نعرف، ولكن
لأن معرفتنا ناقصة.

و بعدما كررت السؤال كثيراً، كان علي أن أرفع الحيرة عنها و عن
البنات، و لو بجواب غير مكتمل قائلة: "أنا نفسي لا أعرف إلى أين سنذهب،
لكن الذي أعرفه هو أننا راحلون".

مرت العملية بسرعة، حتى أصحاب الشاحنة كانوا يسرعون كأنهم
جاءوا بتوصيات الهروب، كأنهم جاءوا ليخطفونا برضانا، ذرفت دموعا

ساخنة في صمت، و امتطينا الشاحنة، و أفلعت صامته كأنها تشيع جثاميننا إلى الموت، أما أنا، فقد بكيت كثيرا في نفسي، أني لم أرفع يدي و لو مرة لأودع السماء التي كانت تظلني، و النجوم التي كانت تضيء ليلى، و الأرض التي كانت تقلني.

كان الرجال يركبون في الأمام بجانب السائق، أما نحن النساء، فلا يحق لنا أن نركب بجانبهم، لا يحق لنا نستمع إلى كلامهم، و قد تخفينا في الخلف وسط الركاب اتقاء للبرد الذي يزرع الرعدة في ضلوعنا و يزكي في أفئدتنا حاسة الخوف من المجهول، و عندما نرفع رؤوسنا إلى السماء، لا نرى إلا ظلاما شاسعا، و غيوما سوداء تلف القمر الأبيض، لا شيء أكبر من بصري الالمحدود إلا هذا الصمت الأسود، و كلما خطفت نظرة إلى إحدى البنات بجنبي، قرأت في عينيها كل مرادفات التوجس و الوجل، كنت أستأنس فقط بصوت محرك الشاحنة و هو يهذي، و كنت أتمنى ألا يتوقف، حتى صرت أشعر بأن الشاحنة بدأت تنقص من سرعتها رويدا، و انعطفت شمالا، و بدأت تقفز إلى مسمعي أصوات محركات السيارات، و عرفت بأننا قد اقتحمنا المجال الحضري، و ولجنا المدينة، و ظهرت الأضواء، و علت الأصوات و نحن مختبئون، كأن العالم كله سعيد إلا نحن.

كنت أحسد بعض القهقهات التي تطرق مسمعي من بين الكثير من الصراخ، و أسأل نفسي: "إنهم يعيشون حياة الترف، إنهم لا يباليون بالحزن، لماذا أنا هنا؟ هل جئت لكي أفسد عليهم فرحتهم؟".

ثم دخلت الشاحنة في ممرات ضيقة، و تباطأت سرعتها، و اقتربت منا الأصوات أكثر، و كثر الهرج، و علمت بأننا اقتربنا من الوصول، و توقفت الشاحنة، و بقينا في أماكننا كأننا ألفنا دفأها، ننتظر أن يطل علينا أحدهم، فيخبرنا أين نحن، و ماذا نفعل.

صعد أحد الشبان الذين كانوا معنا عبر السلم الجانبي للشاحنة، أطل علينا من فوق، أحسست كأننا لاجئون، لكنه كان لطيفا جدا، عكس ما فكرت فيه، بحيث ساعدنا على نزول السلم، ثم فتحوا الباب الخلفي و بدأوا بإفراغ الشاحنة، بينما اصطحبتنا أخت زوجي "حكيمة" إلى الداخل.

هذه الدار ليست غريبة عني، فإني كنت أزورهم هنا باستمرار، لكنني لم أتوقع أني يوما ما سأسكن هنا، لأنني كنت أحس كثيرا بالضيق و الحرج.

لم يسلموا علينا بحرارة و لم يعانقونا، لأنهم كذلك مفجوعون، كأننا كنا معهم، أو كأنهم لا يرغبون في مجيئنا إلى هنا، و عندما دخلنا إلى عقر الدار، كان السلام بيننا باهتا، كان السلام بيننا بلا كلام، إلا الأطفال الصغار، فهم

كانوا لا يحملون هما لما يحصل، بل إنهم قد يعتبرون هذا الحدث فسحة يسعدون بها.

ثم بدأ الشبان يضعون أغراضنا بشكل غير منظم في الغرفة الموجودة على يسار الممر الرئيسي، كانوا يكسسون الأشياء فوق بعضها بدون تفكير، وكنت أنا كذلك لا أفكر في التنظيم أكثر من تفكيري في مستقبلي و مستقبل أسرتي، الذي بدأ يكتنفه الغموض.

و على بعد لحظات فقط، وجدنا أنفسنا نقيم في بيت كئيب، جئنا إليه لا لنسكن، ولكن لنختبئ، كأننا جردان.

لم يتركونا نفعل شيئاً، فإننا في اللحظات الأولى من الرحيل نعتبر ضيوفاً، وحالتنا الراهنة لا تنبئ بالخير، وجع و ألم و خوف و فجیعة و فقد و اغتراب.

آه لو يدري هؤلاء كم أحس بأن رجلاي ترفضان أن تطآ هذه الأرض.

آه لو يعلموا كم أرغب في الرحيل من هذا المكان.

لكني لا أملك إلا أن أرضخ لما تفرضه علي الأيام، و أما أختي، فإنها غداً أو بعده تغادر.

كانوا لا يتكلمون كثيرا، فهم كذلك لهم نصيبهم من هذا الوجع، لكنهم يراعون مشاعرنا، هكذا أرى الأمر لو كنت مكانهم، كان جو الوجع سائدا، كنت أعرف أنهم يسرون كلاما لا أعرفه عن زوجي، فهو ابنهم، و قد يعترف لهم بما لم يعترف لي به.

أحضرت "حكيمة" الطعام، و دعتنا للأكل، كنا نجلس كغرباء، اجتمع الأطفال على المائدة و أكلوا، و أما أنا، فإني كنت أحس بأني أكلت، أكلت كثيرا حتى شبعت، و لم أعد قادرة على الاستزادة.

لم يسألوني عن الذي حصل، كانوا يسألون فقط عن حالتي النفسية، لأنني تعرضت للكثير من الإرهاق في مركز الدرك، و ربما الآن، يقرؤون في ملاحى ما لا أحسه أنا نفسي.

ثم فتحت "حكيمة" باب غرفتها و أمرتنا بالنوم فيها على أمل الانتقال إلى الأخرى حيث توجد أغراضنا بعد ترتيبها في الغد، كانت الغرفة ضيقة، فنحن خمسة أفراد، و حتى الفراش لم يكن كافيا، لكننا قنعنا بها وجدناه أمامنا.

و دخل كل إلى غرفته، و انطفأت الأنوار، ربما ناموا، لكن النوم خاصمني، و لبثت أعاقره ساعات، تذكرت خلالها الكثير، كان يومي هذا بحجم عام من الوجع، و لم أفق من الذكرى، إلا على بزوغ فجر جديد.

تذكرت أني قد رأيت حلما طويلا، رغم أني لم أنم إلا بعض الوقت.
 كان يوما مرهقا، لقد قمت مع بناتي بترتيب أغراضنا في الغرفة المتواضعة التي سنسكن فيها ريثما نعرف ما الذي سيحصل، كانت غرفة أقل اتساعا، كنا ندس فيها أغراضنا دسا، و نحرص ألا تكتشفنا "حكيمة" ونحن نشعل المصباح في عز النهار، و نحرص ألا نفتح النافذة لكي لا يكتشف المارون من هنا أمر رحيلنا، كانت الغرفة مظلمة كجحر جردان، و لم نكن نعارض هذا، لأننا كنا نطلب الأمان.

أتذكر أني حملت صورة كبيرة لزوجي مع أغراضنا، كانت معلقة في غرفة نومنا، و أحسست حينها كأني أحمل معي دليلا على الجريمة، لكني لا أعرف من علقها هنا في مسمار كان مثبتا على الحائط بجانب آيات من القرآن، لا يهم، فهو على الأقل قد فعل خيرا.

"أبوك سيعود لحدا".

لقد ألفت الكلام الكثير حولي، خصوصا أني أقيم، منذ الفجيرة، مع بناتي في حجرة ضيقة في منزل أصهاري، كانت هذه الحجرة، هي مقام "ياسين" ابن "حكيمه" أخت زوجي، لكنه، رغم ذلك، لم يحقد علينا و لم يكرهنا، لأن أكثر شيء قد يكرهك من أجله الإنسان، هو أن تسلبه شيئا يخصه، حتى إن كنا قد أرسلناه إلى حجرة أمه التي كانت ترى في هذا الفعل، تدخلا في حريتها الشخصية، فهي كانت تنطوي على الكثير من الأسرار، و وجود ابنها بجنبها قد أزعجها كثيرا.

و ربما وجد فينا ابنها بعض السلوى والعزاء، فهو كان بلا أب، و بلا أخ، و ربما بلا أم، كان يحس بأننا شركاء معه في الإحساس، فكلنا مقطوعون من شجرة، و كلنا شبه فاقدين للأمل.

إنني لا أنسى بأن "ياسين" هو ابن "حكيمه" التي طلقها زوجها الكبير مدعيا أنه ليس ابنه، و رغم أنها تعتبر هذا الكلام مجرد ادعاء من رجل عرييد لا يؤخذ منه و لا يرد عليه، فإنها كانت تأمر أهلها بالتكتم و التعفف كأنها فاعلة أمرا، و لم أسمع منها يوما دفاعا إلا تسفيها لزوجها الذي كان لا يتوقف عن اتهامها، حتى طلقت نفسها منه مدعية بأنها تحررت من حمقه، والغريب هو أني لاقيته مرة و سمعته يقول بحرقه بأنه تحرر من حمقها.

كل واحد منهما ينظر إلى الأمر من زاويته، إلا "ياسين" المسكين، فقد كان واقعا بينهما، تشتت نسبه، و تشتت حقيقته، و تشتت الحب بداخله، فصار كأنه يبحث له عن أب بالعاطفة، و أم بالعاطفة، و إخوة بالعاطفة.

مهما كان هذا اللغو يزعجني، و كنت كثيرا ما أتمنى أن تصمت البنات فأرتاح قليلا، فإن للصمت وحشة أكبر، كان الصمت حقا موحشا، خصوصا بعدما ينام الجميع و يعم الظلام، فأنظر إلى عيني ابنتي الصغرى "فاطمة الزهراء"، و أتعهد أن أطفئ الضوء لكي تنام، كنت أعلم أن "حكيمة" تتلصص علينا، و تنتظر هذا على أحر من الجمر، فنحن بالنسبة إليها نستهلك كثيرا و لا ننتج شيئا، و لا نساهم إلا بمشاكلنا التي لا تنتهي.

كانت ابنتي الصغرى في الغالب، تقوم فتطفئ المصباح، ثم تعود لتنام بجنبي، و فجأة أجدها مستيقظة، أفهم ذلك من خلال نفسها، فنفس النائم ثقيل و منتظم و رتيب و فيه الكثير من علامات الغفلة و التيهان، أما نفس المستيقظ الصاحي فهو مختلط بالوساوس و الهذيان، كأنه يفكر، كأنه يتكلم.

كانت هي الأخرى تعرف ذلك، و تعرف أي اكتشفت أمرها، و بعد تردد، تصدر صوتا بريئا يمزق غشاء الظلام : "أمي، متى سيعود أبي؟"
كنت قد أخبرتها مرات بأن أباه قد سافر، و أنه سيعود غدا، و كنت أنتظر أن تنسى فلا تسأل، لكنها لم تنس، وإنه لم يعد.

وإني لا أملك إلا جوابا واحدا : "نامي يا بنيتي، أبوك سيعود غدا..."

كنت كلما سألتني و أجبتها بنفس الكلمات، ارتاحت و انقلبت، فنامت على الجانب الآخر بسرعة، كأنها اكتشفت الحقيقة التي كانت تشغل بالها، فأنت عندما ترتاح، تنام.

لكنها في هذه المرة لم تكتف بذلك، لقد صمتت حتى ظننتها نامت، إلا أنها كانت تفكر في سؤال جديد، و تلعثت كطفل يتعلم المشي، ثم قالت : "لكنك يا أمي في كل مرة تقولين لي نفس الكلام، تقولين إن أبي سيأتي غدا، فمتى يحين غدا يا أمي؟".

لم أتمالك نفسي، ذرفت دموعا و تركتها تغسل خدي، كانت الدموع ساخنة، لم أتكلم سريعا حتى لا تكتشف أمري، ثم أنهيت الحوار لا كما أريد قائلة : "نامي يا بنيتي، فالغد على كل حال، يوم قريب."

كان الصمت الذي تلا هذه الكلمات، موحشا، موحشا جدا، أحسست بأن الظلام يخنقني، يحاصرني، يحجب عني حتى رؤية عيني ابنتي المستلقية بجنبي، فأعرف هل نامت، أم أنها تبكي؟

لكني حينها، بدأت أفكر، ماذا أقول لها إن سألتني مرة أخرى؟ إن الصغيرة بدأت تفرق بين الأمس و اليوم و الغد، و من كذب بليل، لا بد سيطلع عليه النهار.

إن أُمِّي كانت دائماً تقول لي بأنه لا يجب علي أن أترك إحدى بناقي تنام و الدمعة في عينيها، لأن دموع الوسادة تكسر الفتاة، فما كان مني إلا أن هربت كعادتي إلى ما تحبه صغيرتي، و هو أن أحكي لها خرافة.

لكنها تعرف معظم الخرافات التي أحفظها لأنني سبق أن حكيتها لها، فقد سبق أن حكيت لها مرات قصة الرجل الذي وجد أفعى متجمدة في الثلج، فعطف عليها و حملها معه، و وضعها بين ثيابه و بطنه حيث الدفء، فما أن عادت إليها الحياة حتى لدغته فقتلته.

و قد سبق أن حكيت لها قصة الذئب الذي وجد الحمل وحيداً فقال له: "لقد اعتديت علي في العام الماضي"، فأجابه الحمل بأنه لم يولد إلا في هذا العام، وأنه في العام الماضي لم يكن قد جاء إلى الحياة بعد، فقال له الذئب: "لقد رعيت في حقلي"، فقال له الحمل بأنه لم يرع بعد في حياته، فقال له الذئب: لقد وردت من مائي"، فقال له الحمل بأنه لم يرضع منذ ولادته إلا حليب أمه، فما كان من الذئب إلا أن وثب عليه قائلاً: "و إذن فإني لا يمكن أن أبقى جائعاً"، فأكله.

و لذلك فكرت أن أحكي لها خرافة جديدة لعلمي أنسيها هذا الكلام:

"حكي راوي الزمان،

عمن كان قبلنا في سابق العهد والأوان،

أن حاكم قرية البسطاء،
 السذج المساكين الأبرياء،
 لم يسبق له أن رأى في المرأة وجهه،
 وفي عرفه، فهو و الجمال سيان،
 حتى أحضرتها له منجمة من بلاد سيلان،
 نظر فيها، فظهرت له صورة ليست كصورة الإنسان،
 قال: "يا ويلتى... من ذا الذي أراه و يراني؟
 يهمز مثل همزي،
 و يغمز عند غمزي،
 و له أسنان كمثل أسناني،
 هذا ليس أنا،
 هذا شخص ثاني،
 يريد تشيطي و إرباكي و عصياني،
 تبا للنساء، إن كان هذا ضربا من هو الغواني،
 سحقا للرجال، إن لم يأتوني بالحجة و الدليل و البرهان،
 أجابه الحاجب في دعة و سكون،
 و قد خاف أن يمسه ضرب من الجنون،

"هذا أنت يا مولاي،

سلطان العهد و الزمان،

حاكم الأمن و الأمان،

أنت بالبطش و البأس باق،

لا يزهو الذر و المرجان..."

ثار الحاكم في وجه الخادم:

"سأبحث عن هذا العدو الآثم،

هذا ليس أنا،

هذا شخص ثاني،

جردوا جيشا ثم ابحثوا عن إنس ليس في صورة الإنسان...

اصقلوا السيوف و اضربوا الدفوف،

وفتشوا تحت الأسوار و الحيطان،

عن الذي ينعكس داخل المرأة للسلطان،

و يتجلى في الزجاج رأي العيان..."

فانطلقوا يهيمون على وجوههم،

في كل حذب و صوب،

و يفتشون من فرط خوفهم في كل درب،

و يدعون بأنهم لن يتركوه وإن كان من قبائل الجان،

حتى الأشجار خاطبوها،

فما باحت إلا بحفيف يجلي شذى الأحران،

حتى الطيور كلموها لعلها تأتي بالبيان،

فما قالت إلا بحجة الهدهد لسليمان،

حتى المقابر بعثروها،

فما جادت إلا بأرماس و أجداث و أكفان،

و عرجوا على الغابات فربما

يجدون سرا في جحور جرذان،

عبثا...

لم يعثروا لهم على الجاني،

أو على حجة ترضي صاحب الصولجان،

فأحضروا منجما،

يعتصر الفرع من كبد الأحران،

و يستنبط المستقبل من الأنجم و الأفلاك في مدارات الزمان،

أغمض عينيه كالعادة واجتمع،

و امتقع و ابتلع و انخفض و ارتفع،

و صار يحرق في ظلامه المصطنع،
فأعرب باسمها كأنها وجد المتهم،
وأوجد الشيء من العدم،
"آه يا ساقبي،
ما كأس عذب هذا العلقم الذي أنتم تسقياني،
لعن الله ربات الخوان،
ربات السحر،
وقارئات السعد في الفنجان،
عرجت على الأماكن كلها،
وذقت المصائب بحلوها ومرها،
وما حسبت التوت يعطي حب رمان،
فالنجمة الحمراء تشكو للكوكب الذري ذو الذنب،
والشمس في الأفلاك أيامها معدودة عندي
كما أتلو في السبعة الشهب،
والباطل قد يجور على الحق الأبلج رأي العيان،
فالمرأة كاذبة،
المرأة كاذبة،

المرأة كاذبة،

ولا تتمتع بمواصفات الأمان،

فتبعد الصورة الحاضرة،

وتحضر صورة غائبة،

يا قوم...

اجعلوا هذا الأمر في طي نسيان،

والهوا والعبوا،

فسوف تعتذر المرأة اليوم للسلطان."

ألقيت عليها نصف لمحة لعلها نامت، لكنها حدتني بنظرة صغيرة كأنها
تعتب علي التوقف عن الحكاية، كأنها تدفعني دفعا إلى الاستمرار في الحكى،
كانت تبدو بين اليقظة و النوم، لكنها تريد أن تستمع إلي حين بدأت حكاية
أخرى:

حكى راوي الزمان،

عمن كان قبلنا من سالف العهد والأوان،

أن حاكم قرية البسطاء،

الشعث، الغبر، الأغبياء،

قام بتجريب بعض طبائع الحيوان،

ليستقطها على بعض طبائع الإنسان،

فيرى:

أينسى الأصل و الفصل و كلما عاشر البخيل كراما جاد بالإنسان؟

أم يبقى الكلب كلبا، شيمته النباح،

و يبقى الشوك شوكا، حتى إن شب وسط شقائق النعمان...؟

هل يصير شجاعا من كان ينعت بالجبان؟

لو ضحك قلبه دما،

كان من قبل يجري في عروق شجعان.

هل يصير أليفا من كان مفترسا؟

سويا، من كان قاتلا شرسا؟

أميناً، من كان عديم الثقة و الأمان؟

فيؤخذ من هذا لهذا ما ينقص من ذكاء،

و يزرع في هذا و هذا ما ينقص من حنان،

و يجتنب من ذاك حب و لين،

و يستقى من ذاك جأش مكين،

و يؤخذ من هذا قد قديد،

و من عرق هذا أصل مجيد،

و من حب هذا و عود هذا،
 ما السر فيه إن كان سادا؟
 فالدون دون، و السيد سيد،
 أيستوي في الطبع قط و كلب، لو نشأ القط في وسط الكلاب؟
 و تستوي في الحق شاة و ذئب، لو نشأت نعجة بين الذئاب؟
 و يستوي نسر الفلا و الأرنب البري في الدين و الإيمان؟
 ففس الحاكم جرو ذئب بين النعاج،
 أمهاته الشياه يعيش بضرها،
 و إخوانه من قطيع خرفان،
 و دس شبلا و ديعا في معشر،
 يحن إن داهمه عطش و جوع إلى أبيه من بني الإنسان،
 و حط صغير قط في وسط الدجاج،
 هو ينصت إليها طول الليل و هي تحاجي،
 و في كل يوم، يتيه معها وسط الحقول،
 ليقطات من بنات الأرض ما يعينه على ضروب الزمان،
 و بعدما انطوت الأيام على الأيام،
 و انقضت السنين و الأعوام،

صار الجرو ذئبا يفترس كل يوم إحدى النعاج،

و صار الهر قطا،

يتغذى بالبيض و يتعشى بالدجاج،

و صار الشبل سبعا،

تنسج الحكايا في كل يوم،

عن فرائسه في الظلام الداجي،

فلما علم الحاكم بأمر الحيوان قال:

" هذا عجب عجيب،

من أخبر الجرو بأن أباه ذيب؟

من علم القط بأن الدجاج طعام رطيب؟

من قال للشبل قبل اليوم،

أنت الملك و سواك مملوك،

أنت الذي يحفظ له في الفلوات النصيب،

هذا الغاب يا سيد الضواري لك فضاء رحيب،

أيها الناس،

السبع لا يعوي ككلب،

فذا واط و هذا مهيب،

و الناس من طوب و من حجر،

فذا صلب، و هذا رطيب،

إذا كان الطباع طباع سوء،

فلا أدب يفيد و لا أديب".

و انقطع حسها، و تثاقل نفسها، لقد نامت، ما أسعدها...

كانت صغيرتي تعرف أنني صباح الغد سأذهب لزيارة أبيها في السجن، كانت قد سمعت الكلام الذي قلناه عن هذه الزيارة، و ما كان يوصيني به الآخرون من أن أبلغه السلام و أوصيه بالكثير من الأشياء، أهمها أنهم سيفعلون جهدا كبيرا من أجل تخفيف الحكم عليه.

أما كلمة حكم، أو كلمة سجن، أو كلمة جريمة، و حتى كلمة موت، فهي ما كانت تحدث في ذهنها ذلك الهلع الذي يحسه الكبار، لأن الحقائق المكتسبة لا تأخذ شكلها الطبيعي في عقل الصغير إلا بعد الكثير من التجارب المتكررة، و لقد حسدت ابتني على هذا الإحساس، و أشفقت عليها بأنها ستندم، لأنها في كل يوم، تفكر أن تكبر.. كان الكثير ممن أعرفهم من المقربين، يبعثون معي إلى زوجي الكثير من الرسائل الشفوية، و الكثير من الكلام و السلام، لكن لا

أحد يفكر في القفة التي أحمل و أنا غادية إلى السجن، كيف أملؤها؟ كيف أحملها؟ وكيف أوصلها إليه؟

لقد صرت معروفة لدى البائعين في سوق الخضرا، لا بد أنهم يعرفون الكثير من الحالات التي تشبهني، و رأوا كيف كنا نحرص على اختيار أحسن السلع الموجودة في السوق و أجودها، كنت كلما وصلت عند رجل مسن اسمه "با علي"، يبيع الفواكه، يقول لي بلهجة المتحمس: "إن السجن يا ابنتي، هو الذي يفكر كل أسبوع في ملئ القفة، و أما المحبوس في السجن، فهو نائم ينتظر، و لن يلمس لك عذرا إن لم تحملي له أقل غرض من الأغراض".

إن الأمر الذي كان يحزنني في هذه العملية، هو أن القفة كانت واسعة و لا تريد أن تمتلئ بسرعة، و أما النقود التي في يدي، فكانت تنتهي بسرعة.

مرات كثيرة، تمنيت أن أحل مكان زوجي في السجن، و يخرج هو بنفسه ليرى مدى المعاناة التي سيلاقها لكي يملأها، و مرات أخرى أحس أنني أغبطه على هذه القفة المملوءة، و التي لم يسبق أن أدخلتها إلى بيتي يوما، كنت أنتقي له أفضل الفواكه كأني أشتيها لنفسي، و أحرم على أبنائي تذوقها، و كنت أندب أنني لم يسبق أن اشتريتها أو تذوقتها يوما، و أنني لولاه، لما فكرت حتى في النظر إليها، و كم كنت آسف و أنا أرى بناقي تشتتين روائح الفواكه عندما أحملها إلى المنزل دون أن تذوقنها.

ثم يأتي الصباح، في يوم الزيارة، فتكتمل المعاناة، و أحمل على أكتافي كل تلك الأثقال التي أنفقت مالا و وقتا من أجل صنعها، كان سائقوا سيارات الأجرة هم كذلك قد عرفوني و حفظوا حتى توقيتتي، فما أن وصلت إلى المحطة حتى جرى السائق نحوي و خطف القفة من يدي و ذهب بها سريعا، لقد أحسست بأنه حمل عني عبئا ثقيلا، حتى إن كنت أعرف أن هدفه من كل ذلك ليس هو مساعدتي، و لكن هو ضمان زبون سيؤدي الثمن مضاعفا، لأنه يحمل أثقالا.

أخبر القائل (حكيمه).

بعدها انتهت الأدبية الأمريكية "مارغريت ميتشل" من تأليف روايتها الوحيدة و الفريدة : "ذهب مع الريح"، كان آخر ما قالته فيها: "و على كل حال، غدا يوم آخر..."

غدا، هي الكلمة التي تعينك على نسيان الجرح، على أمل أن يلتئم...
غدا، هي الكلمة التي تجعلك تتناسى كل هزائمك، على أمل أن
تتصر...

غدا، هي الكلمة المواساة لصمت الضعيف، على أمل أن يتكلم...
غدا، هو العذر الذي أوصلني إلى هذا اليوم، و إلى كل الذي أتجرعه في
هذه الحياة، فطعم الهزيمة صار جزءا من لساني، و رائحة الانكسار صارت
إحدى مكونات الهواء الذي أنشققه.

كان أبي تاجر خضر، و كان يتنقل في الأسواق على مدى الأسبوع،
وكان له صديق شيخ، طاعن في السن، يحترف التجارة مثله، كانا يعيشان مع
بعضهما أكثر مما يعيشان مع أهلها.

سأخني الله، لقد كرهت الشيخوخة بسبب تفحصي للملامح هذا الرجل
في كل مرة ألقاه، فأقول لنفسي هل سأبدو أنا كذلك يوما ما هكذا؟ بعينين
ذابلتين شبه مغمضتين، و تجاعيد كأنها أخاديد على صفحات الجبال، و جلد

متكلس و أصابع ربا متعفنة، و أظافر بلون الصخور، و حركة بطيئة، بطيئة جدا.

مذ كنت صغيرة، و قبل أن أغادر المدرسة غير نادمة، كنت أجلس في القسم و عقلي مع أبي في السوق، فلما أخرج أعتاده، فأجده جالسا على طريقته المفضلة رفقة صديقه، يحتسيان كؤوس الشاي بلا انقطاع، فأستمع بحديثهما الطويل المتقطع، و الذي يكون في الغالب مجترا من ذكريات تاريخهما المجيد، إذ كانا يجللان كل مظاهر الحياة، الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية بطريقتهما البدوية العامية الخالية من كل دراسة أو معرفة صحيحة، إلا من التجارب، و عندما يبدأ الإنسان باجتراح الماضي دون التفكير في الغد، فاعلم بأنه ينتظر الموت، هذا الذي كنت أراه يحصل لهما.

حتى الأسماء، فهما لا يحفظانها.

حتى الأحداث، فهما لا يعرفانها إلا بدلائل و علامات، و أكثر الأسماء التي أسمعها تتردد على لسانيهما، هي فرنسا و الاستعمار و المقاومة و "محمد الخامس"، أما تفسيرهما لتاريخ المغرب خلال هذه المرحلة، فهو مأخوذ فقط مما يحفظانه من إحدى أغاني "عبيدات الرمي"، بحيث قال أبي ملحنا:

"رفود الخامس (محمد الخامس) أخوتي كاع بكينا عليه

ملي هنزو سيدي مع الثلاثة تموغادين سايرين بيه

ليصانص داروا قليل، والشيفور مكري عليه

حط التسبيح على الموطور، و مول الشي قاد بشيه

أخذ الآخر يفسر هذه الكلمات كأنه عاش الأحداث أو كأنها مرت أمام عينيه، و يحلف بالله أن محرك الطائرة و هي تحلق في السماء، كان قد فرغ من البنزين بفعل فاعل، و أن بركة الملك المرحوم غلبت كيد الكائدين، فوضع التسبيح على المحرك، فامتلاً بالبنزين، و استمرت الرحلة بسلام.

أما أبي فقد أقسم بأنه في تلك الليلة الحزينة، خرج من خيمة أبيه والأسى يلف فؤاده المنقبض حزناً على نفي الأسرة الملكية، فرفع رأسه إلى السماء، فرأى صورة "محمد الخامس" على عربته و فرسه الأبيض، مرسومة في القمر.

لم أكن لأتكلم أو أسأله، لأنني لا أتدخل في حديثهما أبداً، و لكنني عندما سمعت هذه الحكاية، قفز السؤال من تلقاء نفسه :

- "أصحيح يا أبي؟ رأيته في القمر؟"

لم يكن سؤالي استفزازاً، فأنا على الأقل أخاطب بشراً سوياً هو أبعد ما يكون عن العاهات النفسية المتفشية في الشباب اليوم، أجابني نعم، بينما ارتقى صديقه في أحضان الحديث مولوداً كأنني أشركت بالله فقال زاجراً:

- "و هل تشكين في هذا يا بنيتي؟ أنا كذلك رأيته بعيني هاتين اللتين سيأكلهما الدود، كان يمتطي فرسا أبيض.

كانت فكرة ذكية من الوطنيين، بحيث أن فرنسا لا يمكنها أن تبدل لون القمر، أو تحذف الصورة من عقول الناس، أو تغير مسار السحب، أو حتى تمنع الأعين أن تنظر إلى السماء.
ثم أضاف أبي :

- لقد أذاقه الفرنسيون مر العذاب، لكنه لم يستسلم.

و أضاف الآخر :

- و أغروه بالمال و الجاه من أجل أن يتنازل، لكنه لم يتنازل.

- فرنسا يا بنيتي، دولة مجرمة، كانت تجربنا خلفها كالنعاج.

- لقد قاموا بتعبيد الطرق، فقط لكي يحملوا منتوجاتنا و خيراتنا إلى بلادهم.

إنهم لا يعرفون بأن فرنسا لازالت تجربنا خلفها إلى اليوم، و أنها تتدخل في سياستنا و اقتصادنا و في حياتنا اليومية، و ربما في أمور لو عرفناها لكانت الكارثة، إنهم يتكلمون عن طردهم للاستعمار بالنار و الحديد، عن كشفهم لصدورهم العارية أمام فوهات مدافعه العاتية، عن تضحياتهم و موتهم في سبيل الوطن، و ربما لو علموا بأن الاستعمار لم يخرج، لما صدقوا هذا الأمر، لأنهم يقولون بأنهم رأوا المعمرين بأم أعينهم و هم يودعون المستعمرات، رأوا

الجنود بأمر أعينهم و هم يغادرون الثكنات، رأوا الجلاء الأخير فصدقوا أعينهم، ولكن الدول أسرار.

كنت أتفرسهما و هما ينتقلان من موضوع إلى آخر، و العجيب في هذا الحوار، أنهما يعتبران ما ينطقانه من كلام، قولاً صحيحاً لا يقبل الجدل، و لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه.

و تحدثا عن السياسة الحالية الفاشلة للحكومة، و عن الربيع العربي الذي حاربتة الدولة عن طريق إقحام الإسلاميين في الحكم، و الزج بهم في لعبة الانتخابات، و الزيادات المتتالية في المواد الاستهلاكية، حتى صار الشعب يراهم عدوه الأول و الأوحده، و هو الذي كان يرى فيهم الخلاص من الفقر والتيه، لكن الذي أعجبني هو استنتاج أبي في الأخير: "هكذا هي السياسة الملعونة، ليس فيها صديق دائم، و ليس فيها عدو دائم".

لكن الأمر العجيب، هو أن أبي كان يقحم الخضر و الخبز في كل تحاليله السياسية و الاقتصادية، كان مؤشر النمو الوحيد عنده، هو ثمن البطاطس في السوق، بل إنه كان يقول لنا مرات ضاحكاً، بأن عملتنا ليست هي الدرهم، ولكن هي البطاطس، لأنها أكثر شيء نستهلكه، و لو حق له أن ينسبنا مرة في كلامه، فهو ينسبنا إليها و يقول: "نحن شعب البطاطس".

لا أنكر بأن هذه الفكرة تنطوي على الكثير من الصواب، إلا أنها، على حسب ما أرى، تندرج في إطار ما أسميه، السياسة الصغرى، و ذلك في مقابل السياسة الكبرى.

إن أبي، لا يفكر في تغيير الواقع، أو الحديث عن المسؤولين الفاسدين، ولكن يفكر فقط، في ثمن الخضر في السوق، و تلك هي السياسة الصغرى، تفكير أبي و صوته، لا يمكنها أن يجدا صدى لدى المسؤولين و لدى المخزن، بل إنها لا يشكلان أي خطر عليه، و أي تهديد لمصالحه، حتى إن كانت مبنية على نهب أموال الشعب، تفكير أبي، كمن يغير السائق في كل مرة، بينما السيارة معطلة.

و أما الحديث عن المخزن عند أبي و صاحبه، فهو بمثابة الخطيئة.

إني أتذكر في ليلة من ليالي رمضان، حين كنا مجتمعين، نحاجي ونضحك بينما، حتى صار كل الذي نقوله مضحكا، فما كان من أمي إلا أن سألتني : "ماذا تريد أن تكون في المستقبل يا بني؟"

لم أفكر كثيرا، لكنني نطقْتُ ضاحكة : "أريد أن أكون ملكة".

فسكت الجميع فجأة، وحدجني أبي بنظرة قاسية، بينما كانت أمي تنظر إليه كأنها تتوسله ألا يضربني، ثم قالت لي متتهرة : "يا بني، استعِذي بالله من الشيطان الرجيم".

حاولت أن أرضي أبي و أمي، فصرت أردد مرات : "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..."، و حاولت أن أبدي لهما كأني ارتكبت ذنبا، و أطلب من الله الرحمة و الغفران.

نعم، "المخزن" نفسه، يحاول أن يغرقنا في السياسة الصغرى، سياسة الخضر و الحزب، بينما يغلف السياسة الكبرى بغلاف القدسية و الدين.

انتبه الرجل العجوز إلى وجودي أخيرا، نظر إلي، ثم سأل أبي :

- هذه ابنتك "حكيمه"؟
- نعم، هذه ابنتي الوحيدة.
- لقد صارت عروسا، ماذا تنتظر لتزويجها؟
- عندما يأتي نصيبها، فإني لن أتردد.
- لا ترفض رجلا، فإنها، مهما كان الرجل، ستحاول أن تخلق لنفسها الظروف المناسبة للعيش، ثم إن الزوجة الصالحة هي التي تصلح زوجها و تصبر عليه و تعيش معه الحياة كما جاءت إليها.
- البنت كالعار، ما لم تزوجها فأنت معرض لكلام الناس، لو جاءني عريس لما ترددت في الزج بها و دفعها إليه.
- ماذا لو تزوجها لابني "إسماعيل"؟

- لكن ابنك منحرف و مدمن خمر، أخاف ألا يقدر على تحمل مسؤوليات الزواج.
 - يا سيدي، إنها في مقام ابنتي، أضمن لك أنها سوف تعيش في عهدتي، و أفي لن أذخر جهدا لإسعادها حتى يعود ابني المتعوس إلى وعيه و يصلح حاله، إنني أعرف أن الزواج هو الحل بالنسبة إليه.
 - نعم، عندما يجد نفسه مقيدا بمسؤوليات و زوجة و أبناء، فإنه سيضطر إلى العمل و الكسب و الإقلاع عن الخمر.
 - إن هي إلا مرحلة قد مررنا منها قبله، و ها نحن الآن رجال نتحمل أعباء أسر بأكملها... (ابتسم أبي و قال له)
 - من كان يقول بأنك أنت ستقلع عن الخمر؟ (ابتسم هو الآخر و قال لأبي مستنكرا)
 - و من قال بأنك أنت ستقلع عن السجائر؟
 - لقد دخنيت لمدة خمسين عاما، و لم أفلح عنه إلا عندما أخبرني الطبيب بأن الموت ينتظرني على بعد خطوات.
- كنت أنصت إلى هذا الحوار الأحمق، لكنني لا أستطيع أن أنبس ببنت شفة، لا أستطيع أن أقول لهم بأني على علاقة مع شاب منذ مدة ليست بالهينة، وأنا نحب بعضنا و قد اتفقنا على الزواج، و أنه وعدني مرات بأنه سيأتي

لخطبتي و أخلف، و أن المسألة فقط، وقت لا غير، كنت عندما أقول هذا الكلام لأمي، تقول لي:

- و لماذا تريد أن تحبي لتزوجي؟ (فأسكت أنا فتجيب نفسها كأنها تتسلى)
- تزوجي، ثم أحبي، فمادمت تريد الحب فقط، أحبي الذي بين يديك؟ (كان الحب عند أمي كلعبة، و أنا أجزم أنها لم تحسه يوما مع أبي مادامت تتكلم عنه بهذه اللغة).

لا أستطيع أن أقول لهم بأنهم كانوا يقولون دائما بأن "زواج ليلية تدبيره عام"، لا أستطيع أن أقول لهم بأن "اسماعيل" ابن الخضار، إنسان مدمن سكير، و أنه ليس من مستوأي، و ليس من الصنف الذي أريد، و أنني لا يمكن أن أعيش معه يوما واحدا، فكيف أتزوجه؟ بل إنهم لا يعرفون بأنني أكرهه.

لا أستطيع أن أقول لهم بأن الزواج ليس علاجا للانحراف، و ليس علاجا للإدمان، و أني لست لعبة يلعبون بها حتى يملون منها ثم يرمونها خارجا، و أني لست فتاة كثيفة يفتضون بكارتها و يهتكون عرضها من أجل محاولة علاج ابنهم من الانحراف و الإدمان، فإن نجحوا في العملية فذاك، وإن فشلوا فالثمن أؤديه أنا، ثم يصدروني بكلمات الصبر و الدعوة إلى الاستسلام ورفع الأمر لله.

و اتفق الرجلان في السوق، و انتهى الأمر، لقد خرجت من أجل قضاء غرض، فعدت متزوجة بالعرف، لست أدري هل حدث هذا صدفة، ولكنني كنت دائما أو من بأننا لا نسمي صدفة إلا ما نعجز عن إدراك سبب لوجوده.

عندما أخبرتني أمي و رفضت، صارت الدنيا حولي جحيما، و كل العذر أن أبي يقول : "لقد وعدت الرجل، وأعطيته الكلمة، لا يمكن أن يقال عني إن فلانا يعد و يخلف، أو أن فلانا لا يحكم بناته، الكلمة سيف على رقبتني، و أنا لن أخلف عهدي و لو كان من ورائه الخسران المبين."

ما كان يهم أبي، هو ألا يقال عنه بأنه وعد و أخلف، و أما أنا المعنية بهذا الزواج، فهو لا يستشيرني و لا يعير رأيي أدنى اهتمام.

إن الآخر في مجتمعنا، يحدد مصائرنا بشكل كبير، و يتحكم فينا من حيث ندرى و من حيث لا ندرى، الكثير من الأحداث كانت ستتخذ سبلا مختلفة لولا هذه الرقابة التي يفرضها الآخر علينا من خلال وجوده فينا، في عقولنا و قلوبنا.

أبي يريد أن يزوجني لأنه يخشى أن يشير الآخرون إلي فيكون قد أصيب في عرضه و شرفه، و عندما اتفق مع صاحبه على تزويجي لابنه المنحرف، لم يرض بالتراجع عن رأيه، لأنه يخشى أن يقال بأنه يخلف الوعود.

كانت الموجة أقوى مني، و كان القدر أكبر مني، لقد زوجوني "لإسماعيل" ابن الخضار، كانت أيامي معه قاسية، لقد عشت معه الإهمال والاعتداء و الظلم، كان لا يشتغل و لا يتحمل أية مسؤولية، كان أبوه يفعل كل شيء، و كان هذا يؤلمني، إني أحس كأنني أعيش عالة على هذه الأسرة، فحتى لو كانت المرأة سيئة، فهي تتمنى أن يكون زوجها هو المعيل الوحيد لها. و في الشهر الذي ازداد فيه ابني "ياسين"، مات الأب الشيخ، و بقيت أنا عرضة للعراء و الجشع و الظلم، تلك هي النقطة الوحيدة التي لم يحسب لها أبي حساباً خلال اتفاه مع الرجل.

كان زوجي يمارس علي كل ما يأمره به عقله المخمور، حتى تدهورت حالتي و صرت أبدو كمسكينة أو متشردة، فما كان مني إلا أن أغالب أسرتي وكبريائي، و أطلب الطلاق، و أمام رفضه، لأنه كان يعتبرني وسيلة للاستمتاع، طلقت نفسي تطليق الشقاق، و جئت أسكن مع والدي في غرفة مشروكة، تلك باختصار قصة زواجي الفاشل، و التي استفدت من بعدها، بأن الجهل نفسه لا يكون مضرًا للإنسان، إلا عندما يصير معبوداً و محاطاً بهالة من القدسية، فلا أنت قادر على تغييره فتغيره، و لا أنت تحتفظ به فينفعك.

أخبار المغرب (الجريدة)

(إذا كتب عليك أن تحضر إلى حفلة تنكرية، فلا تحضر بوجهك الحقيقي، تنكر أنت كذلك)، لذلك كنت دائما أحاول أن أبدو بمظهر المرأة الغامضة، أن أتستر على نفسي لكي لا يعرف الآخرون بأن خلفي قصة، وأني زوجة القاتل الذي داع خبره بين الناس، و رأوا بأم أعينهم قصته التي تشبه أفلام الأمريكان، إذ ذبح رجلا من الوريد إلى الوريد و هو في فراش النوم، وتركه غارقا في دمائه، وترك خلفه أولادا يتامى و زوجة مثلي أرملة.

من من هؤلاء الناس لم يسمع الخبر؟

من منهم لا يتمنى أن يعرف المزيد عن هذه الحكاية؟

كنت أصدق مقولة "حكيمة" أخت زوجي رغم كرهى لها، حين تردد دائما: "يا شرقية، أنت امرأة غريبة عن هذا المكان، و الغربة تبدو واضحة على تقاسيم وجهك، لأنها ليست مجرد بعد بين الأجساد أو مفارقة للتراب، ولكنها إحساس بالوحدة، حتى إن كنت وسط أهلك و في وطنك".

كان إحساسي بالغربة يتغذى من الفقر و الحرمان اللذان يجثمان على نفسي، فرص الشغل قليلة، و الجميع هنا يدعون بأن البلاد تعاني من أزمة اقتصادية حادة، هذا كلام كنت دائما أسمعه، كأنهم يداوون به جراحنا ويؤجلون غضبتنا إلى غير أجل، لكنني أعرف أن من يسكن هنا عموما يخاف،

لا يمكنه أن يحاسب مسؤولا، ففي كل مرة يطالعنا الإعلام باسم ورقم أحس معها أن البلاد تتعرض لاغتصاب جماعي، لكن يدا تتدخل فتصرف العيون عن النظر إلى الحقيقة، تصفق بعيدا فتصرف الأذهان و تنشغل القلوب، دائما هناك شيء ما نحن لا نعرفه، يجعلنا نفقد الثقة في بعضنا فلا نجتمع.

- يتحدثون عن الأزمة العالمية، ثم يصرفون المليارات في الانتخابات، ولا يستفيدون منها شيئا.

- ولماذا لا يستفيدون؟ إنهم يمارسون الديمقراطية أمام العالم.

- الديمقراطية تفترض الحرية أولا، والذي يجب أن يراها ويحسها هو الشعب، هو الوطن، وليس العالم.

- كلنا أبناء هذا الوطن.

- هل تعنين بهذا أنك مواطنة؟

- نعم، أنا مواطنة لأنني أسكن هنا.

- نحن نسكن في هذا المكان، نقيم فيه، وربما ندفن فيه، لكن...

كانت "حكيمه" تعرف جيدا مدى ما يمكن أن يثيره هذا الخبر من

إزعاج لي، فتساءلت مستنكرة، حبا للاستطلاع، وهي تنظر إلي: "أصحيح أن

كل الناس في هذا المكان يعرفون خبر القتل؟"

لم تتردد في التأكيد قائلة: "خبر القتل لا يعرفه الناس هنا فقط، و لكنه انتشر في كل أنحاء البلاد".

صدمني هذا الكلام، فسألتها مستفسرة :

- وكيف انتشر بهذا الشكل سريعا؟
- لقد كتبت عنه الكثير من الجرائد الورقية و الإلكترونية، و أغرب من ذلك كله، هو كيف و من أين جاءوا بصورة زوجك، إنهم متخصصون في الحوادث والمصائب.

- أعطني اسم الجريدة الإلكترونية، أريد أن أراه.

- الفضول؟ (ضحكت)، انظري جريدة "أخبار المغرب".

أخذت هاتفي و كتبت هذا الاسم في متصفح 'غوغل' للبحث، ضغطت على النتيجة الأولى فظهرت صفحة الجريدة الإلكترونية بعنوانها وألوانها و أشكالها و صورها الكثيرة، و عنوان مثير: "اضغط هنا لتثبيت برنامجنا و ليصلك جديدا باستمرار".

ضغطت على الزر، و قمت بتثبيت برنامج الجريدة الإلكترونية، و لجت صفحتها الرسمية، مكتوب أعلاها بالخط الكوفي الأحمر العريض: "أخبار المغرب"، و تحته عريضة تفسيرية مكتوب فيها: "جريدة إلكترونية إخبارية تتجدد على مدار الساعة".

كانت العناوين كثيرة و متعددة، كانت صفحة الجريدة فعلا تعبر بشكلها عن التنوع المرادف للخلاف و الاختلاف و النفاق و العبث و الفوضى التي يعرفها المجتمع، و لكل عنوان صورة معبرة، لم تثبت عيني على موضوع واحد، لم أستطع أن أركز كأني أبحث على صورة زوجي من بينها، لكنني فهمت بأن المقال المكتوب عن زوجي موجود في صفحة الحوادث.

في معرض بحثي، وجدت صفحة "الرياضة"، ضغطت عليها بداعي الفضول، أثار انتباهي عنوان : "مليار سنتيم، هو ثمن صفقة المدرب الجديد للمنتخب الوطني"، أدهشني هذا الرقم، و حتى إن كنت لا أعرف كم يساوي، إلا أني أعرف بأنه رقم خيالي و كبير جدا، و تساءلت في سري : "ما الذي سيفعله هذا المدرب حتى ينال كل هذا الأجر المأخوذ من جيوب الفقراء؟ و لو أعطوا هذا المال للاتحاد الإفريقي لكرة القدم لباعوا لهم الكأس دون عناء".

في الجهة المقابلة، يوجد مقطع مصور للجماهير الرياضية في المدرجات بلباس أخضر، و تحته عنوان : "(في بلادي ظلموني)، رسائل جماهير الرجاء البيضاء للحكومة"، أدهشني العنوان، لأن الذي أعرفه، هو أن كرة القدم، سلاح الحكومات من أجل إلهاء الشباب عن المشاكل الحقيقية في بلدانهم، كيف صارت اليوم سلاحا تستعمله الجماهير من أجل الإعراب عن مطالبها؟

لم أتردد في الضغط على رابط المقال، ثم بدأت أقرأ بشغف : "كالنار في الهشيم، انتشر فيديو لأكثر من خمسين ألفا من الجماهير الرياضية للرجاء البيضاء المغربي في إحدى مباريات كرة القدم، ينشدون أغنية (في بلادي ظلموني)".

إن من يشاهد الفيديو، يشعر كأن المدرجات تهتز تحت أقدام شباب يطالبون الحكومة بتحسين أوضاعهم، وتأمين حياة أفضل لهم، و ضمان العيش الكريم، بدل ملاحقتهم و رميهم في السجون، خمسون ألف مشجع يرددون النشيد بلسان واحد، أعرف أن تنظيما كهذا سيغضب المسؤولين، لأنهم يفرحون عندما يروننا مشتتين كالبهائم.

لم أتردد في الضغط على المقطع و مشاهدة النشيد، لقد كان رائعا ومعبرا عما نعيشه و نحسه، و الأجل، هو هذا الحشد الكبير من الجماهير التي تردد :

" في بلادي ظلموني لمن نشكي حالي

الشكوى لربي العالي غير هولي داري

فهاد البلاد عايشين فغامة طالبين السلامة

انصرنا يا مولانا

صرفوا علينا حشيش كتامة خلاونا كيف اليتامي

نتحاسبو فالقيامة

مواهب ضيعتوها بالدوخة هرستوها

كيف بغيتو تشوفوها

فلوس البلاد كاع كليتها للبراني عطيتها

جينيراسيون قمعتوها..."

ضغطت على زر الخروج، وجدتني في صفحة السياسة، و العناوين

متتالية :

- "المذابح السرية : المغاربة يأكلون القطط و الكلاب و الحمير.
- المغرب من الدول الأقل تعرضا للهجمات الإرهابية لأن المواطن هو أول من يبلغ عن الجريمة.
- الأمطار تقطع الطريق على المسافرين في كل مناطق البلاد.
- الزيادات المتتالية في أسعار المحروقات، و انعكاسها على أثمان السلع.
- الحكومة لا تمثل تطلعات الشعب.
- موجة البرد القارس تقتل راعي غنم بجبال الأطلس الكبير.
- موت امرأة داخل مستشفى الولادة، بسبب الإهمال.
- رئيس الحكومة يعلنها بصراحة : المستوى المعيشي في المغرب أحسن من فرنسا".

أحسست أنني بدأت أطل على الوطن من أعلى، وبدأت أقنع بأن السياسة أداة نجسة يستعملها الحكام من أجل إذلال الشعوب، لم أصدق ما قرأت، ولكنني فهمت.

ضغطت على زر الخروج، ثم دخلت إلى صفحة الحوادث، وبدأت العناوين تنساب أمامي :

- "شاب يقتل أبويه بسبب المخدرات.
 - قائد يتورط في قضية جنسية مع زوجة صديقه.
 - القبض على أم عازبة تركت رضيعها في المسجد ولاذت بالهرب.
 - مصرع أربعين مهاجرا في قارب الموت على الساحل الإسباني.
 - دفاع المتهمين بترويح لحوم الكلاب ينشد البراءة.
 - الأمن يفكك خلية داعشية ببني ملال.
 - سقوط تلميذين في بئر داخل مدرسة (بقلعة مكونة).
 - رجل يقتل صديقه من أجل المال، ويهرب بطريقة هوليودية".
- هذا العنوان الذي كنت أبحث عنه، إنه مقال عن زوجي، دخلت إليه، ثم بدأت أقرأ بسرعة، كأنني أبحث عن شيء :

" أقدم رجل على قتل صديقه ليلة أمس في ظروف غامضة، الواضح فيها هو استعماله لآلة حادة، و لازالت مصالح الأمن إلى حد هذه الساعة، تقوم بجهود مضاعفة من أجل القبض على القاتل واحتجازه."

كان الخبر قصيرا و يتضمن أقل عدد من المعلومات، إلا العامة منها، وذلك لأنه صدر سريعا في إطار ما يسمى بالسبق الصحفي، فالجريمة حصلت بالليل، و الخبر تم نشره في الصباح الباكر.

إلا أن الأمر الذي أثار انتباهي أكثر، هو صورة زوجي، و هي نفسها الصورة المعلقة في غرفتي، بحيث يبدو فيها جادا، لدرجة أنك عندما تراها، سوف تصدق فعلا بأنه قاتل، لأن القاتل في الغالب، تكون ملامحه جادة: من أين أتوا بها؟ و من مدهم بها؟

خرجت من صفحة الحوادث، نزلت لأسفل صفحة الجريدة، فأثار انتباهي عنوان: "مواقيت الصلاة حسب توقيت الرباط - سلا - و ما جاورهما".

كانت صورة المسجد مثيرة للانتباه، و بجنبها خمس ساعات، في كل واحدة منها توقيت الصلاة المناسبة من اليوم، لكنني سمعت بأن الحكومة قد أضافت ساعة إلى التوقيت الرسمي للبلاد، و ذلك من أجل ملائمة التوقيت

الفرنسي، بحيث أن كل مصالحنا وإدارتنا و سياستنا تتعلق بالدولة الفرنسية،
كان عنوان المقال التالي: "الزيادات المتتالية"، وفي آخره مكتوب:

"سنضيف ساعة،

إلى توقيتنا الرسمي طول العام،

كأننا نزيد،

بل نزيد في سرعة الأيام،

إلا في رمضان،

لأنها حرام...

و لو ضمنا فقط، بأننا سنسير للأمام،

لما ترددنا بأن نزيد في العمر

عشرة أعوام..."

الطريق إلى السجن

لا أنكر بأني صرت أعشق لحظات السفر، لأني أحس خلالها بالكثير من الارتياح الذي لا يختلف كثيرا عن راحتي التامة عندما أكون في دورة المياه. و عندما أكون في الطريق إلى السجن، و مع الحركة و الضجيج، تنفجر الفراشات في صدري، و تتابني نوبات نوم عميق، عميق جدا، حتى أرى أحلاما واضحة، لكن ليس لها تفسير، و الغريب فيها، هو أن الأصوات التي أسمعها خارج الحلم تجد لها مكانا فيه و تصير جزءا منه، حتى الضجيج الذي يكون موجودا داخل السيارة، يصير مكونا لفضاء الحلم، حتى الزحام بين الركاب ينقلب إلى دفء فيه.

نعم، هناك تناسق كبير بين ما نحلم به وما نعيشه.

إن الدقائق التي أستغرقها في سيارة الأجرة، تكون من أجمل الأوقات التي أنفحص فيها مخيلتي و أسترجع فيها ذكرياتي، حتى الغابرة منها، بل قد أجد خلالها الحلول المناسبة للكثير من العقبات و المشاكل التي استعصت علي زمنا طويلا.

كانت سيارة الأجرة تسير بسرعة، و الجلبة و الضجيج، و صوت المذياع لا يبالي به أحد، كنت نائمة كأني صاحبة، أو فلنقل صاحبة كأني نائمة، و بين النوم و اليقظة، رأيت أمني، كأني لم أفقدها من قبل، تبسم في

وجهي كعادتها، كنت أتسلق شجرة التين الموجودة أمام بيتنا القديم، و أهفو لقطف الثمرة المتمنعة هناك في الغصن اليتيم، كانت ثمرة يانعة مثيرة تغري الناظرين، لكنني كنت أخاف أن ينكسر الغصن فأسقط، و ربما أصاب، كانت أمي تحثني على الرجوع متوسلة: "انزلي يا بنيتي، انزلي..."، لكنني، مع يقيني بأني لن أستطيع أن أقطف الثمرة المستعصية، كنت أحمل في نفسي أملا يدفعني دفعا إلى المحاولة و عدم الاستسلام، كانت أمي قد بدأت تصرخ عاليا خوفا علي: "انزلي يا بنيتي..."، و لأنني لم أنزل، انقلبت لهجتها من توسل إلى تهديد، فأستيقظ على صوت أحد الركاب ينس في أذني بلطف: "انزلي يا سيدتي"، فأجمع شتاتي فجأة، و أنزل، و قد ترسخت صورة الثمرة اليانعة في خيالي، وأحسست بالحسرة أنني أفقت من الحلم الجميل قبل أن أقطفها، ليتني بقيت فيه.

كان سائق سيارة الأجرة رجلا مسنا، اسمه: "با اليزيد"، كنت دائما أراه يلبس بذلته الزرقاء، كانت جيوبها كبيرة تساعد على جمع كل ما بحوزته، كما أنها تلائم هيئته القصيرة و تجاعيده السمراء العابسة.

ركبت معه مرات، كان يتحكم في زبائنه كأنه يرعى قطع أغنام، يفتح الأبواب و يتفرس الوجوه و ينظر إلى الحركات و كل شيء، كنت في الكثير من

المرات أحس بأنه سيقول لأحدهم: "انزل أنت، لا يعجبني مظهرك"، أو يقول لامرأة بدينة: "انزلي أنت، إنك بدينة جدا، ستثقلين على سيارتي."

و الحمد لله أنني لم أكن بدينة، بل إن نحافتي كانت تقنات من الهموم التي تثقل على فؤادي، و تجرعني خسارة الكثير من الوزن في كل مرة، حتى صرت لا أشغل سوى نصف مقعد.

كان "با اليزيد" لا ينطلق إلا لما يوقن بأن الأمور ثابتة كما يريد هو نفسه، و ربما يغضبك فعله إن كنت تريد أن تنطلق بسرعة أو كان لديك غرض عاجل.

في الكرسي الأمامي، كنت أجلس أنا من جهة الباب، و من جهته فتاة جميلة شعرها متطاير و سيقانها مكشوفة، و أما في الخلف، فكانت تجلس امرأة ترتدي الخمار و بجانبها ثلاثة رجال من بينهم زوجها.

صعد السائق "با اليزيد" إلى السيارة، كان الجميع ينتظرون أن ينطلق بسرعة، فكل واحد منا مرتبط بعمله، لكنه كعادته، أخذ يحقق النظر في جنباته، حتى ظهرت له سيقان الفتاة العارية، كنت أنظر إليه بإمعان، كنت أعرف أنه لن يفوت هذه الفرصة لكي يمارس هوايته، إنه يحب كثيرا أن يلعب دور الواعظ للناس، أن يلاحظ الأشياء و يعلق عليها و يصلحها، و فيه الكثير من

كلام التبليغ، لكن بطريقة غليظة و متكبرة، مما يجعل كل حواراته تتميز بالتشنج و الاختلاف.

دائما تجد مثل هذا الرجل في مكان ما أنت تمر منه، يتحدث إليك بشكل يظهر أنه يمارس الدين و يمارس القانون و يمارس حقيقة الإنسان، و لا يلتمس الأعذار لأحد، و لا يبتسم، لأن الابتسامة تفسد عليه تقمصه لدور الجلاد، لكن الغريب، أنك تجده يكره الجميع و تجد الجميع يكرهه، إلا الذين يتحكمون عليه.

نظر إلى الفتاة التي كانت تجلس بجنبي، من جهته، ثم قال بطريقة فيها الكثير من التسلط، مشيرا بإبهامه و ضاغطا على الكلمات جاحظ العينين :

"انزلي أنت...انزلي...انزلي..."

نزلت أنا و الفتاة معا، ثم قال لي : "اركبي أنت أولا... اركبي"
 كان يعيد تركيب الكلمات و الأفعال، كأنه يرجو من ذلك التأكيد.
 ركبت أنا من جهته، و ركبت الفتاة من جهة الباب، هكذا يتفادى "با اليزيد"
 النظر إلى سيقان الفتاة، فلما ركبنا قال بصوت أقل ارتفاعا : "هكذا
 أحسن...".

كان الركاب جميعهم قد فهموا الذي حصل و لماذا حصل، أما أنا فقلت في نفسي : "و ما غرضه بسيقان الفتاة؟ إنه سائق السيارة، يكفيه انشغاله بزحمة المرور و الأضواء و منافسة الطريق."

يبدو أن الفتاة قد تفهمت الموضوع، و التزمت بأوامره، فالطيور الجميلة دائما ترمى بالحجارة، و لم تبد امتعاضا و لم تصرح بملاحظة، كانت هذه بادرة جيدة منها لكي تعفينا من درس آخر من دروس "با اليزيد".

و كالعادة انطلقت سيارة الأجرة، بينما السائقون خلفنا يصرخون بحثا عن ركاب جدد.

و أشعل المذياع على برنامج "الصباح الجميل" الذي كنت أحبه، كان الجميع لاإذا بالصمت، ينصتون للحوار الذي يجريه المذيع مع طبيب متخصص في القلب و الشرايين، و الذي أسهب في الجواب عن السؤال البديهي عن عمل القلب قائلا : "قلبنا ليس كبيرا، رغم أنه المحرك الأساسي للجسم، إنه في حجم قبضة اليد، لكنه بفضل الصمامات و الشرايين يتحكم في عملية ضخ الدم بطريقة منتظمة."

ثم أضاف ضاحكا: "و لو كان قلب الإنسان أكبر بقليل، لكان الإنسان أقوى و أكبر و أسرع".

حينها فكرت مبتسمة: "و ماذا لو كان عقله أكبر بقليل؟"

تدخل "با اليزيد"، و كنت أحسبه سيعلق على ما نسمع فقال للفتاة:

- لا يجب عليك أن تعري سيقانك أمام الرجال.
- نظرت إليه الفتاة نظرة مطمئنة، كنت أنتظر أن تغضب و تنتهره، فلطالما ظلمها بتصرفاته، لكنها دفعت رأسها جملة إلى الأمام، و غمزته بعينها بأن يعيد كلامه كأنها لم تسمعه، فأعاد :

- لا يجب عليك أن تعري سيقانك أمام الرجال.

- و أين هم الرجال؟

تلثم "با اليزيد"، لم يتوقع جوابا كهذا، لكنه تدارك الموقف مشيرا إلى

الثلاثة الموجودين في الخلف قائلا :

- هؤلاء، الموجودون في الخلف، أليسوا رجالا؟
- و هل أنت الناطق الرسمي باسم الرجال؟ هؤلاء الذين في الخلف لم يروا سيقاني و لم ينظروا إليها، و لم يكلموني و لم أكلهم، لقد خاطبتني أنت، و أنا الآن أسألك، فأجب عن نفسك، لماذا لم تذكر نفسك ضمن الرجال؟ لماذا ذكرت هؤلاء الذين في الخلف فقط؟

- إنك حرمة و في مقام ابنتي، و لذلك نصحتك، و إلا ما كنت قلت لك هذا

الكلام.

- و هل تنصح ابنتك بهذه الطريقة؟ و هل تعتبر أن الرجولة كلام و نصح وثرثرة؟
- الرجولة هي أن تقول الحق في مكان الحق، و تغير المنكر و لا تسكت على الباطل، معجبة بلحمك و شحمك و جئت تفتنين الرجال؟
- هل تريد أن تقول بأن الرجولة هي ما أثرت فيك حين نظرت إلى سيقاني؟ تلك يا والدي رغبة الذكور فقط، وليست لها علاقة بالرجولة.
- كان صوت المذيع قد اختفى أمام هذه الجلبة و الضوضاء، لا أخفي بأن كلام الفتاة أعجبني، و أنها بهذا تعبر عن الكثير مما أريد أن أقوله، وأعجبني أكثر تريثها و تأثيرها، إلا أن "با اليزيد"، فضل الهروب إلى الخلف و الحديث عن الماضي و صار يقول :
- لقد ذهب الحياء مع أمهاتنا، كنت لا ترى من المرأة إلا عينيها، كانت المرأة لا تجرؤ على رفع صوتها أمام الرجال، و لا تخرج من البيت إلا للضرورة، و أما اليوم فقد تغير كل شيء.
- نعم، معك حق، لكنك لم تقل بأن الرجولة كذلك ذهبت مع آبائنا و أجدادنا، أترى لو كان الأجداد حاضرين يوم اعتدى علي ثلاثة لصوص في المحطة، أمام أعين الجميع، و أمام عينيك أنت نفسك، و ضربوني و سرقوا محفظتي و كل ما أملك، هل كانوا يسكتون كما سكتت أنت؟ لماذا لم يتململ فيك الإحساس

بالرجولة و تغيير المنكر و محاربة الباطل حينها؟ أم أنك وجدتني حائطا قصيرا، و صرت تمارس علي تفاهاتك، أين هي الرجولة؟ و أين هم الرجال؟ الرجال اختفوا و ماتوا من زمان، و عندما يعود الرجل رجلا بحق، ستكون المرأة كذلك امرأة بحق، لا تنه عن خلق و تأتي بمثله، عار عليك إذا فعلت عظيم.

عم الصمت فجأة، فارتفع صوت المذياع: "تحية لكل متابعينا في هذا الصباح الجميل، نتمنى أن نكون قد أفدنا بخصوص البنية التكوينية للقلب، باعتباره أهم عنصر في جسم الإنسان، تكلمنا عن النبض و عن الضخ و عن الشرايين و البطين و أشياء أخرى، إلا أننا لا يجب أن ننسى أن القلب كذلك مصدر للحب و الكره و كل الأحاسيس، و في الحلقة القادمة، سيكون ضيفنا للحديث عن هذه الوظيفة الراقية للقلب، شاعر يغزل الكلام غزلا، و ينسج المعاني نسجا، فيحدثنا عن خفقة القلب عندما يحب، وعندما يفزع، و عندما يفرح، و يكشف لنا كيف أن القلب لا يحس فقط، ولكنه كذلك يفكر؟ و إلى ذلك الحين، نستودعكم الله."

وصلنا إلى المحطة، و عدت أحمل الأثقال وحدي لكي أذهب إلى المحطة الأخرى و أستقل سيارة الأجرة التي ستحملني إلى المنطقة حيث يوجد السجن، اقترب مني شاب إفريقي يتكلم لغة لا أفهمها، و لكنني فهمت بأنه يريد أن يساعدني في حمل الأثقال، فإن لغة الإنسان كونية و مفهومة لدى

الجميع، فإني قد لا أفهم لغتك، و لكنني سأفهمك إن ابتسمت في وجهي ومددت يديك إلي لكي تساعدني... نعم، قد لا أفهم لغتك، و لكنني سأفهمك إن أشرت إلي بالسلام أو لوحت يديك بالوداع، فلغة السلام، و لغة الحب، يفهمها الجميع، و هي متاحة لكل البشر و كل المخلوقات، لكنني قد لا أفهمك عندما تدس في خطابك كلمات و ألفاظا خارجة عن لغة السلام و الحب. حمل الإفريقي كل ما بيدي، و أسرع مهرولا أمامي و أنا أتبعه، كنت أعرف أنه يؤدي مهنة حمال من أجل بعض النقود، و قد أديت له الثمن بخسا و احترمته، لأنه بهذا العمل أفضل من سارق أو محتال، و لأنه بهذا أكثر من مجرد رجل كما قالت الفتاة، و لكنه إنسان.

ثم انصرف إلى حال سبيله، لكنني أحسست بالحسرة و الندم لأنني لم أفهم اللغة التي خاطبني بها، كان علي أن أدخل إلى المدرسة، كان علي أن أتعلم أنا كذلك الحروف و الكلمات،

لماذا لم أقرأ؟

لماذا لم أقرأ؟

لماذا لم أقرأ؟

"اليزيد الأهل".

كان يسكن في حيننا رجل أهبل اسمه "اليزيد"، كان الجميع يعرفه، وهو كذلك يعرف الجميع، بل و ربما يعرف أسراراً خطيرة عن الكثير من الناس، لكنه لا يعرف بأنها أسرار، و بأنها خطيرة، و بأن البوح بها قد يطيح برؤوس ويفضح أقواما.

كان عقله صغيراً كطفل، و لذلك فهو لا يعرف قيمة الأشياء، و لا يعرف قيمة الأخبار، و لا يؤدي الآخرين بها، و لو كبر عقله كغيره، لكان باعها بثمن.

كم كنت أخشى أن يبلغ عني يوم رأي، و كنت أتوقع أن يذكر لي ذلك كلما رأيته، و كان قلبي يفزع عندما ينظر إلي، فأمد إليه درهما في كل مرة ألقاه، لكنني اكتشفت بعد طول هلع، بأنه كان قد نسي الأمر كأنه لم يره، وأنه لا يفكر إلا في اللحظة التي يعيشها، فرحت كثيراً عندما اكتشفت هذا، و لم أر في عينيه نظرة الانتقام و الحقد يوم أفرعني و أنا في الطريق إلى بيتي فشتته.

لا أحد قادر أن يتحمل "اليزيد"، و حمق "اليزيد"، و طريقتة في المعاملة و الحياة، ليس لأنه سيء، ولكن لأنه أهبل، عقله صغير، و عمره كبير، و كل شيء فيه متناقض، حتى إن كان طيباً حنوناً كطفل، يراه الآخرون أحمقاً،

و أراه غير مكتمل النضج، لكن المفارقة الكبيرة بين سنه و فهمه، تبث الكثير من العجب في أذهان الآخرين، فيسخرون منه.

لا أحد هنا قادر أن يتحمل "اليزيد الأهل" إلا أمه، فإنها ترعاه، تتبعه، تحميه، و تعيش لا لشيء، إلا له، و عندما ماتت المسكينة، حدثني أحد أولادها أنها كانت لا تفتر عن الوصية به، كأنها تركت خلفها رضيعا، و بعدها، تدهور حال "اليزيد"، و صار كالعلامة في الطرقات، يراه الصغار فيرمونه بالحجارة، و يراه الكبار فيعطونه درهما.

لو وجدت المسكينة طريقة لكي تعطيه من عقلها لأعطته، و لو وجدت طريقة لكي تمنحه من عمرها لمنحته...أمك، هي الوحيدة القادرة أن تفعل هذا...

كان كمن يوزع الأخبار بين الناس، و يبلغ الكبار عن مصائب الصغار، لكن لأنه أهل، لا أحد ينتبه إلى كلامه، فهو لا يعرف كيف يسوق إليك الخبر المعقد الذي يضم أحداثا و شخصيات، و يكتفي بذكر اسم أو حدث، مما يزيد في حيرتك و يجعلك أكثر إقداما على البحث عن الخبر، أما إن فكرت في مساءلته و استخراج المزيد من المعلومات منه، فإنك ستضعف حيرتك و تجد تناقضا كبيرا بين ما كان و ما يمكن أن يكون.

و الشائع، أن كل من يعرف "اليزيد"، يعرف أن عقله قد توقف عن النمو منذ كان صغيرا، بينما خانه جسمه فنا و كبر، لكن لا أحد هنا يعرف اسما لهذه الظاهرة، أما أنا، فإني أرى بأن نمو عقله، قد توقف في سن الثالثة أو الرابعة، حتى إن كان الآن يتعدى من العمر الستين، و قد أثر هذا كذلك على نموه الجسدي، خصوصا على قامته و بعض أطرافه، و وقع اختلاف بين عمره الجسدي و عمره العقلي، لدرجة استحالة قابليته للتدريب أو التعلم.

كان يتصرف كطفل، و ربما لا يفهمه من لا يعرف هذه الظاهرة فيضربه أو يعتدي عليه، و ما أكثر ما يحصل هذا، و مرة سمعت رجلا يهدد أحد الشباب الطائشين حين كان يسخر منه و يعتدي عليه قائلا: "عليك أن تعرف بأن القانون يتعامل بصرامة مع مثل هذه الحالات، و أن شهادة هذا الشخص في المحكمة لا ترد، فإن شهد بأنك قتلت، فقد قتلت، فخير لك أن تباعد عنه، و خير لك ألا يعرفك حتى لا يشهد فيك".

يأتي إليك متوسلا متشدقا بأن تعطيه درهما، نعم درهما واحدا، فهو لا يعرف إلا الدرهم وحده، و ما عليك إلا أن تعطيه درهما في شكل قطعة نقدية واحدة، و الويل لك إن صرفته قطعتين، سوف يصرخ و يهمل و يولول و يبكي بأعلى الصوت حتى يسمعه الجميع، الجميع يعرفون بأنه يبكي من أجل درهم، فما أن تسلمه القطعة النقدية المرجوة، حتى يفرح و ينصرف مزهوا.

كان عقله صغيراً، مهماً كبير سنه و بدا شيخاً.

كانت كل تصرفاته بريئة و تلقائية، حتى إنني في الكثير من المرات، كنت أحسده على الطمأنينة و الراحة التي تنبجس من خلال حركاته و سكناته، فأتمنى لو أننا مثله، أو أن عقولنا توقفت عن النمو في نقطة محددة، و ذلك قبل أن تبدأ في الانتباه إلى خطورة الآخر على وجودها، أو إلى التفكير في الماضي والمستقبل.

العقل الجميل عندي، هو عقل بلا ذكريات، و القلب الجميل عندي، هو قلب بلا تأنيب و لا ندم.

الزمن و الآخر، من أكبر العوامل التي أفشت الصراع بين الإنسان و الإنسان، عندما أنظر إلى "اليزيد"، فيناديني باسمي من أجل درهم واحد، أقول في نفسي : لو كنا مثله، لعشنا الطمأنينة و السلام: الطمأنينة، لأننا لن نفكر في المرض و الموت، و لن نصاب بالوسواس و الاكتئاب، و السلام، لأننا لن نفكر في القتل و الحرب، "فاليزيد" قد يغضب، و قد يبكي، و قد يضرب، لكنه لا يؤذي و لا يقتل، و لا يحقد، و لا يكره، و إذا حصل أن كسب ود أحدهم و عطفه، و جاد عليه بقطعة نقدية من فئة خمسة دراهم، فهو يرفضها باكياً و يقول : "لا، لا أريدها، أعطني درهما".

كنت عائدة من الزيارة، زيارة زوجي في السجن، كانت شمس الظهرية قد أحرقت جسدي و شقت رأسي، و كنت حينها منشغلة بالتفكير في الاقتراح الذي قاله لي زوجي، بحيث دفع طلبا إلى إدارة السجن، تخول لنا من خلالها فرصة الاختلاء ببعضنا ساعة، نفعل فيها ما نريد و كما نريد، و نتخلص من هذا الكبت الذي يستبد بنا.

يقولون بأن السجن صار مؤسسة إصلاحية تهتم بتوجيه السجين أكثر من اهتمامها بمعاقبته، و بتهذيب خصاله أكثر من اهتمامها بجلده و الاقتصاص منه، فإنه يكفيه عقابا، هذا الاغتراب النفسي و البعد عن ممارسة الحياة العامة كما يمارسها الأحرار.

يقولون كذلك بأن السجن قد صار مؤسسة تعليمية و مهنية، بحيث تخول للسجناء الراغبين في تعلم الحرفة، أن ينخرطوا في المهن التي تروق لهم، حتى يتمكنوا من الاندماج بسهولة في داخل الأسرة و المجتمع، و ينخرطوا سريعا في دواليب الحياة اليومية.

يقولون، بأن الكثير من السجناء الذين حرّموا من الاختلاء بزوجاتهم خلال المدة السجنية، خرجوا بأفات متعددة، منهم من ابتلي بعادة جنسية، و منهم من اتجه للممارسة المثلية، مما يؤثر سلبا على حياتهم بعد انقضاء مدة سجنهم، و هنا يبقى السؤال عالقا: ما فائدة أن تعاقب السجين بمنعه من كل

شيء، حتى الأمور المتاحة، لتظفر في الأخير بإنسان مريض مصاب بعاهات أكثر وأكبر من الذنب أو الجرم الذي سجن من أجله، ثم تخرجه ليعيش مع الأصحاء؟

فمهما كان السجن مؤسسة عقابية زجرية، و كان لا يخضع لدراسة وتحليل وتعليل، فإنه سوف يصير وكرا لتصدير الكثير من الآفات و العاهات التي يحق لنا أن نسميها : الأمراض الناتجة عن السجن، أو الأمراض السجنية. ليس الأمر غريبا، فأنت اليوم، صرت ترى في الأزقة مجموعات من الشباب، يقفون بمحاذاة الحيطان أو أعمدة الكهرباء، يحكون قصصهم ومغامراتهم و حكاياتهم داخل السجن، و تجد الآخرين يستمعون إليهم بلهفة و استمتاع، فيصورون لهم السجن بشكل فيه الكثير من المتعة و التشويق، حتى يتمنونه و يتوقون إليه، باعتبار أن الشاب الذي مر من كل تجربة، هو أكثر رجولة و شجاعة و مكانة بين الناس.

حتى المعجم السجني صار رائجا بين الأحرار، يحفظونه و يتكلمون به و يعتزون بمعرفته، كأنهم يمارسون فعلا خارقا أو شيئا مفيدا، بل إنهم يستهزئون من الذي لا يفهمه، كأنه لا يعرف لغة جديدة غريبة عليه، يتكلم بها قوم يسكنون جزيرة نائية، فصاروا و هم ينطقون ألفاظه، يتمثلون كونهم في بلد ما، بعيد عن المكان الذي يقيمون فيه.

و بدل أن يتخلص السجين من السجن فور خروجه، يخرج و سجنه معه، و ينتقل من فضاء السجن ذي الأسوار، إلى سجن نفسي داخلي أقوى و أقدر، و هكذا يطمئن السجناء إلى بعضهم و يشكلون مجموعات و ربما عصابات.

و في معرض الكلام، حكى لي زوجي قصة تتردد بين المساجين، لسجين أتاح له الإدارة فرصة الاختلاء بزوجه، بعد أن بثت في طلب أدلى به شهورا من أجل لقاءها، و قدم دوافعه و أعذاره، فتحايل عليهم و قتل زوجته شر قتلة.

كان الرجل محكوما بالإعدام بسبب القتل المتعمد، و الإعدام عندنا هو فقط الحكم بالمؤبد، وجدوه جالسا بجانبها متخشعا، فلما سألوه عن فعله أجابهم : "لقد كنا نحب بعضنا حبا كبيرا، كانت تقول لي بأنها لا تستطيع أن تعيش من دوني، فلما حكم علي بالإعدام، لم يبق لديها سبب للحياة، فما دمت أنا ميتا هنا، فلتمت هي كذلك بطريقة ما."

يحكي السجناء أن الرجل كان عاقلا، لكنه أصيب بهوس عندما خلا بزوجه فجنا، ثم قتلها.

لا أنكر أنني بدأت أفكر في نفس الشيء، إن تلك المرأة المسكينة قد اغتسلت و تطيبت و لبست أجمل الثياب لكي ترضي زوجها و تشبع رغبته، لم تكن تعلم أنه بعدها سيقوم بمفاجأة غير سارة.

من قال بأن زوجي لا يفكر بنفس الطريقة؟

من قال أنه لا يفكر في قتلي هو الآخر؟

لقد صار يتكلم بعقلية قاتل، و طريقة قاتل، و ألفاظ قاتل.

لقد تجاوز بتفكيره هذا الكثير من الحدود و السدود.

لقد صار يجهل بأن الكذب خطيئة، و بأن النفاق ذنب، هو نفسه قال لي ذلك.

كنت حينها عائدة إلى البيت، حين بدأت أتذكر كل الكلام الذي دار بيننا خلال الزيارة، لقد بدأت أفكر كيف قال لي كل ذلك الكلام؟ كيف لم أنتبه إليه؟ إلى التغير الكبير الذي طرأ على نفسيته و عقليته و انعكس على تصرّياته؟

كان يسرح في خياله كثيرا و هو يحدثني، فيم كان يسرح؟ فيم كان

يفكر؟ هل كان يفكر في قتلي كما فعل السجين؟

لم أشك لحظة في تعقله و رزاقته، و لكنه تعقل كنت أعرفه عن قرب، و أعيشه عن قرب، حين كان زوجي بريثا يعيش بالقرب مني، و لم يرتكب بعد جريمة القتل.

نعم، كنت أعرف زوجي الإنسان، لكنه اليوم زوجي القاتل، فلا كلامه يشبه الكلام، و لا صمته يشبه الصمت، و لا شيء في أقواله و أفعاله يصدر هكذا عبثاً، فنحن نكون أبرياء، فقط قبل أن تفتض بكارتنا. لقد تذكرت حين قال لي : "دائماً هناك شيء تريد أن تفعله لكنك لا تستطيع".

ماذا كان يريد أن يفعل؟

و حين قال لي : "أنت دائماً ظامئ لمعرفة شيء لم يحصل بعد..."

ماذا كان يريد أن يعرف؟

و تذكرت حين جلسنا صامتين مدة ليست بالهينة، كان لا ينظر إلي و كنت لا أنظر إليه، ولكني كنت مرتاحة لأنني كنت معه، كنت أتدبر الصمت تماماً كما أتدبر الكلام، و أقتنع به بشكل أقوى من اقتناعي بأعتى البراهين. كانت لهفتي للقاءه تغنييني عن التفكير في صمته و كلامه، إلا أن ذاكرتي لازالت تحتفظ بكل أقواله، و كل حركاته و سكناته.

إني لست من النوع الذي يحلل الأحداث و يفسر الخطاب، فقد تمر آثار الجريمة أمام عيني و لا أتبته إليها، و لكني لست أدري ما الذي جعلني فجأة أفكر، و أندبر، و أكاد أصل إلى نتيجة.

بنات القائل (سكينة).

عندما اقتربت من البيت، رأيت "اليزيد الأهل"، قادمًا من الجهة المقابلة، كنت أعرف أنه سيكلمني مهما كانت الظروف، فقد صار معتادًا على توقيفي ومحادثتي في مواضيعه التافهة، كان يشعر بالطمأنينة للحديث معي، لأنني، مهما كان، كنت أعطيه وقتًا، وأستمع إليه، وأحاول أن أفهم من كلامه شيئًا أجيبه عليه حتى إن لم يقل شيئًا، ثم لأنه هكذا، يستمتع بإيقاف الآخرين.

اقترب مني، ثم ناداني كعادته: "وا شرقية".

كانت ألسنة الشمس تعبث ببنات أفكارني، كنت فاقدة القدرة على محادثته، لكنه تبعني مسرعًا وهو يقول: "شرقية ... شرقية..."
فلما أيقن أنني فته، صرح لي: "الجادارية جاو"، ثم انصرف لأنه أدرك عدم رغبتني في الحديث معه.

كانت كلماته الأخيرة سيفًا انغرس في فؤادي، لم أنتبه إليه، لكنني علمت بأنه لم يسبق إلي هذا الخبر هكذا عبثًا، فحتى المجانين، وحتى المهايل الذين نرى أن كلامهم ضرب من الهذيان، هم كذلك يتكلمون بمقياس، لم أعد أصدق أو أشك بأن شيئًا في هذه الحياة ليس له سبب، المجانين أنفسهم تجدهم حريصون على جمع النقود ولا يرمونها عبثًا، حتى تكاد تشك، بأن النقود وحدها تعيد العقل إليهم، وأن القلم مرفوع عليهم في كل شيء، إلا في النقود.

أفزعني الخبر، ذهبت مسرعة، أطللت بلهفة على باب البيت من بعيد، لم أر أحدا، كان الباب مفتوحا، دخلت صامتة إلى بيتي، حيث توجد بناتي، وجدتهن جالسات صامتات، ليس الصمت من عادتهن، هناك شيء ما لا أعرفه، كانت "البوشتاوية" تلعب في الهاتف، و أما "سكينة"، فهي تلقي علي نظرات متقطعة.

وضعت ما بيدي، ثم تساءلت : "هل أنتن بخير؟

لم تجبني، كانت "البوشتاوية" غارقة في الهاتف و لا ترفع عينها لكي تنظر حولها، و لا تهتم لوجودي و لا لكلامي، كأنني لست هنا، لم أتمالك نفسي حتى وجدتهني ارتميت عليها و خطفت الهاتف من يدها، ثم بادرتها بالكلام قائلة:

- قومي أيتها العاقلة، فأنت كبرى أخواتك، و أنت من تتبته هن في غيابي، منذ خرجت من المدرسة و أنت لا تعرفين إلا النوم و الكسل و الهاتف. (كانت تنظر إلي بحنق و استغراب كأني اغتصبت شرفها، و حملقت بجحوظ في عيني قائلة):

- و ماذا تريدن أن أفعل؟ (مدت يدها لتسترجع الهاتف مني، لكنني تمنعت قائلة):

- قومي و اخرجي إلى الدنيا، لعلك تجدين زوجا يريحك من كل هذا الكسل...

- و ما أوصلك إلى هذه الحال إلا زوجك يا أمي؟ أنت آخر من يفكر في أن الزواج راحة. (نزل علي جوابها كالصاعقة، لقد كنت دائما أعتقد بأننا نعيش على ما لا نقبله في أفكارنا، لكننا نحاربه في تصرفات الآخرين، وها هو وقع لي الآن بالدليل القاطع).

و فجأة دخلت علينا "حكيمة" بلا استئذان، ثم أنشأت تقول:

- أرايت ماذا فعلت ابتك؟ (كانت تتكلم معي كأنها تبحث عن حجة لاتهامي، وكأني أنا المسؤولة عن كل الذي يحصل لبناتي، فتساءلت):

- من؟

صمت الجميع، لكنهن نظرن إلى "سكينة"، فهمت الأمر ثم قلت :

- "سكينة"، ألم تذهبي إلى المدرسة؟ (لوحت برأسها موافقة، ثم قالت "حكيمة") :

- إنها لا تذهب إلى المدرسة من أجل الدراسة، بل تذهب فقط من أجل الشجار مع التلاميذ... (أجابتها "سكينة" بلهجة عنيفة باكية) :

- قلت لك أنني لم أظلمها، لم أظلمها، لم أفعل شيئا... (ثم سألتها) :

- احك لي ماذا حصل؟

سكت الجميع، كانت "البوشتاوية" منشغلة بالهاتف، كأن هذا الذي

يحصل لا يهمها، و سكتت "حكيمة"، تباطأت "سكينة"، ثم أعلنت غاضبة:

- منذ دخولي لهذه المدرسة، و التلاميذ يسخرون مني و يستهزئون، و يدعون أنني بدوية لا أعرف المدينة و قواعدها، حتى إنهم ينادونني بـ"بنة القتال".

أفزعني هذا الكلام، لم أكن أعرف أن أطفالاً أقل من مراقبين يعرفون هذه الأشياء، سألتها :

- من الذي يقول لك هذا؟

- كلهم، كلهم، و يتهمون علي، و منهم من صار يناديني بالقاتلة، كيف أسكت؟ كيف أصبر على هذا الكلام؟ إنني أبكي في كل يوم أذهب إلى المدرسة، أبكي و لا أخبر أحداً، كنت أظن أنها مجرد ملهاة يقولونها اليوم و ينسونها غداً، لكنهم عندما يرونني، يتذكرون، فيقولون لي هذا الكلام، و منهم من يعرف لقبى و لا يعرف اسمي.

دهشت لهذا الكلام، لقد كبرت بنيتي و صارت تعرف و تفهم كل شيء، لقد كان خطأ أن أعتبرها صغيرة، إن الأطفال اليوم يكبرون بسرعة في كل نواحي الحياة، إلا في الإحساس بالمسؤولية تجاه الحياة و تجاه غيرهم، هذا كلام ليس له حل و لا جواب، و لكنني أريد أن أعرف بقية القصة : "ثم ماذا حصل؟"

سكتت "سكينة" سكوت من لا يعرف الكلام، فإنه من الصعب على المخطئ أن يعترف بما فعل، و إن حدث و بدأ بالاعتراف، فإنه سيكي و يئن،

ولن يتكلم حتى يسكب دموعا من كلام ليكسب ود الآخرين، لعله ينقص من قسوة نظراتهم إليه.

عرفت "حكيمه" أن "سكينة" لن تتكلم، ثم قالت:

- لقد ضربت إحدى التلميذات حتى كادت تفقدها عينيها.
- ثم ماذا؟
- ثم وضع والداها شكاية في مركز الدرك.
- ثم ماذا؟
- ثم جاء رجال الأمن يسألون عن ولي أمرها، فقلنا لهم إن أمها غائبة، فأعطوني هذه الورقة لكي أسلمها لك.
- كنت مندهشة مفزوعة أكاد أسقط، أخذت الورقة منها، ثم سألتها:
- و أنتم؟ أستم أولياء أمرها؟ أليست هذه بنت أخيك؟ أليست أمك جدتها؟
- لكنهم لم يسألوا عنا، ولم يسألونا، لقد سألوا عن أبيها و أمها.
- لو كنتم تريدون حقا ذلك لفعلتموه، و لو كنتم تشعرون حقا بأنها ابنتكم وأنكم أولياء أمرها لما تصرفتم هكذا، ماذا كان سيحصل لو قلت لهم أنها بنت أخيك و أنك و لية أمرها؟
- لن يحصل شيء، لكنني قد أتصرف بطريقة أنت لا تقبلينها فيقع اختلاف، كان من الأفضل أن ننتظرك، هذا أمر لا يدعو إلى القلق.

- بل يدعو إلى القلق، لأن ما يهمني ليس هو الورقة، و لكن هو إحساس بناتي بالدفاء و الحماية، و لكنني عرفت جيداً، أن الذي يتغطى بغير الله، عريان.
- كفاف، لقد أعطيت الموضوع أكبر من حجمه.
- هذا لو كنتم أنتم أعطيتم الموضوع حجمه الحقيقي.

خرجت "حكيمة"، فقد أحسّت بأنها أدت مسؤوليتها عندما سلمتنا الشكاية، استلقيت على ظهري، كاد رأسي ينفجر، فكرت أن أجلد ابنتي "سكينة" جلداً، حتى لا تعود إلى ما فعلت، لكنني فكرت بأن الزمان يجلبها في كل حين، فكرت بأنني لا يجب أن أعلمها الاستسلام و السكوت على حقها المسلوب، و ماذا فعلت؟

إنهم هم الذين فعلوا، ثم جاءوا يشكون، كانت أُمي صادقة عندما تقول لي في مثل هذه الحالات: "ضربوا و بكى، سبقوا و شكى".

ارتحت قليلاً، ثم أخذت ابنتي و الشكاية، و حملت نفسي و ذهبت متوجسة إلى "مركز الدرك". و في منتصف الطريق، وقعت عيني على كتاب قديم ملقى على ضفة الممر فوق بعض الأعشاب القصيرة، ألقت رؤيته كلما مررت من هذا المكان، أوراقه انتفخت و ترهلت بفعل تعرضه لقطرات الندى و أشعة الشمس، وتساءلت في نفسي كيف لا تمتد إليه يد اللصوص الذين

يسرقون أبخس الأشياء و يبيعونها من أجل الاسترزاق، أليس هذا الكتاب أغلى منها؟

ركلت الكتاب بيمني فانطلقت من تحته الحشرات الزاحفة، ربما لقد بعثت فيه شيئاً من الحياة.

لا أحد يجب أن يلج هذا المبنى الذي يثير الرعب في النفوس، لا أحب أن أذهب إلى "مركز الدرك"، حتى إن كان من أجل استرجاع حقي المغتصب، فكيف و أنا ذاهبة بسبب شكاية فتاة مظلومة من ابنتي.

لقد تذكرت مقالة كان أبي رحمه الله يرددها في كل حين: "ثلاثة لا تثق بها: البحر و الزمان و المخزن".

نعم، كنت دائماً أفكر في وجه الشبه بين هؤلاء الثلاثة، فاكشفت في الأخير، أن البحر قد يغرقك و إن كنت سباحا.
و أن الزمان قد يقتلك و إن كنت يافعا.
و أن المخزن قد يسجنك و إن كنت بريئاً.

وجدت دركيا جالسا بزيه العسكري، يتهجى الحروف على آله الكاتبة، لم يرفع رأسه، و لم ينظر إلي، و على الحائط، فوق رأسه صورة الملك وهو بالزي العسكري، و النياشين تملأ صدره و كتفه، بينما على كتف الدركي علامة واحدة، لا أعرف درجتها لأنني جاهلة تماماً بهذا الموضوع.

و تأخر كثيرا قبل أن ينتبه إلي، و يلقي علي نصف نظرة ثم قال لي في انتهار: "ما بك؟"

أخرجت الورقة من جيبي ثم مددتها إليه، خطفها من يدي ثم نظر إليها، فوضعها أمامه و سألني متتهرا:

- هذه ابنتك؟
- نعم...
- هذه التي اعتدت على الفتاة صباح اليوم؟
- لم تعتد عليها.
- و ماذا فعلت؟
- لقد دافعت عن نفسها، إنهم يقولون لها كلاما جارحا.
- و لماذا لا تقول لهم كلاما جارحا هي كذلك؟
- أحيانا، لا يصلح الكلام ما أفسده الكلام يا سيدي.
- و ما الذي يصلحه؟
- يصلحه الفعل يا سيدي.
- و ما الذي يصلح ما أفسده الفعل يا سيدتي؟
- لا أدري.
- يصلحه العقاب يا سيدتي، و هذا ينطبق على ابنتك.

كانت "سكينة" قد بدأت بالبكاء خوفاً من هذا الكلام، و كنت أعرف أن الدركي يريد أن تبكي، و تبكي، و تصرخ، حتى ينال شرف الإحساس بأنها ظالمة و أنه على حق.

كنت في الكثير من الأحيان أتساءل: لماذا يتعامل رجال الدرك و الأمن مع المواطن بهذا الغباء الشديد؟ و لماذا يدعون أنهم يعرفون عنا كل شيء؟ و لماذا يجمعون بين هذه الأضداد؟

لم أكن أعرف لماذا قام الدركي بتلك المقدمة الطويلة؟ لماذا تلك الأسئلة القاسية؟ و لماذا تلك اللهجة الغليظة؟ و لماذا تلك النظرات المتجهمة؟ و لماذا أخذ دفتر تقييداته و بدأ يسألنا من جديد؟

كان يسأل "سكينة" كأنه لم يرها من قبل، و كأنه لم يكلمني من قبل، أو كأن الذي حصل قبل، هو فقط تمرين لما يحصل الآن.

كان قد أخذ بطاقتي الشخصية و نقل منها ما يفيد من معلومات، ثم

رفع رأسه ليسألني:

- هذه ابنتك؟
- نعم.
- ما اسمها؟
- سكينة.

- و أين هو أبوها؟

أدرك بأنه كان يعرف الجواب، لأنهم عندما وضعوا الشكاية شرحوا له كل شيء، و أن المشكل قد وقع بسبب هذا الموضوع، لكنني أعرف أنه يريد أن يعزف على الوتر الحساس، و أن يجعلنا نألف ما كان يؤلمنا سماعه، و في نفس الوقت، يريد أن يعطينا جواباً مقنعاً على الذي حصل، و ذلك بأن تعلم ابنتي بأن سؤال الأب، سيطرح علينا ما حيناً، و أنه جزء من العقاب الذي يحل بالسجين، بحيث يصير اسمه شتيمة لأهله و مذلة لهم.

تبادلت النظرات مع ابنتي "سكينة"، كان الدركي ينتظر الجواب و هو يحملق فينا بلا استحياء، كانت علامات الحيرة و الغضب تغتال قسمات محياها البري، مددت عنقي نحوه قائلة:

- في السجن.

همهم برأسه و هو يملأ كراسته و قد وضع أمامه بطاقتي الشخصية، كنت أنظر إليه علني أفهم شيئاً من نظراته أو كلماته، حطت ذبابة على جبينه، لكنه لم يحرك ساكناً، بينما الذبابة تتحرك بحرية، أحسست بدبيب خطوات الذبابة التي في جبينه على وجهي، سحبت كفي على جبیني و فركته بسرعة، كادت الذبابة تطير، فأحسست بالارتياح، لكنها عادت لتحط على خذه الأيمن، لم يحرك ساكناً، و لم يطردها، لابد أنها شعرت بالطمأنينة و الأمان،

لابد أنها تعرف بأنه لن يؤذيها، إنها تعيث فسادا في وجهه كأنه مملكة أبيها، كانت تمشي بحرية فوق خذه، كنت أتمنى أن يسحب يده على وجهه، لكنه كان منشغلا بالكتابة، صعدت الذبابة إلى عينه اليمنى، كادت تحط فوق بؤبئه، قام بإغماض عينه ثم فتحها، حطت على حاجبه و أخذت تمشي فوقه كعداء في المضمار، كان يرمش و يرمش، لكنها لم تذهب، كنت على أعصابي، شيء ما بداخلي يريد أن ينش تلك الذبابة، كدت أخبره بالأمر، لكنه كان يبدو مرتاحا. كان لا يحس بذبابة و هي تأكل أعصابي من فوق خذه، و تمشي الهوينى و هي على حاجبه، فكيف يحس بي و بمأساتي أنا الإنسان؟ لقد أيقنت بأن من لا ينش ذبابة تعيث على أرق منطقة في وجهه، لا يمكنه أن يكون مستعدا للإحساس بمآسي الآخرين.

هز رأسه متنفسا الصعداء كأنه كان يحملني على ظهره، ثم نظر إلي بشحوب و سأل "سكينة" أسئلة متسلسلة فأجابته عنها بوضوح:

- متى دخلت إلى القسم؟
- لماذا اعتديت على الفتاة؟
- ما هي الأداة التي استعملت في ضربها؟
- هل تستعملين مخدرا أو تشرين دواء؟

نزل هذا السؤال الأخير كالصاعقة على فؤادي، لم أملك ما يكفي من الصبر، فابتسمت و استنكرت متسائلة، "مخدر؟"

أثار تساؤلي انتباهه فقال لي:

- بدل أن تتعجبي من أمر وارد، كان عليك أن تربي ابنتك.
- أمر وارد بالنسبة للآخرين، أما ابنتي فأنا أعرفها.
- و هل كنت تعرفين بأنها تعتدي على زميلاتها في القسم؟
- لم أعرف و لا أعرف أنهم هم كذلك يشتمونها، ولكنها دافعت عن نفسها.
- رب أبناءك بدل أن تدافعي على الباطل، أنت تظنين بأني جالس في هذا المكان لكي أتمنى أن يقع المتهمون في يدي؟ إن العامل الوحيد في هذه الدنيا، و الذي يتمنى ألا يأتي الزبائن إلى مكتبه هو أنا.(كان لا يرفع رأسه إلا ليخطف نظرة إلي).
- الأبناء ليسوا بين يدي طول اليوم، أنا أربيهم عندما أكون معهم، لكن المجتمع يربيهم أكثر مني، الأصدقاء يربون، و الناس يربون و الشارع يربي، التربية ليست هي ما أريد أنا أن أزعره في أخلاق ابني و سلوكياته، ولكن هي كل ما يكتسبه من الآخرين خلال التعامل معهم، يا سيدي، الطفل قد يقتنع بما لا تقتنع به أنت (أجابني متتهرا كأنه يريد إقناعي و نفي كلامي عن طريق رفع صوته)

- هذا لا ينفي دورك كأم، بل و كأب كذلك، ليس صحيحا أن يجعلك هذا الكلام تستسلمين للمؤثرات الأخرى، إنكم تختصمون اليوم و تتهمون غيركم، و غدا تلتقون و تسامحون بعضكم، فنبذو نحن أشرارا بدل أن نبذو ممثلين للقانون.

يبدو بأنه رفض أن يدخل معي في هذا الحوار، فجمع أوراقه، ثم قال لي: "نحن لسنا هنا في مدرسة أو في حضانة، نحن هنا نسهر على تطبيق القانون و استخلاص الحقوق و تنفيذ العقوبات، التربية فيها البدنية و فيها الدينية و فيها الوطنية، اذهبي إلى حال سبيلك؟

خرجنا من مركز الدرك مسرعتين، كأنا نفر من جهنم، كنت أفرع آذان ابنتي "نادية" بكلام واعظ فيه من القسوة، إلا أنها كانت لا تجيب، حتى دخلت إلى البيت، فوجدت ابنتي "البوشتاوية" منبطحة على بطنها و تشاهد مقطعا موسيقيا شعبيا في الهاتف، و أما الصغيرة، فيبدو أنها بالكاد قامت من الفراش، فبادرتني بسؤال : "أمي، متى سيرجع أبي؟"

كنت سأقول لها : "أبوك سيأتي غدا..."، لكنني خشيت من الأسئلة التي تتبع هذا الجواب، فانشغلت بالكلام و لم أجبها، لكنها سكنت، و لم تكن مقتنعة بما يحصل.

الخطيئة.

كانت "سكينة" تقف في ساحة المدرسة بصحبة أصدقاء من الذكور والإناث، كان الحوار بينهم يكتسي الكثير من الحركية و التأثير، يبدو بأنهم يحاولون إقناعها بفكرة استعصت عليها، لكنها ترفض كلامهم و حججهم بدعوى أنها ضرب من الهذيان، كانت عابسة جادة، بينما كانوا يتسمون و يضحكون، كانت تقف وسطهم كمثال الفريسة، و كل واحد منهم يعرضها من مكان، لا يمكن أن يجتمع الكل على رأي واحد و هم مخطئون، هكذا كانت تفكر، و كان يزعمها أنهم قد يكونون على صواب فيما يدعون:

- إن أباك الآن في السجن؟
- نعم (أجابت غير راضية)
- و من ينام مع أمك إذن؟ (يضحكون)
- أنام معها أنا ؟ (كانت جادة في كلامها و بريئة، لكنهم انفجروا ضحكا، ثم أردف أحدهم).
- إن أمك تحتاج إلى رجل ينام معها، و ليس أنت.
- و ما الفرق؟ سأنام مع أمي، و هي لا تحتاج لغيري.
- لكن أمك تحتاج إلى من ينكحها؟ (فانفجروا ضحكا، فثارت قائلة):

- أمي لا ينكحها أحد، لا تقل هذا الكلام ثانية. (خرج من بينهم تلميذ يبدو بأنه الأكثر تعقلا، ثم قال لها):
- وكيف جئت أنت إلى الوجود؟ (سكت الجميع ثم أجابت)
- ولدتني أمي... (ثم أضاف مستتجا):
- وكيف ولدتك أمك؟ (فأردف آخر هازئا):
- لقد تلاقحت مع وردة في الطبيعة. (ضحكوا)
- كانت لا تدري، و لا تقبل إلا الأفكار التي يستسيغها فهمها، كان كلام زملائها قد بعثر كل المعتقدات الراسخة في ذهنها، فلما جلست بالقرب من أمها في المساء قالت لها:
- لقد خاصمت زملائي في القسم.
- ولماذا يا بنيتي؟
- إنهم يدعون بأن أبي كان ينكحك !!! (اندهشت الأم، لكنها بعد لحظات تساءلت مستنكرة):
- وفيهم يهمهم هذا؟ وما فائدة هذا الكلام؟
- إننا قرأناه في درس التوالد، لكنك لم تقولي لي ذلك، لم تقولي ذلك. (حاولت الأم أن تمتص غضبها ثم قالت لها بهدوء):

- يا بني، سوف يأتي الوقت المناسب، و ستكبرين، و ستعرفين كل شيء، لا تستعجلي الجواب، سيأتي في الوقت غير المناسب، و لا تبالي بكلامهم، فإن تكلموا، فتكلمي معهم، و إن ضحكوا، فاضحكي معهم، هؤلاء يا بني أطفال صغار مثلك، لا يعلمون شيئا، و عندما اكتشفوا أن هذا الموضوع يقلقك، فهم جعلوا منه شكلا من أشكال التسلية بينهم...

يا بني، أريدك أن تعلمي، بأني أصبحوا باكرا، ثم أذهب إلى العمل طول اليوم من أجل لقمة العيش.

يا بني، أريدك أن تعلمي، بأني أصبر على الشتم و الكلام الفاحش و كل أشكال التحرش و المعاملة السيئة، بل لقد صارت جزءا مني و من واقعي، و أتحملها من أجل لقمة العيش.

يا بني، أريدك أن تعلمي، بأني أخوض في ما لا أحب، و أغرق فيما أكره، و أمشي عكس نفسي، من أجل لقمة العيش.

يا بني، إن الأيام كفيلة بأن تكشف لك كل الحقائق الغامضة، و تنفضح أمامك كل الأسرار، و سوف تتمنين حينها لو أنك لم تكبري، سوف تتمنين حينها أنك بقيت صغيرة يافعة صفحة بيضاء، لأن الحياة يا بني، لا تهديك فكرة إلا بثمر، و لا تكشف لك حقيقة إلا بمقابل.

- يا أمي، لقد تهكم علي التلاميذ كثيرا، فذهبت إلى أستاذ العربية فسألته كيف جئت إلى هذه الحياة؟ فأجابني بأنه متخصص في الأدب فقط، وقال لي: اذهبي إلى أستاذ العلوم، فهو سيفسر لك هذا الأمر، فذهبت إلى أستاذ العلوم، فسألته، فتردد كثيرا قبل أن يقول لي: أنا يا ابنتي مختص في العلوم فقط، اذهبي إلى أستاذ الرياضيات، إنه يعرف كل شيء، فذهبت إليه فسألته، فقال لي بأنه يعرف الأرقام فقط، ووجهني إلى أستاذ التاريخ، فذهبت إلى أستاذ التاريخ، فضحك وقال لي: إني أعرف تاريخ الدول، لكنني أجهل تواريخ الأفراد، فازدادت حيرتي، وقبل أن أخرج من الفصل، قمت بتسجيل هذا السؤال في كتاب اسمه "معجم الجهل" يضعه أستاذنا في القسم، إذ قال لنا بأنه علينا أن نسجل فيه كل فكرة لم نفهمها، وأنه سيقروءه، وسوف يجيبنا عنها ذات يوم.

لكنني لم أتنازل حينها، فلقد رأيت حارس باب المدرسة "با احمد"، الرجل الأغبر ذي الدراجة الهوائية الذي كنت أراه بائسا جاهلا و لا يعرف القراءة و الكتابة، و الذي كنت أستبعد أن أجد عنده جوابا على أي سؤال في هذه الحياة، فسألته عن هذا الأمر عندما كنت خارجة من الفصل، فقال لي مبتسما:

يا بنيتي، هل تعرفين كيف تلد الكلاب جراءها؟

قلت : لا.

قال لي : فهل تعرفين كيف تلد الحمير جحوشها؟

قلت : لا

قال لي : يا بنيتي، عندما تعرفين كيف تلد الكلاب جراءها، و كيف

تلد الحمير جحوشها، حينها ستعرفين حقيقة مجيئك إلى هذه الحياة...

و عندما انتهيت من كل هذا، زادت حيرتي أكثر، أريد فقط أن أعرف

يا أمي، هل سؤالي هذا صعب إلى هذه الدرجة؟

كل زملائي يضحكون، لأنهم يعرفون من أين جاءوا و كيف جاءوا،

إلا أنا، لكنني كذبت على حارس المدرسة "با احمد"، لأني أعرف كيف تتوالد

الكلاب و الحمير، لكنني خجلت أن أعترف له بذلك، لكنه على الأقل، جعلني

أقرب من الحقيقة، و جعلني أفهم لماذا تعفف أساتذتي عن الحديث في هذا

الموضوع.

- دعيك من هذا يا بنيتي، إننا لا نتناسل مثلهم تماما، لكن المبدأ هو نفسه بيننا،

نحن كذلك نتألف، و نحن كذلك نحبل، و نحن كذلك نلد، و نحن كذلك

نرضع، و نحن كذلك نربي، لكن هل تعرفين ما هو الفرق بيننا و بينهم؟

- نعم، لقد قال لنا الأستاذ ذلك، قال بأنهم يمشون على أربع، بينما نمشي على

اثنين. (تداركت الأم مبتسمة) :

- نحن كذلك، لما نكون صغارا، نمشي على أربع، الفرق بيننا هو التفكير يا بنيتي.

- لكننا بالتفكير نخدع بعضنا، و نغش بعضنا، و نغدر بعضنا، و هم لا يخدعون و لا يغشون و لا يغدرون، هل تذكرين كلبنا في البادية، قبل أن نرحل إلى هنا؟ إنه كان وفيًا مخلصًا، كان يرفع الأغنام، و يحرس البيت، و يدافع عنا ببسالة، لم تكن غايته من وراء ذلك هي أن ينال أجرا.

و هل تذكرين حمارنا المسكين؟ إنه كان خادمنا المطيع، يحمل كل الأثقال، و يحملنا نحن كذلك، بل إننا نستعمله في كل شيء، لكنني لم يسبق لي أن رأيت في عينيه يوما نظرة سخط أو امتعاض.

التفكير يا أمي قوة لنا في شيء، لكنه ضعف لنا في أشياء، فلو كان زملائي حميرا، كنت احترمتهم أكثر، لأنهم ما كانوا حينها ليتهمكوا علي ويسخروا مني.

- يا بنيتي، عندما تكبرين، ستفهمين بأن السؤال المرهق أكثر، ليس هو من أين أتيت، ولكن هو: "إلى أين تذهبين؟"، فإن كان الجهل بالأول مصدرا للحيرة، فإن الجهل بالثاني قد يدفعك لفقدان الاتجاه.

كان هذا الحادث فعلا مثيرا بالنسبة إلي، و معبرا عن حالة نفسية و جسدية أعيشها في صمت، ففي بعض الحالات، لو علم الناس ما أفكر فيه، لرجعوني بالحجر حتى الموت.

صعب جدا أن تقنع طفلا بفكرة إذا كلمته بلغة طفل، سيعتقد بأنك تمزح،
ولكن جرب أن تكلمه بإحساس طفل، ستكون النتيجة أفضل بكثير.

اللوحة السبعة.

كانت صورة زوجي و هي معلقة في الحائط، تثير انتباهي قبل النوم في كل ليلة، بحيث أنها توجد مباشرة في مرمى بصري عندما أضع رأسي على الوسادة، و غير بعيد عنها توجد لوحة مكتوبة بخط عربي ديواني جميل لسورة الناس، كنت أستغرق وقتا طويلا أنظر إليها و أنا مستلقية على ظهري، و في كل مرة أعد كلمة "الناس" التي تعود في السورة خمس مرات، و أقول في نفسي أن هذا الأمر لم يأت عبثا، ولكن هناك حكمة ربما أنا لا أعرفها.

كنت في كل ليلة أقرر أن أزيل صورة زوجي من ذلك المكان و أعلقها حيث لا أراها، ليس لشيء، ولكن لأن هذه النظرة تجر خلفها الكثير من العتاب و الأشجان التي قد تسرق النوم من عيني بينما الخلق نائمون.

و لكنني كنت أسأل نفسي دائما : كيف سأفسر هذا لبناتي؟

كيف أقنعهم بأن تلك الصورة تؤلمني و توجع مهجتي؟

كيف يفهمون بأنها تثقل على ذاكرتي و لا يسألونني؟ فأكثر شيء يدفع

الإنسان إلى المعرفة هو الفضول، و فضولهن كبير.

و ليته كان مبتسما، أو ليته كان ضاحكا، كنت سأرى صورته كمثل

لوحة تعبر عني، عن رغباتي، عن نفسي، عما أريده، و عما يشغل بالي.

كنت سأخاطبه، سأكلمه، سأحاوره، و أعرف حينها بأنه سيجيني
عن كل أسئلتني، و سيخاطبني بلطف، و يكلمني بمحبة، فكل المشاهد
الموجودة في هذه الدنيا هي بمثابة لوحات، و كل اللوحات أنت تقرأها
وتسألها بلغتك غير المنطوقة، فتجيبك بلغتها المفهومة.

لكنه ليس مبتسماً، لا أدري فيم كان يفكر حينها، فلكل صورة في
حياتنا ذكرى تحتفظ بها، و الصورة ليست ذكرى فقط، وليست شكلاً فقط.
الصورة مضمون كذلك، إحساس بالزمان و المكان، و ربما تخليد
للمشاعر و حتى الأفكار.

الصورة بلاغة، تعبر عنها المواصفات الفنية و الجمالية و التعبيرية،
لذلك فلا تستغرب أن تحدث في نفسك رد فعل متناقض.

عندما تلتقط صورة جماعية مع بعض الأصدقاء خلال حدث معين،
وتمضي الأيام و السنين، و تعيد النظر إليها، تجتاحك الكثير من الأحاسيس
والمشاعر و الأفكار، و يدهمك الحنين و ربما تبسم، أو تأتيك الرغبة في البكاء،
فلكل واحد منكم تقاسيم تعبر عن حالته النفسية، و لكل واحد منكم ملامح،
لكنكم كلكم تنظرون إلى هدف واحد كأنه إنسان تخاطبونه و تتوجهون إليه
بكل اهتمامكم، و هو ليس سوى عدسة الكاميرا التي تمثل في كل لحظة تصوير
مركز الحدث و روحه، لأن كل واحد منكم ينظر إليها كأنه يعرفها.

لكن صورة زوجي ليست كذلك، إنها صماء بكاء، إنه شبه عابس،
ينظر إلى المصور، و تنظر إليه فلا تفهم ماذا تقول عيناه:

كأنه يريد أن يقوم من مكانه مسرعا.

كأنه يريد أن يغادر.

كأنه ليس مرتاحا في هذا المكان.

عندما تتصنع، فأنت لا تكون بسيطا، و عندما لا تكون بسيطا، فأنت
تصير أقل إفصاحا و تعبيرا.

لا أدري ما الذي جعله يختار هذه الصورة و يضعها في إطار، لكني
أعلم أنه لم يجد غيرها، و أنه ليس خبيرا في فقه العيون، و ربما حتى الشخص
الذي صوره، لا يعتبر التصوير عملية إبداعية، بقدر ما يلعب دور الصانع
فقط، و إني لا أنسى يوم ذهبت لكي ألتقط صورة من أجل بطاقة الهوية للمرة
الأولى، و كنت مسرورة حينها، فقال لي المصور:

- لا تبتسمي، فإنهم لا يقبلون الصور المبتسمة.

لكني كنت لا أتعمد ذلك، كانت الابتسامة تندلع من تلقاء نفسها، و أمام
مقاومتي لها، وجدتني في الصورة عابسة مكشرة.

كنت رغم كل هذا أحاول أن أدقق في صورة زوجي و أستنطقها،
علني أظفر منها بجواب مقنع، فبعض التنازل و بعض التغاضي قد يفيان

بالغرض، إلا أن براز الذباب، جعلها تبدو مزركشة بنقط سوداء، أسوؤها تلك الساطعة في بياض عينيه.

غدا سأمسح تلك الصورة و ألعها، وربما لن أعلقها ثانية، و أتمنى ألا أكتشف بأنها بالأوساخ كانت أجمل.

ثم إنها مائلة، إن الذي علقها في ذلك المكان لم يكن فنانا، أتذكر بأنه بناء استغل فرصة تثبيت بعض المسامير من أجل تعليق الملابس و الأواني، و جاء بعد الانتهاء من عمله ليدق مسمارا صدئا هناك، فصنع لها أذنا من ثوب، ثم علقها حتى دون أن يعيد النظر إليها، لأنها لم تثر فيه انتباها و لا إحساسا، إنها تبدو، بالنسبة إليه، كمثل الصور الإشهارية المطبوعة على كراطين شركات مواد الغسل و التنظيف، و ربما اعتقد بأنها مثلا، إشهار لمبيدات الحشرات.

ماذا تثير فيك صورة رجل نقي الوجه شاحب، يحملق فيك كأنه يريد أن يضربك؟ أو كأنه غاضب منك؟

لم أكن أملك ما يكفي من الصبر لنزع الصورة المعلقة، و ربما إحراقها إشباعا لرغبة دفينه في نفسي، فصعدت فوق كرسي قديم لكنني لم أصل، رفعت عيني لأنظر إليها فبدت ملامح الوجه باهتة بفعل انعكاس ضوء المصباح، وضعت المخذة على الكرسي، فقبضت عليها بأصابعي، كان الخيط ملتصقا

بالمسار، لكنني سحبته بعنف حتى انفصل، كان الإطار الخشبي ثقيلا، كادت تسقط من بين يدي، لكنني لا أهتم لذلك.

رميتها فوق اللحاف، ثم خرجت من البيت، أحضرت قطعة قماش، وعندما رجعت وجدت الصغيرة تضعها على ركبتها و تسحب أناملها فوق وجه أبيها، كانت أصابعها المرتعشة قد رسمت خطوطا عفوية على الغبار الملصق بزجاجة الصورة، و كانت الخطوط تترنح فوق الحدود، و تمر عبر الشارب فالذقن.

لم أملك الشجاعة الكافية لمسح الخطوط المرسومة في الغبار، لقد أضفت على الصورة مسحة الشجن و صارت أكثر تعبيرا من ذي قبل، كادت الدموع تنهمر على صحن خدي، لكنني تماكنت نفسي أمام البنات. لقد أحسست بالكثير من المتعة حين بدأت أمسح طبقة الغبار الملصقة بزجاج الصورة، هي تماما كالمتعة التي أحسها حين أتنفس أو حين أدخل إلى الخلاء، فأنت في هذه اللحظة كذلك، ترمي كل الأوساخ و البقايا العالقة بمصارينك خارجا.. قلبت الصورة، فوجدت الخيط قد انقطع، و على خشبة الإطار مكتوب اسم صاحبها بخط رديء تكاد لا تفهم حروفه التي تبدو لرداءتها كطلاسم المشعوذين.

قلبتها مرة أخرى و أعدت النظر إلى ملامح الوجه، إلى العينين و النظرة، حاولت أن أتذكر متى ينظر إلي هكذا، فتذكرت أخيراً أنه لم ينظر إلي هكذا أبداً، ربما كان خائفاً حينها، لأن نظرة الخوف، هي التي لم يحصل لي شرف اكتشافها في عينيه قبل اليوم.

رفعت رأسي أبحت عن مكان مناسب في الحائط أغرس فيه مسماري، كنت أنظر للحائط المقابل للأول، لن أعلقها عالياً هذه المرة، فكلما علت، بعدت عني، سأعلقها قريبة مني، حيث أمد يدي فأقطعها بدون عناء.

و بينما غرست المسمار في المكان الذي أحبيت، وجدت صغيرتي تقبل الصورة باشتياق، كان نفس زفيرها قد ترك بقعة من الضباب على الزجاج، و وسطها بصمة الشفتين الصغيرتين، فأخفت بذلك نصف ملامح الوجه الكئيب، مسحت القبة، ثم علقت الصورة، تراجعت خطوة إلى الوراء، يا إلهي، الصورة أجمل من ذي قبل، و الملامح أكثر فصاحة من ذي قبل، لقد أضفى عليها شعاع النافذة الخارجية رونقا و جمالا.

رسالة ملعون.

كنت قد بدأت بالعمل في مقهى قريب من مسكني، أغسل الأواني و أرتبها وأقوم بالتنظيف، و أحضر الشاي للزبائن عندما أنتهي من عملي، كان أجري زهيدا، لأن دوري مها كان كبيرا، فإن عملي هو الأكثر ندالة و الأقل قيمة في أعين الآخرين.

كان المطبخ الذي أشتغل فيه يوجد في قاع المقهى، بحيث لا يمكنك الدخول إليه دون أن تشعل الضوء و لو في عز النهار، و كلما دخلت إليه انتابني شعور بأن الوقت ليل، لكن هذا لا يمنع من أنني عندما أنتهي من عملي، أخرج إلى المقصورة المطلة على الزبائن، فأقعد مختبئة و أبدأ بالتفرج على النهار وعلى الجالسين و هم يبارسون طباعهم على النادلة.

لا أنكر أنني كنت أستمتع كثيرا بمشاهدة الزبائن و هم فرادى ومثاني و ثلاث و أكثر، أما بعض الوجوه و الأصوات، فإني قد حفظتها حتى بدأت أشك أن عملها هو الجلوس في المقهى، إنهم لا يغادرون كراسيهم إلا قليلا، بل صارت بعض الكراسي حكرا عليهم و لا يمكن أن يجلس فيها أحد غيرهم، منذ أول النهار إلى آخره، فإن تأخروا في المجيء و وجدوا غيرهم فيها، فإن النادلة التي ترى في أعينهم نظرات الاشمئزاز تحاول أن تقنع الجالسين بتغيير

المكان بحجة تخترعها من تلقاء نفسها، و لقد تساءلت كثيرا : ما هو عمل هؤلاء الأشخاص؟

لماذا يجلسون في المقهى طول اليوم و لا يجلسون في مكان آخر؟

هل يعودهم هذا هو عمل مفروض، أم أنه فقط متعة؟

و متى كانت المتعة جلوسا في المقاهي؟

كنت أطرح الكثير من الأسئلة على نفسي و على من حولي ممن أعرفهم، لكنني لم أظفر بأجوبة تقنعني.

أتذكر أني سألت النادلة الجميلة ذات يوم ففوجئت بجوابها عندما قالت: "و لماذا أعرف؟ أنا لا أريد أن أعرف، ما يهمني من كل هؤلاء الأندال هو البقشيش، أتمنى أن يعفو علي الله من هذا العمل البئس، إننا لا يمكن أن نتقن عملا لا نستمتع به".

أحسست حينها كم تعاني هذه الفتاة الجميلة من خصائص و سوء المعاملة من طرف الزبائن و حتى من صاحب المقهى، و عرفت أنها فقدت الثقة فيهم أجمعهم، فما باتت ترى في هذا العمل متعة، بل ترى فيه فقط مصدر عيش مؤقت.

أنا كذلك كنت أعاني مثلها، و ربما أكثر، لا أعرف كيف أخذ أحد الزبائن رقم هاتفي و صار يبعث إلي بالكثير من الرسائل القصيرة في كل ليلة،

كان في كل يوم يأتي إلى المقهى، ثم يجلس في طاولة قريبة من المقصورة الخارجية، ثم يبدأ في طلب كؤوس القهوة بشكل متتابع، كان لا ينجل من نفسه و هو يقوم في كل مرة متعذرا بأمر ما، و يأتي إلى المسؤول عن تحضير الطلبات، ليطلب تارة كأسا من الماء بعد أن يشرب الأول حتى إن لم يكن عطشانا، أو ربما يضعه في طاولة أخرى أو يهديه لزبون أو ربما يهرقه، و تارة يطلب جريدة اليوم أو الأمس، و تارة يسأل عن مباريات كرة القدم المنقولة مساء اليوم، و تارة يسأل عن فلان أو فلانة، كان يحاول في كل مرة أن يجد سببا لذلك، و سببا لكي يطيل الكلام مع النادل، بحيث يفتعل موضوعا و يبدأ بمحادثته عن قرب، و ينظر إلي بعينين غائرتين، و لو كان يعلم كم أكرهه، ما كان جاء إلى هذا المقهى، و ما كان نظر إلي.

لم أجه يوما على رسائله في الهاتف، و كنت دائما أتساءل كيف يحصل على رقم هاتفي حتى عندما أغيره، كأنه يكرس وقته للتلصص علي و مراقبة حركاتي و سكناتي.

دائما هناك شخص ما، مقرب منك، يدعي أنه يحبك من بين أصدقائك، لكنه يبلغ عنك، و يكون صلة وصل بينك و بينهم، بل و يبلغ عنك معلومات مهمة، يزيد في أهميتها حين يمزجها ببعض الأكاذيب النابعة عن

شكوك أو من محض الخيال، فتراه يحكي لبعضهم حين تساءل عني و عن جهله

بي قائلا:

- ألا تعرفها؟ إنها زوجة الرجل الذي قتل صديقه.

يقول هذا كأنه جاء بشيء جديد لا يعرفه الآخرون، و الذين لا بد أن

تجد من بينهم واحدا متعطشا لمعرفة معلومات أكثر، فيتقرب منه و يسر إليه

قائلا:

- و لماذا قتل صديقه؟

و هكذا يكون الموضوع قد أخذ مكانه بينهم، هم يسألون و هو يجيب

تبعا للمعلومات التي أعطاه هذا القريب الذي يعرفني و يدعي بأنه يحبني

ويتعاطف معي، و الغريب في الأمر، هو أنه لا يقول لسؤال: "لا أعرف"، إنه

يحاول أن يبدو بمظهر العارف لكل شيء، و يؤلف قصة أو تكملتها للخبر

الذي لا يعرفه، حتى يبقى مركزا للكلام، و حتى ينقل إليهم الأخبار التي يريد

كما يريد، ثم يستمر قائلا:

- لقد قتله لأنه... (فينظر خلفه و على يمينه و على شماله كأنه يريد أن يسرق شيئا،

و يقترب من الرأس ثم ينبس بصوت خافت):

- لأنه وجدته مع زوجته.

فينبهر الآخرون، و منهم من يفتعل الانبهار، ثم يقترب منه أحدهم
ويسأله نيابة عنهم :

- وكيف قتله؟

يشعل الحديث اشتعالا و يحلو الكلام، و يبدأ هو في حكايته الحقيقية
الممزوجة بالكثير من الخيال، و ما أجمل مثل هذه الحكايات التي تخول لراويها
فرصة الزيادة و النقصان بمرونة و احتراف، فمعظم الأخبار التي ننقلها عن
غيرنا نتصرف فيها و لو بقليل من الحنكة، لأننا بالعادة، نعشق إعادة كتابة
الأحداث كما يحلو لنا:

- لقد كانوا أصدقاء مقربين، و كانوا يسهرون في كل ليلة من أجل تناول الخمر
حتى الصباح، و ذات ليلة، لعب الشراب بعقله و نام، فقام صاحبه ليجامع
زوجته، فقام فجأة فوجدهما متلبسين، فذبحه بالسكين.

ثم تبدأ بعض الاستنتاجات الحتمية بعد كل حكاية، كالتي قال
أحدهم:

- أترى؟ النساء و الخمر، أصل كل بلاء. (ثم التفت إلى صديقه الذي بجانبه ثم
قال له مستنجا): لهذا أقول لك إني لا أريد أن أتزوج، و أنت تلح علي و تفتعل
هذا الحديث في كل مرة، ليست هناك امرأة تستحق. (فينتهر الآخر مستطردا
ومدافعا عن نفسه):

- و هل هناك رجل يستحق؟
و تتأخر بعض الاستنتاجات التي تتولد عنها أسئلة استفسارية، بعضها محير، كالسؤال المركب الذي قال آخر و هو يظن بأنه يفهم في الجريمة أكثر منهم:
- هذا لا يمكن، كيف انتظره صاحبه حتى ذهب إلى المطبخ و أتى بالسكين و ذبحه به؟ الحكاية ليست كما تقول، هناك شيء ما نحن لا نعرفه.
فيرتمي بطل القصة بين أحضان الحديث و يضيف إلى كلامه باقتناع:
- الشيء الذي لا تعرفه، هو أنها كانا في حالة سكر، فكيف يفكر المذنب في الهروب؟
- و لما كانا في حالة سكر، كيف يفكر الآخر في التريث و التأنى و البحث عن السكين من أجل قتله؟ أي صبر هذا الذي يملكه؟ بل كيف يملك كل هذا الصبر لكي لا يرتمي فوقهما لحظة رآهما؟ لماذا لا يستعمل يده أو عصاه و هما الأقرب إليه؟ و كيف قتل صاحبه و ترك زوجته و هي كذلك مذنبه؟
ثم يستنتج آخر ليثبت فكرة كرهه للنساء:
- هل ترى كم تبدو هذه المرأة طيبة و مسالمة، علما بأنها هي السبب في كل هذا البلاء، لقد تشئت بسببها أسر و ذهبت أرواح، هذا الذي جعلني لا أفكر في الزواج.

و فجأة كبر الموضوع و تطور النقاش و صار معظمه ضربا من العبث لكثرة ما نتج حوله من الإشاعات و الأكاذيب.

كنت أسمع هذا من كل الذين أعرفهم للمرة الأولى، كنت لا أتعرف عليهم إلا في بعض المناسبات، لكنهم كانوا يعرفونني جيدا، كانوا يحكون قصتي مع غيرهم، فأتساءل مرات: هل أنا امرأة مشهورة؟ ولكنني أعرف أنني مشهورة فعلا، مشهورة بجريمة شنعاء، كمصيبة كبرى، ككارثة حلت بقوم.

آه، لو كنا فعلا من تراب لنبت الورد في أجسادنا.

العمل المضني من جهة، و الإشاعات و كلام الناس و النظرة الدونية للمجتمع من جهة أخرى، و بنات لا تتوقفن على فعل المصائب أو افتعالها، و زوج مسجون يريد أن يكون مركز حياتي بالكلام في الهاتف فقط، أما أنا، فإني ما بت أنتبه إلى نفسي، إنني أكاد لا أعرفني عندما أنظر إلى المرأة، أريد أن أصرخ ملئ صوتي، أريد أن أهرب حيث لا يعرفني أحد، و لا سبيل إلى ذلك.

كنت غارقة في التفكير، حين تسللت إلي من بين الجموع امرأة مقهورة مثلي، كنت عرفتھا خلال بحثي عن عمل مناسب، و لأنها شريكتي في القهر والحرمان، كنا نبدو كأختين، وجوهنا شاحبة و أعيننا غائرة كأننا خلقنا فقط من أجل تجرع ما تبقى في هذه الدنيا من عذاب، حتى صاحب المقهى لم يتجرأ

على مساءلتي عنها، لأنه رأى بأم عينيه كيف عانقتني بحرارة و قبلتني بحرارة،
و كيف كانت تبسم في وجهي و تتفحص ملامحي كأنها أم تتفحص رضيعها أو
كأنها تخلقه في خيالها من جديد.

تأخرت كثيرا قبل أن أسمح لها بالجلوس، فبعض الأحاسيس قد
تنسيك نفسك، و خجلت لأنني لم أنتبه سريعا للعياء الذي يبدو جليا عليها،
وخجلت أكثر، لأنها تجرعت كل هذا العناء من أجلي.

يا ربي، كم أحس في بعض الأوقات بأن الحياة قد ضحكت
علينا...

كانت المرأة تسر لي الكلام، و فهمت بأنها لا تريد أن يعرفوا ما
تقول، فما تقوله مخالف لمصلحة الآخرين لأنه مناسب لمصلحتي، فقد جاءت
إلي بخبر عمل جديد في ضيعة رجل مقاوم اسمه "الحاج احمد"، لأنه كما قالت،
أقل تعباً مما أنا فيه، و أمرتني بأن أذهب في الغد إلى مركز المقاطعة من أجل
الحصول على بعض الوثائق اللازمة، ثم اختفت كشبح وسط الجموع.

لقد اجتشتني من قاع التفكير و الهموم، كأنها بعثت إلي من السماء.
ألقيت نظرة على المقهى، فوجدتها غصت بالزبائن، بالشباب الحالمين،
لقد أدركت بأن الأمر يتعلق بمباراة في كرة القدم، و أدركت معها حجم المعاناة
التي تنتظرنني من فرط غسل الأواني.

كنت لا أعرف عن هذه المباريات الرياضية شيئاً، و كل ما أعرفه عنها في حياتي، هو منتخب بلادي، كان متميزاً باللباس الأخضر والأحمر، و لذلك كنت أميزه بسرعة، كما أعرف اسماً أو اسمين لبعض اللاعبين الذين تتردد أسماءهم كثيراً بين أوساط المتفرجين.

لكن مباراة اليوم ليست كذلك، إنها مباراة بين فريقين أوروبيين كما يقولون، و حجم الاستعداد لها كبير جداً، فالشباب يلبسون قميص الفريق الذي يرغبون في تشجيعه، و يهتفون باسمه، و يدافعون عنه و عن تاريخه و عن ألقابه، و يحفظون الأسماء و الأرقام و كل ما يتعلق به، فتجد بعضهم يتخاصمون بسلح المعلومات عنه حتى قبل أن تبدأ المباراة، و بعضهم يغني ويهتف ويلوح باللافتات، فإن ربح الفريق فهم أسعد خلق الله، و إن خسر الفريق، فالبؤس يجتاح الأسر بأكملها.

كنت دائماً أتساءل: كيف يتأثرون كل هذا التأثير لفرق ليست منا ولسنا منها في شيء؟

كيف لا يتأثرون بنفس الطريقة للمنتخب الوطني؟

كانت نفس هذه الأسئلة قد طرحت أمامي على شاب مولع بفريق أوروبي، فأجاب: "لأن الأوروبيين يعطون للأشياء قيمتها، و يعملون من أجل مبدئ الانتصار، و من أجل تطوير مستوى اللعب، و من أجل الوصول

إلى أعلى المراتب، و أما المنتخب الوطني، فكله مخالفات، من الطاقم التقني إلى اللاعبين إلى الملاعب إلى المسيرين، فإن اتبعته و شجعت، فاعلم بأن مستقبلك لن يعرف إلا مسلسلا طويلا من الإخفاقات و الخسارات، و لن يبالي بك أحد، و لن يسمع لشكواك أحد، هكذا تحس بأن حبك لهذا الفريق يتبدد في الهواء، و يضيع سدى."

كان كلام هذا الشاب، هو التعليل الوحيد الذي سمعته عن هذه المفارقة، لكنه أقنعني و آمنت به، فمن يسمع رأيا واحدا مثلي، فهو لا يملك إلا أن يصدقه و يتبناه، خصوصا عندما سمعت بأن الرياضة و الأدب في بلادنا ليست لهما قيمة، و لا تعطاهما أولوية، و أن معظم المسؤولين في بلادنا لصوص محترفون، و ليست لهم علاقة بمجالات تعيينهم، فأنت في الغالب تجد وزير الثقافة في الأصل مقاول، و وزير الرياضة في الأصل رجل قانون، و وزير الاقتصاد و المالية في الأصل شرطي، و هكذا تضيع الحقيقة بين بين.

و كالعادة انتهت مباراة كرة القدم في مدة قصيرة تخللها صراخ و عويل و فرح و حزن و تحليل و تفسير و تأويل، معظم الذين كانوا يشاهدون المباراة تراهم صاروا محللين رياضيين بارعين، و كل واحد منهم يقول كلاما مختلفا عن الآخرين إرضاء لفكرته أو لرغبته، لأن من يشاهد الفعل من الخارج يراه أسهل من الذي يعيشه.

أما حواراتهم فهي تتميز بالحدة و العنف، كأن الشأن يتعلق بالوطن أو بالعرض، لا أحد منهم يتنازل عن فكرته من أجل فكرة صحيحة، و لا أحد منهم يقتنع بفكرة الآخر، و لا أحد منهم يعترف بقوة الآخر، لأنهم ينقسمون إلى معسكرين متناحرين متقاتلين، شعار كل واحد منهما هو: الانتصار فقط، وممنوع الاستسلام، حتى في حال الهزيمة.

لقد كنت أرثي لحالهم، و هم يبذلون قصارى جهودهم لكي يغلبوا بعضهم قولا و فعلا، بحيث لم يكن كلامهم يشبه الحوار، ولكنه يشبه العراك. كنت دائما أتساءل لما تنتهي المباراة و يحصل نفس الشيء في كل مرة، لماذا يتحاورون بهذه الطريقة، مادام الواحد منهم لا و لن يقبل رأي الآخر؟ لأن حوار الطرش و العميان لا يصل إلى نتيجة مهما كانت الظروف.

لماذا لا ينسحبون بعد انتهاء المباراة بروح رياضية كما يقولون دائما؟ إن من بينهم أشخاصا يصلون في افتتاحهم بهذا الأمر حد الجنون، فقد يكون و يندبون و يحزنون إذا خسر فريقهم، و قد لا يتناولون حتى الطعام و لا يخلقون وجوههم حزنا.

و بينما انتهت من العمل، و كنت ذاهبة إلى البيت، وجدت بعض الشباب يواسون صديقا لهم و هو يبكي على فريقه الذي خسر المباراة، لكنه كان على أعصابه يتحدث عن اللاعبين بحرارة قائلا:

- "ذلك المدرب الأحق، إنه لا يفهم في الكرة شيئاً، كان عليه أن يغير اللاعب الفلاني و اللاعب الفلاني، كان عليه أن يلعب بخطة غير هذه التي دفعته إلى الخسران، كان عليه أن... كان عليه أن".

كانوا ينصتون إليه بينما أحدهم لم يتحمل كل هذا، فابتعد عنهم و صار يقول:

- "يا صديقي إن كرة القدم مجرد لعبة، و الحياة نفسها مجرد لعبة، فتارة تفوز وتارة تخسر، هل تريد أن تفوز فقط؟ هل تريد أن تحذف الخسران من القاموس؟ هذا غير معقول، فاللغة فيها الجميل و فيها الخبيث، و فيها الرابع و فيها الخاسر، و فيها الجنة و فيها النار، فإما أن تقبل بهما معا أو أن ترفضهما معا، لماذا تفرح عندما تفوز إذن؟ هذه الدنيا يا صديقي تعطيك باليمين، و تأخذ منك بالشمال، و عندما تفوز يوماً، فاستعد للخسارة في الذي يليه، لأن الحياة يا صاحبي، أدوار."

فتهم بعض الشيء، فرن هاتفي، إنها رسالة نصية، لم أصبر كثيراً، أطللت عليها، فوجدتها من ذلك الرجل الذي كان يحدث الزبائن عني في المقهى بالزور و البهتان و الكذب و الافتراء، لقد كان يبعث قبلها الكثير، لكني لا أجيبه، أما الآن، فإني غاضبة، و مادام قد بعث إلي برسالة قال فيها: "تصبحين على خير أيتها الجميلة"، فإني سأبعث إليه بالجواب: "و أنت من

أهل جهنم أيها الملعون"، لأني لا أرى معنى بأن أقول لك أنت سيء بطريقة حسنة، أو أن أقول لك أنت قبيح بطريقة جميلة، فالتعبير ليس فقط كلمات، ولكنه كذلك نبرة ورنه وحن وصوت وملامح وإشارة وصورة.

موت بطي.

رجعت إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل، كان سعال "الحاج"، أب زوجي، كالعادة يخترق السكون، كنت أشعر بمرضه الناتج عن تناوله القديم للسجائر، إنه من مواليد العقد الثاني من القرن العشرين، هؤلاء الذين لا يعرفون تواريخ ميلادهم إلا من خلال بعض الأحداث الكبرى، هكذا كان يقول لنا بأنه ولد بعد رجوع عمه من "حركة عبد الكريم" ضد الإسبان، و التي سميت في التاريخ معركة أنوال، بحيث مات عمه بعد عام من رجوعه من المعارك في شمال المغرب كأنه كان يحمل في جسده الهزيل تاريخ نهايته، كل الذين شاركوا معه ماتوا في نفس العام حتى إن لم يصيبوا في الحرب، و لم يمض إلا عام على موت عمه حتى ولد الحاج، فسموه باسمه، لأن الناس هنا يتوسمون الخلود في الأسماء.

و قد كان له شرف معايشة أحداث الحرب العالمية الثانية التي كان يسميها (حرب هتلر)، و كذلك حرب الهند الصينية، كان يحكي لنا الكثير من الحكايات عن هذه الحروب التي غيرت وجه الأرض، و أتذكر بأنه كان يتحدث عن "هتلر" كأنه يتحدث عن أسطورة من أساطير الزمان، كما حكي كثيرا عن الجحيم الذي عاشه في حرب "الفيثنام"، بأرضها و تضاريسها

وأهلها، لقد قال لنا بأنه نجا من الموت هناك مرات عديدة و هو يحمل البندقية و يقتل الأبرياء إرضاء لنهم فرنسا و جشعها.

و عاش الاستعمار، و حكى عن المقاومين الحقيقيين، الذين ماتوا دون أن يعرفهم التاريخ، أو أنه تعمد تجاهلهم، و عاش الاستقلال و إشكالية تأسيس الدولة المغربية، و حكى لنا كثيرا عن المسيرة الخضراء، و عن تهافت الشباب الذين سمعوا بأن كل من ذهب إلى الصحراء سينال بقعة من أجل السكن، وعن الشاب الذي فجعت أسرته فيه، بحيث عاد منها فمرض بسبب سوء الأحوال و بسبب تهوره و مات، و عن حرب الرمال، و عن جاره الذي اختطفته عصابات البوليزاريو مع فيلق من جنود الحراسة على الحدود في الصحراء، و سجنوه في الجزائر أكثر من عشرين عاما، و قد قال لنا بأنه قد تم إطلاق صراحه طبقا لاتفاقية مغربية جزائرية في التسعينيات من القرن العشرين، وأنه قد رآه و هو شيخ هرم بظهر منحن و جسد متآكل هزيل.

كانت تلك الثقافة هي السائدة بين أقران "الحاج"، و كنا لا ندري ما الذي نصدقه من كلامه و ما الذي لا نصدقه.

كنت أقف مندهشة أمامه و هو يمزج الحقيقة بالخيال في سرده لمشاهداته التي لا تخلو من تشويق، فنحن خيالون، و لغتنا فيها الكثير من البلاغة، بحيث نقول أكثر مما نريد، فنحصل على أكثر مما يجب.

لقد حكى لنا يوما أنه حضر تجمعاً خطايا حزيا كبيرا ترأسه "المهدي بن بركة" في مدينة الرباط، و كيف كان الرجل بليغا و متحمسا، و كيف كان حاملا لهموم الحزب أكثر من حديثه عن الدولة، و كيف كانت له شخصية قوية ونظرات ثاقبة و عقل راجح: "لقد اقتربت منه مرة و رأيته، كان الرجل يتميز بحضور و شخصية، يكفي أن ينظر إليك، لكي تفعل كل ما يريد".

و أما عند حديثه عن المقاومة ضد المستعمر الفرنسي، فهو لا يتورع في الإعلان بكل جرأة: "إن أول من أشعل فتيل المقاومة ضد المستعمر في المغرب، هو المرحوم (محمد ولد التايكة الشعاعلي)، و الذي أطلق الرصاص على اليوتنان الفرنسي (ميو) فأرداه قتيلا، كان ذلك سنة ١٩١٠، و إن كانت فرنسا تحلده قتيلا الغازي إلى اليوم، فإن المغرب لا يذكر لمجاهده أثرا.

و أول شهيد سقط في ساحة الشرف في نفس السنة، هو (سي الهاشمي البوفايدي) و هو أحد مريدي الزاوية الكتانية بقبيلة (اولاد كثير) الزعرية، بينما لا تذكر مصادرنا المدرسية هذا.

و أما ليوتنان الغازي (فيكتور مارشان)، فإن فرنسا تحتفل بذكرى سقوطه قتيلا إلى اليوم، بينما لا أحد يخلد ذكرى للمجاهد (الخثير الدحاوي) الذي قتله في (كمين مرشوش)".

كانت معلومات "الحاج" كثيرة و غزيرة و صادمة، لأن تصديقي لها يجعلني أشك في تاريخي، بل إني بدأت أكتشف بأن فرنسا لم تخرج من المغرب، و أننا لازلنا نخضع للوصاية و الاستعمار أكثر من ذي قبل، ففي السابق، كان الرجل يحمل السلاح و يقاتل، و أما اليوم، فهو راض بكل ما يفرض عليه، الاستعمار صار ينهج طرقا ثقافية و اقتصادية، و هي أكثر أمانا بالنسبة للدولة الغازية، و لم تعد بحاجة إلى سفك قطرة دم، بقدر ما تسلبك ثروتك و عقلك و أنت راض مبتسم من جهلك بالحقيقة.

ما أفجع من نبسم من الجهل.

لكنني في الأيام الأخيرة، بدأت ألاحظ بأن معظم أبناء جيل "الحاج"، أصيبوا بنفس المرض الناتج عن التدخين، و من بينهم أبي، فبدأت حينها أشك و أطرح السؤال: هل من الممكن أن تكون الحكومات قد تواطأت مع شركات التبغ من أجل عملية تجريب كانت نتيجتها إصابة جيل بأكمله بالسرطان؟

كان سعال "الحاج" يزداد قوة في كل مرة أسمع، بل لقد صارت تتباه نوبات اختناق بشكل رتيب، كان يسعل، يسعل، يسعل، و كان الليل يفصح، كان الليل يشي به، و نجبرنا أن ما به ليس بالأمر الهين، كنت في الكثير من المرات أحاول تنظيف فراشه، فأجد في حواشيها بقايا سعاله، فأعيف المكان و أعيف

الزمان و أعيف نفسي، و لم نفكر مع ذلك في حملة جثة هامدة إلى الطبيب، و هو نفسه لم يفكر في هذا إلا عندما تقياً دما.

منذ عرفت "الحاج"، كان وجهه أحمر يميل إلى السواد بفعل العمل في الأسواق و التعرض لأشعة الشمس، ولكني لم أكن أصدق بأنه سيصير يوماً ما أصفر ممتعاً كالذي أراه الآن، لأنني كنت أعرف أن الذي أراه، هو لون الموت، و أن ما أشمه بقربه الآن، هي رائحة الموت.

لم يكن لي بهما علم قبل موت أبي.

حملته أنا و ابنته "حكيمه" إلى الطبيب العام الموجود في حيننا، و نقول له الطبيب العام، لكي نميزه عن الطبيب المختص في مرض محدد أو في منطقة معينة من جسم الإنسان.

كان الطبيب رجلاً طويل القامة أقرنى الأنف، أجلى الجبهة، أشقر العينين، أطرافه كبيرة كأنه مصاب بداء العملاقة، كان يتحرك ببطء، و ينبس الكلام في شبه صمت، و صوته مبحوح، لا يبتسم، و لا يتكلم كثيراً، كان يبدو كحمار.

لا أنكر أن الأمر الذي دفعنا دفعاً إلى الذهاب إليه، هو أولاً ثمن العيادة، المنخفض جداً بالمقارنة مع الأطباء الآخرين، لدرجة أن الناس هنا كانوا يلقبونه بالفقيه، إذ يفعل كأنه يقرأ عليك فقط بعض التعويذات، و لأنه قد لا يتفق معك على الثمن، و بعد الفحص يرضى بالثمن الذي أعطيته، و يرمي

النقود في جيب معطفه المهلهل رميا دون أن ينظر إليها، و رغم ذلك، فإنه يستحق أن يسمى طبيب الفقراء، فقد أنقذ الكثيرين من الهلاك.

كان "الحاج" يستند علي وعلى ابنته "حكيمه" أكثر، كنت أحسه ثقيلًا جدًا، حينها، كان الطبيب يسأل "حكيمه" عنه و يستمع إليها بحذر، لم أسمع إلا جوابها بصوت مرتعش: "إنه يسعل كثيرا منذ شهور، لكنه اليوم قد تقيا دما."

جره بمساعدتنا إلى غرفة صغيرة مظلمة و أمره بالالتكاء على ظهره و الكشف عن صدره، استلقى "الحاج" كمت لا يبالي بما يحصل له، أخذ الطبيب أدواته وجس نبضه و ضغطه، لم يبد أي امتعاض من الأمر، ثم أخذ أداة أخرى و بدأ يضعها على مناطق محددة من جسمه و ينظر إلى الشاشة المعلقة فوقه، كان يجرّك الأداة دون أن ينظر إلى جسم "الحاج"، كأنه يحفظ أعضائه و أماكنها، ثم صعد من بطنه إلى صدره، هناك بدأت أرى علامات الامتعاض على وجه الطبيب، كان يركز على الرئة، ثم يفوتها ثم يعود إليها مرات، كنت أحس بأنه يحاول أن يتأكد من شيء، كانت "حكيمه" تحطف النظرات إلى الطبيب لعله يطمئنها ولو بكلمة أو نظرة، إلا أنه كان لا ينتبه إلا إلى عمله، و أما "الحاج"، فهو صار كمثّل خشبة ممددة، و كنت لا أعرف بأنه مازال حيا إلا باهتزاز بطنه و صدره.

ثم بعدما انتهى الطبيب من عمله، أمرنا بالجلوس في مكتبه الموجود في الغرفة المجاورة، بينما جلس قبالة الحاسوب وقام بطباعة "كليشي" صغير، ثم أخذ يتفحصه و يقرؤه جيدا كأنه يستعد للنطق بحكم أخير، و كتب بعض الدواء، و مد الأوراق كاملة لـ "حكيمة"، ثم أخرجناه و أجلسناه في قاعة الانتظار، كان يستند إلي بينما عادت "حكيمة" لترى الطبيب تحت طلب منه، حدثها طويلا، كانت ملامحها لا تشي بالخير، ثم عادت صامتة، و حملناه إلى البيت، و وضعناه في فراشه مستلقيا على ظهره، كان لا ينظر إلينا، و بعدما لزم مكانه و ارتاح، سأل ابنته "حكيمة":

- ماذا قال لك الطبيب عندما رجعت إليه؟
- قال لي بأن كثرة سعالك بالليل أحدثت جروحا في رئتك، و هذا هو سبب تقيئك للدم، لذلك عليك بتناول الدواء بانتظام.

لم يزد كلاما، لكنه كان يلوح برأسه بطيئا: "إن شاء الله، إن شاء الله..."
بعثت "حكيمة" ابنها "ياسين" ليأخذ الدواء من الصيدلية المجاورة، حينها كانت ابنتي "سكينة" تشد يد جدها "الحاج" المرتخية و هو لا يبالي، كانت تقبلها كأنها تلهو بها، و تعجب أنه لا يتمنع كما يتمنع كل إنسان أو يتنبه إليك عندما تلمسه.

و انتهت فجأة، فرأيت "حكيمة" و أمها في المطبخ، اقتربت منها فسمعتها تقول:

- لقد قال لي الطبيب بأن المرض مزق رئته كاملة، و أعطاني هذه الصورة كدليل، و أمرني بأن لا أخبره بهذا. (كانت شاحبة الوجه تكاد الحسرة تنبجس كالجرح على خدودها، أجابت أمها)

- و ماذا نفعل الآن؟

- لقد قال لي اذهبوا و أحسنوا إليه و لا تحملوه إلى الطبيب ثانية، فأنتم ستزيدون فقط في عذابه، إنه يعيش أيامه الأخيرة. (كانت الأم تنظر إلى ابنتها باستغراب، ثم قالت محاولة إضمار غضبها)

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لا يعلم الغيب إلا الله، كيف يجزم الطبيب بمصير الإنسان، إن العلم إلا الله.

- يا أمي هو لم يقل عكس هذا الكلام، ولكنه يحكم على ما يرى و يعرف، و لقد أعطاني هذه الصورة كدليل. (بكت "حكيمة" و بكت أمها، وبكيت أنا كذلك، كنا نبكي كأنه مات، ما أصعب أن تعرف موعد رحيلك، حتى إن كان بعد مائة عام).

- لكنني لن أجلس مكتوفة اليدين.

- و ماذا ستفعلين؟

- سنحمله إلى مستشفى الاختصاصات غدا صباحا.

كنت أفكر، و شيء ما في نفسي دون عقلي يجلدني بالسؤال: لماذا نتعامل مع الحياة كأننا لا نريد أن نموت؟ و كأننا لا نقبل بقدرنا المحتوم؟ لماذا لا نسلم بأن ساعة هذا الرجل قد حانت؟ و أن جماله قد حنت للرحيل؟ لماذا نتمسك بأضعف قشة و آخر خيط عندما يتعلق الأمر بالموت؟

و في الغد حملناه إلى مستشفى الاختصاصات، و أدخلوه، و اختفى خلف باب كبير، و أخذوا كل أوراقه، و بقينا ننتظر في قاعة فسيحة، أول ما شد انتباهي فيها، صورة كبيرة لرجل يبدو بأنه من العلماء، رجل بعمامة بيضاء و لحية بيضاء، و لا تبدو عليه علامات الوجع، و لا علامات الخجل، استغرقت وقتا طويلا قبل أن أقوم من مكاني و أقرب منها، و أقرأ تحتها اسم: "ابن سينا".

نعم، إني أعرف أن الأمر يتعلق بعالم كبير في مجال الطب، لكن هل يستحق كل هذا التكريم، بأن يضعوا له تمثالا رغم ما وصل إليه الطب اليوم من تكنولوجيا؟

مر بجنبي رجل أنيق غزا الشيب رأسه، ابتسم كأنه يبادرني بالسلام، كأنه يستأذني بالقيام، فأجبته بلا كلام، ثم قال لي هامسا: "ألا تعرفين من هذا الرجل؟"

لم ينتظر جوابي بالنفي، لأنه عرف أنني قرأت اسم "ابن سينا"،
فاستطرد: "هذا الشيخ الرئيس، (و أعاد النظر إلى اللوحة وقال):
هذا المعلم الثالث،

كان طبيبا و عالما و صيدليا،

كان يرفض أن ينال الأجر على مهنة الطب، لأنه يرى بأنها مهنة نبيلة و أكبر من
المال، و أن الطبيب إنسان نبيل يحافظ على أرواح الناس، و ذلك حين صرنا
نرى الطبيب اليوم يلعب بالأرواح كأنها دمي، من أجل المال."

دار بوجهه لينصرف، لكنني كنت أعلم أنه مازالت في نفسه بقية من الكلام
فدار نحوي و قال: "يا بنيتي، لقد كان الطبيب إنسانا أولا، فغلب الإنسان،
واليوم صار الإنسان طبيبا أولا، فغلب الطبيب".

ثم جلست في مكاني الأول، و عيني تتفحص المكان، حتى وقعت على العنوان
فوق الباب الكبير: "قاعة الانتظار".

في قاعة الانتظار،

كان الصمت ثرثارا،

في قاعة الانتظار،

صور و خيالات و باب و جدار،

و كل نظرة من غيري إلي تحمل الكثير من الأسرار،

في قاعة الانتظار،

كأننا في قاعة الاحتضار...

وفي لحظة غياب، حيث تذكرت بأني قد نمت مرات و أفقت، فتح الباب وظهر
المرض كالشبح يسوقه في عربة، هرعنا إليه ثلاثتنا، تبعته زوجته و هو يخرج
من المستشفى، و ارتمت "حكيمة" على الطبيب تسأله و هو يتكلم بحسرة:

- لقد سرح المرض في جسده. (أجابت حكيمة)

- أليس هناك حل سيدي الطبيب؟

- للأسف لا. (فأخرجت "حكيمة" الصورة التي أعطاها إياها الطبيب العام، و
أرتها له، فأخذها و تصفحها متعجبا، و قالت بأنها من طبيب عام، فسألها
مشددا):

- أصبح هذا؟

- نعم سيدي.

- عجب، هذا طبيب جيد، إن هذه الصورة توضح كل شيء.

كان هذا الكلام كفيلا، بالنسبة لي، بالاعتراف بهذا الطبيب الذي يحتقره
الجميع، و بأن ما يقوم به ليس كفقيه، ولكن كعالم.

و عدنا أدراجنا، و اقتنعنا أخيرا بأن "الحاج" يحتاج إلى معجزة لكي يشفى،
لكن كنا نعلم بأن زمن المعجزات قد ولى.

كنت لا أراه إلا ممددا في فراشه، ورائحة الموت تعيث في المكان، ينحل كل يوم، يضعف كل يوم، يموت كل يوم، اختفت الخدود، وظهرت العظام، وبرزت التواءات، ولاحت العروق السوداء، كان يموت ببطء شديد، وما أشق هذا الموت على النفس.

وفي الأيام الأخيرة، صار لا يأكل ولا يشرب، عدا قليلا من الماء، "السرطان" يحول الإنسان إلى خشبة بعينين.

وبعد أيام، اكتمل موته، وصرخت النساء وولولت. أسوأ الناس حظا في الموت، رجل لم يبك أحد بعده، ولم تظهر علامات الحزن على أهله.

مغسل الأموات.

إذا أخبرتك بأني فقيه المسجد المجاور لبيت "الحاج"، فأنت ستدرك حتما بأنها ليست هذه المرة الأولى التي أغسل فيها ميتا، لقد ألفت أن أرى الأجساد كالأخشاب أمامي، أراهم و أعرف أنهم لن يحركوا ساكنا مهما آلتهم، ولن يرفضوا أمرا مهما فعلت بهم، ولن يبدووا انفعالا مهما حصل لهم. كنت دائما أتساءل عن هذا الشيء الذي ينسل من داخلهم فيجعلهم هكذا مستسلمين، ويحولهم إلى شبه أحجار، لكنني لم أحس يوما بأنني تقدمت مثقال ذرة من أجل معرفته، رغم التجارب المتراكمة في تغسيل الأموات.

وحتى إن كان الأمر يتعلق بالأموات، فإنه لا يخلو من الكثير من المفاجآت، ومن الكثير من الصدمات، خصوصا عندما أغسل رجلا مثل "الحاج" الذي أمامي الآن، كان مريضا بالسرطان، وأنت تدري كيف جعله في الحياة شبه إنسان، وجعله في المماة شبه جثة.

كان ذراعه الأيمن مشنبا، متصلبا كأنه قضيب من حديد، لم يسطوا أطرافه خلال الاحتضار، أعرف ذلك، أعرف أنهم انشغلوا بالنظر إلى عينيه، كأنهم يتفرجون على الموت وهو يسحبه من بينهم، ثم شخصت عيناه، وفتح فمه، وغاب.

وضعنائه على المغسل الخشبي البارد، أخذت المقص وقطعت أثوابه، لم يعد بحاجة إليها، وقام صاحبي بجمعها ولفها ووضعها حتى يتصرف فيها أهل الميت. ثم سترت عورته من السرة إلى الركبة، حاولت أن أسدل ستائر عينيه، وضغطت على حلقومه بحركات خفيفة لا تخلو من عنف حتى سددت فمه، وربطته بإزار إلى أعلى رأسه لكي لا يعود، ثم انبريت إلى ذراعه المتكلس، فإني مطالب بتسريحه دون أن أكسره، للميت كذلك كرامة.

وبدأت أفرغ الماء الساخن على ذراعه من أجل ترويضها و الدعاء، وذات لحظة، وبعد طول محاولة، نجح الأمر، وكدت أصرخ في وجهه: "يا أخي ما بك لا ترضى أن ترخي ذراعك؟"، كان قويا يغالبني، حتى وهو ميت بجسد منهك هزيل.

ثم غسلته على سنة الله ورسوله... وكنت في كل مرة، أنتبه إلى أن يده قد وضعت على بطنه، فأحولها إلى جنبه وأستمر، فأجدها قد عادت لتوضع على بطنه، حاولت ألا أنتبه للأمر، إلا أنه بقي عالقا في ذهني وأتعبني، والرجل الوحيد الذي قد يجيبني عن سؤالي، هو الآن جثة هامدة بين يدي. وأقنعت نفسي أخيرا أن الأمر ليس بتلك الأهمية، وأنه لا علاقة للبطن بكل الذي حصل.

ولففته في الكفن على سنة الله ورسوله، وطويته كطي السجل للكتاب، وانصرفت عنه مع صاحبي، وضرب الباب خلفي، وبقي وحده، والنواح يملأ المكان.

لكن الذي أثارني هو أنني في لحظة الدفن، وحين وضعناه في القبر، وبداعي المعرفة، تلمست ذراعه، فوجدتها فوق بطنه. لم أثر انتباه أحد، لم أخبر أحدا، وتراجعت إلى جانب الفقهاء أرتل آيات من الكتاب: "لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد..."

الجن العاهق.

الكثير من الدروس و التجارب في الحياة تمر أمامك و فوقك و تحتك، و بعضها يخترقك، و كل منها يترك في نفسك بصمته، لكنك لا تتنبه إلى مصيرك بخوف و ترقب إلا عندما يمر الموت من أمام عينيك، و ربما تحس بأنه قد أخطأك هذه المرة.

مهما كان "الحاج" رجلا طاعنا في السن، فإن موته كان فجعية بين أفراد الأسرة، و لو فكر الواحد منا بالمنطق الذي نعيشه، لكان آمن بأن ساعته قد حانت حقا، و أنه قد بلغ من العمر ما يجعل حزننا عليه أقل بكثير مما نراه الآن، ولكن لأن الإنسان مهما آمن بالفناء، فإنه يعيش على فكرة الخلود، و إلا ما كان بكى على ميت أبدا.

إن من الأمور التي جعلت موت "الحاج" يتعظم في أفئدتنا و يغلبنا، هي هذا الموت البطيء الذي عشناه معه لحظة بلحظة، و يوما بيوم، حتى عجز عن الحركة، ثم عجز عن الكلام، ثم عجز عن النظر، ثم غاب.

كانت "حكيمة" هي أكثر من تعرض لهذه الآفات، كانت هي الأقرب إلى أبيها، و هي التي تنفذ معظم طلباته، و تغسل له، و تلبسه ثيابه، و لا تترك له فرصة التحسر على شيء، و هو يردد في شبه صمت مرات كثيرة: "الله لا يخطي علينا البنيات".

كانت "حكيمه" تفعل كل هذا كأنها تساعد على الموت بسلام، و تحميه حتى من نظرات الزائرين المليئة بالعطف و الاستسلام، و أما نظراتها، فكانت تذبل كلما ذبل جسم أبيها و اصفر، كانت ترى الموت و تعانقه و تشم رائحته في كل حين، فما أن خرجت روح أبيها حتى خرجت نفسها من بين أضلاعها، وأصببت بانهايار عصبي، و سقطت مغشيا عليها، و صارت تتمرغ بشكل جنوني، و يداها ممدودتان بشدة إلى فوق رأسها كأنها تريد أن تمتطي شجرة، ورجلاها مستويتان إلى التحت، كنت أنظر إلى أصابعها و قد تكلست كأنها قضبان من حديد، وإلى شفتيها تعتريهما ابتسامة شريرة، ثم تزمهما ويبدو البياض في عينيها، كأنها ليست هي نفسها "حكيمه"، ليست تلك هي طريقته في زم الشفاء، وليست تلك طريقته في قلب الأعين، إنها المرة الأولى التي أرى فيها نوبة صرع بهذا الشكل المخيف.

كان منظر سرير "الحاج" بعد موته يؤلمني عندما ألمحه صدفة، كنت أخاف أن أراه نائما في سريريه في لحظة ما، فيتأكد لي بأنني أصبت بالجنون. وعندما أكون جالسة فأسمع صوت طفلي تمشي بطريقته المتثاقلة، أستغرق وقتا قبل أن أكتشف بأنه ليس هو. غادر الدنيا، لكنه لم يغادر أذهانا. مرت شهور على جنازة "الحاج"، و مازالت "حكيمه" تعاني من تردد نوبات الصرع عليها، و لزمت الفراش، و تدهور حالها، و حملناها إلى الطبيب مرات،

و تناولت الكثير من الأدوية، لكن حالها لا يزداد إلا سوءاً، حتى باغتتنا إحدى الجارات ذات يوم تتكلم واثقة وهي تقول:

- ويلكم، هل أنتم أغبياء؟ إن الطبيب لن يفهم في مرضها شيئاً، فهذا ليس مرض الطبيب، أنتم لم تدركوا هذا بعد؟ (أجابتها أم "حكيمه" متطلعة إلى الخبر الجميل)

- و ماذا نفعل؟ لقد قمنا بكل شيء، و هل هناك مرض لا يفهم فيه الطبيب؟
- نعم، الطبيب يفهم فقط في المرض العضوي، و الطبيب النفسي يفهم في المرض النفسي، لكنهما معا لا يفهمان في المرض الروحي.
- ماذا تقصدين بهذا؟ لم يسبق لي أن سمعت به، و ما أعرفه هو أن المرض الروحي هو كل ما يتعلق بالدين.

- إنها مصابة باللبس؟ (كانت تسر الكلام كأنها تخشى أن يسمعها أحد)
- وكيف عرفت هذا؟
- أنا لست طفلة صغيرة، و مثل هذه الحالات قد مرت من أمامي كثيراً.
- و ما هو الحل إذن؟ (كانت الأم تنتظر الجواب بشغف، و أنا كذلك)
- الحل هو جلب فقيه مختص في الرقية الشرعية، أعرف واحداً متمكناً، ويده كرحة الله.

لم تتردد أمها في قبول اقتراحها، بل لقد اقتنعت به بشكل سريع و صارت تتحدث عن الطبيب كأنه لا يفهم شيئاً.

إن الفكرة التي كنت أحملها عن الفقيه، هي أنه رجل كبير، بلحية طويلة، وجلابة بيضاء و بلغة (نعال) قديمة و مهترئة و (رزة) متطاولة تشد رأسه الأصلع شداً.

لكن الفقيه الذي أرى أمامي اليوم غير ذلك، إنه شاب أنيق، بلحية خفيفة وقميص و سروال، كان يتسم ببراءة و يسأل باحتشام، و كانت في كل مرة تجيبه الواحدة منا فتكمل لها الأخرى الكلام، كأن فهمنا لها مشترك بيننا، أو كأننا لم نفهم الحالة بعد لكي نجد لها الأوصاف المناسبة، لأنك لا يمكن أن تصف بدقة شيئاً أنت لا تفهمه.

سأل الرجل "حكيمه" بعض الأسئلة التي تتعلق بأمور نفسية عميقة، فصارت تتذكر أشياء كانت لا ترى لها أهمية حتى تحكى، لكنه رآها فعلاً مهمة، قالت: "كنت أنظر في المرأة كثيراً، حتى وجدني أعشقها و أنجذب إليها دون وعي مني، كأن يدا تدفعني إلى النظر فيها، و أقوم بحركات، و ربما أرقص أو أبتسم أو حتى أبكي، كنت أتفحص ملامحي فتعجبني، و ربما مرات، لا أستطيع ترك المرأة، و عندما أقوم أحس كأني خرجت من داخلها بصعوبة، و لا أخفيك أنني ذات يوم رأيت فيها وجهها لا أعرفه، كان ذلك في الليل، و كان الضوء خافتاً،

و ذات يوم، و بينما أنا غارقة في نفسي داخل المرأة، أحسست بأن يدا ضربتني لعنقي، فانتبهت فجأة كأني أفقت من غفو خفيف، و سحبت كفي على مكان الصفعة، و درت يمين و شمالا فلم أجد في المكان غيري، كنت أظن بأن أحدا يهازحني، لكن لا أحد كان هناك، كنت وحدي.

و لأن الأمر فوق طاقة تفكيرتي، و لأني عجزت عن فك شفرته أمام الخوف الذي انتابني، لم يكن مني إلا أن نسيت و أيقنت بعدم جدواه.

لكن بعد أيام، بدأ يحصل لي أمر غريب، بحيث أكون جالسة في بيتي، فأسمع خلف الجدار أصواتا كأنها لأرجل مكبلة بسلاسل من حديد تمر من هنا، فأفتح النافذة و أطل عليها، فلا أجد لها، و يختفي الصوت فجأة، و لا يعود إلا بعد أن أقفل النافذة.

كان يحصل هذا حتى و أنا بين أهلي، و ذات مرة سألت أمي و هي بجانبني هل تسمع ما أسمع، فأجابت بالنفي، فتيقنت بأني أنا وحدي من يسمع ذلك، كأنه موجه لي لغرض ما أنا لا أعرفه.

كان أكثر شيء يزعجني، هو الخوف الذي صار يعشش في فؤادي كلما سمعت صوتا لا أرى مصدره، حتى إن كان حقيقيا، فصارت كل الأصوات عندي تشكل إزعاجا و مصدرا للهلوع، و صرت أفزع كثيرا و لو لحدث بسيط، كأن فزعت مرة عندما باغتتني أمي قائلة: "أقفل باب البيت"، فصرخت من هول

الصوت الذي كان خافتا و سمعته مفزعا، فتعجبت مني أُمي و أردفت: "لقد تغيرت يا بنيتي، و صرت تفزعين بلا سبب".

و لم تعد إلى مخيلتي هذه الأحداث طويلا منذ سنوات مضت، حتى مرض والدي، و بدأت أفكر كثيرا، و اغتالني الهموم، و ذات يوم، و بينما كنت جالسة في بيتي المظلم، أحسست فجأة أني في الشارع، و صرت أرى الناس والسيارات و هم يمرون من أمامي، كنت كأني في حلم، لكنني كنت مستيقظة، و لم أنتبه إلا عندما فتحت أختي باب البيت و كلمتني، كنت كأني رجعت إلى نفسي بعد انقسام، كان إحساسا مؤلما.

و أما أحداث النوم، فهي كثيرة، و أعجز حتى عن تذكرها، لأنها لا تدهمني إلا عندما أبالي بها، كأن ما أخافه، يأتييني."

كانت "حكيمة" تنظر إليه و قد بدت عليها علامات الرهبة و الخوف، استوت جالسة و أخذت تكلمه، ثم عندما بدا بأنه فهم الموضوع، أزاح محفظته جانبا و أمرها بالجلوس على الفراش الموجود في الأرض أمامه، و شدها من يدها اليمنى ثم بدأ يقرأ بعض السور و الآيات المتقطعة بطريقة سريعة، و ينظر إليها كأنه ينتظر رد فعلها، كانت في الأول تبدو كأنها نائمة، ثم بعد لحظات، بدأت تتململ يمينا و شمالا و تصدر صوتا كالأنين، ثم تتمنع و تحاول تخليص يدها

من قبضته، لكنه كان يعرف كل شيء، و كان لا يبالي بها، كان فقط يمسك يدها جيداً ثم يقرأ، يقرأ، يقرأ...

كان تارة يضع كفه على رأسها و تارة يضغط على جسمها لكي تهدأ، لكنها بدأت تصدر صوتاً كطفل صغير، لم يكن صوتها الذي أعرف، بدأ الهلع يدب في نفسي فتراجعت قليلاً، لأنني كنت أنظر إلى ملامحها و هي تتحول، فصارت كأنها وحش صغير يتكلم، و صرخ الطفل، صرخ، لكنه أذعن أخيراً للإحاح الفقيه، و بدأ يتكلم.

- السلام عليكم.

- ماذا تريد مني؟

- رد السلام أولاً.

- لا أرد السلام، أنا لست مسلماً.

- السلام لله مهما كانت عقيدتك.

ثم بدأت تتمنع و تتحرك و تحاول إفلات يدها من قبضته، لكنه ضغط على جسدها بقوة و بدأ بقراءة آيات من القرآن بسرعة ضاغطة على حروفه بشدة، صار الطفل الصغير يصرخ، يصرخ مردداً: (حاضر، حاضر، حاضر)، فقال له الراقى:

- السلام عليكم.

- و عليكم السلام. (أردف الراقي)
- و رحمة الله و بركاته.
- لم يقل الصغير شيئاً، فضغط الراقي على جسمها و هدده أن يقرأ، فصرخ الصغير: (لا، لا، لا)، فأردف الراقي:
- و رحمة الله و بركاته. (فقال مستسلماً)
- و رحمة الله و بركاته.
- من أنت؟ ما اسمك؟ (حاول التملص من الجواب لكن الراقي هدده، فأجاب)
- اسمي "قزح" (كان صوته كطفل صغير خائف)
- "قزح"؟ هذا اسم القوس الذي يتشكل في السماء بانكسار ضوء الشمس خلال هطول الأمطار.
- ولكن أُمي سمّني "قزح".
- و ماذا تفعل في هذه النفس و هذا الجسد؟
- هذه نفسي، و لا يمكن أن أفارقها.
- ولكنك تؤذيها؟ لماذا تؤذيها؟
- إنها حزنت كثيراً، و أرهقتني كثيراً.
- و بم آذتك؟

- إنها كانت ترش الملح في البيت.
 - كانت ترشها لمصلحة وليس لك.
 - ولكنها تؤذيني، لن أؤذيها ثانية.
 - ستخرج منها بإذن الله حسيرو بلا شرط.
 - لن أخرج، أنا هنا منذ سنين، هذه حبييتي.
- حاولت أن تتلمل، ثم تحركت ذات اليمين و ذات الشمال، و انقلبت على بطنها، لكن الراقي كان يملك القوة الكافية لقلبها على ظهرها، ثم ضغط عليها بركبته اليمنى و هي تقول كلاما بلغة غير عربية، لم أستطع تمييزها، ثم بدأ يقرأ الآيات بسرعة و حدة:
- (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.
- " وَجَعَلُوا اللَّهَ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ" (الأنعام).
- " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ" (الأنعام)

"وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِّنَ الْإِنْسِ ۚ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ" (الأنعام)

ثم انتفضت و حاولت التخلص منه، لكنه لم يترك لها المجال، و الصغير يردد:

- ماذا تريد؟ ماذا تريد؟ سأقتلك.
- إن الملك إلا الله الواحد القهار، اخرج أيها اللعين، اخرج أيها اللعين.
- لن أخرج، هذه نفسي.
- إن لم تخرج سأحرقك، سأشعل فيك النار،(ثم بدأ يقرأ الآيات: "بسم الله الرحمن الرحيم" قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ۚ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۚ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَا تَعْلَمُونَ"، ثم انتفضت و صرخ الصغير):
- سأخرج، سأخرج، سأخرج. (كان الراقي يهدده)
- اخرج الآن، و إلا أحرقتك.
- اتركني فقط لحظات، ثم أخرج.
- كم تريد؟
- دقائق فقط.

- أنا أنتظرك، ستخرج، ستخرج وإلا سأحرقك.
- عم الصمت، واستلقت "حكيمة" على ظهرها، وأرخت أطرافها بعدما كانت متشنجة، وبدأت علامات الألم على وجهها، بينما كان الراقي يشدها من يدها اليمنى، وبعد لحظات، فتحت عينيها وبدأت تنظر إلينا مستغربة، وتنظر يميناً وشمالاً، فسألها الراقي:
- هل أنت بخير؟ كيف تشعرين الآن؟ (كانت تخرج الحروف ببطء، لكن بصوتها الحقيقي هذه المرة، قالت)
- بخير، بخير...
- أسندها الراقي حتى استوت جالسة، ثم بدت على وجهها علامات الألم، كانت تبدو متعبة، وضعت يدها على ظهرها وهي تتألم، سألتها أمها:
- هل أنت بخير الآن؟
- أحس بأن كل جسمي يؤلمني، كأنني كنت أحمل الأثقال. (فبادرها الراقي بالقول)
- هل كنت ترين في منامك أحلاماً جنسية؟ (خجلت ثم أجابت مطرقة: نعم، لكنه أضاف) وهل كنت ترين قريباً منك ينام معك؟ تكلمي بدون خجل.
- نعم، نعم، شيء مقرف أن أرى أبي زوجاً لي.
- هذا يسمى الجن العاشق.

- كيف ذلك؟ هل يعشقني؟
- نعم، إنه من أخبث أنواع الجن، إنه يتغذى على أحزانك و مأسيك، ففي الكثير من الحالات تجدين نفسك ميالة إلى الحزن، أو تلجين غرفتك ثم تتذكرين حدثا أو شخصا أو حتى حلما فتجهشين بالبكاء، بل إنه يحاول أن يبعدك دائما عن الرجال، و ربما يطلقك من زوجك أو خطيبك إن اقتضى الأمر. (تبادلت حكيمة نظرة خاطفة مع أمها التي أردفت)
- هل تريد أن تقول بأنه يتزوجها ويمنع عنها الزواج؟
- نعم، و ربما يمنع عنها حتى العمل، و قد يكون سببا في خراب أسرتها و الكثير من العلاقات التي لا يرغب فيها هو. (نظرت إليه حكيمة و آثار التعذيب تبدو على محياها الحزين، ثم سألت)
- و ما العمل؟ هل خرج مني الآن؟
- نعم لقد خرج، و أنت الآن بخير، فما عليك سوى الحفاظ على صلواتك و أذكارك، و إياك و الخوف، فإن الذي نخافه يقتحمنا بسهولة و يأتي إلينا من حيث لا ندري، و اعلمي أن الإنسان ليس وحده في هذه الأرض، هناك مخلوقات أخرى تتقاسمه المكان و الزمان و الأفراح و الأحزان و حتى الأديان، فلا تتعامل مع الحياة كأنك وحدك، حتى إن كنت ترى بأنك وحدك، ربما هناك أعين تراك من حيث لا تدري، فلا تتح لها فرصة النظر إلى ما تحرص أنت على

إخفائه على الآخرين، و لكي تعيني نفسك على الصبر، سأعطيك قنينة من الماء المرقى و بعض البخور تستعملينها خلال مدة شهر، و بعدها أعود لكي أرى ما آلت إليه حالتك الصحية و النفسية، أما أنا، فإني أعدك بأنك ستكونين بخير، و ربما تفتح لك أبواب كنت ترينها مستحيلة.

كنت أتساءل كيف يعشق الجن؟ كيف يحس؟ كيف يحب؟ و هل له قلب حتى يحب؟

ثم حمل محفظته و هم بالخروج، كانت علامات الانفراج قد بدت واضحة على محيا الأم التي قامت و اصطحبته إلى الباب، و ودعته ثم عادت كأنها تحمل رسالة إلينا و قالت مشيرة إلى ابنتها: "ربما هذا هو السبب في طلاقك، و ربما يجمع الله الشمل بعد الفراق".

و رغم أن "حكيمة" كانت قد صدقت كل الذي حصل، إلا أنها لم تبد رضى على كلام أمها عن جمع الشمل.

هكذا هو الإنسان، لا تجده يبحث عن حل حقيقي، ثم يؤمن به و يتبعه، ولكنك تجده يبحث عن شائعة يعلق عليها إخفاقات الحاضر و الماضي، و ربما المستقبل.

أصوات عالية.

عندما أعود من العمل في وقت متأخر من الليل، أجد البنات نائمات، فأصحيهن للعشاء، أما اليوم، فقد حضرت لمن أختهن الكبرى العشاء قبل الخلود إلى النوم، الأواني لازالت مرمية هناك في المطبخ، بلا غسل ولا ترتيب، ومن منهن تدري بأنني أغسل وأرتب مثل تلك الأواني عشرات المرات في اليوم؟ أهكذا أهون عليهن ولا تنتبه الواحدة منهن لمدى ما أعانيه من شقاء طول النهار؟

لقد مللت من هذا العمل، إن أقل العمال حظا مثلي، هم هؤلاء الذين يقومون بأكثر الأعمال نذالة، وهي أقربها إلى دور الحمير، بأن يجروا العربة وهم لا يعلمون حتى ماذا يوجد بداخلها، وأكثر الناس حظا هم الذين يقومون بالعمل الذي يحبونه، حتى إن كان هو عمل الحمار نفسه.

لا بأس، لا بأس، ليست هذه ساعة التفكير، ولو قدر لي أن أعطي رأيي في ساعات اليوم، لقدرت أن التفكير يأتي في الصباح، والتدبر في المساء والاستمتاع بالليل.

كان ضوء شاشة التلفاز يتراقص كلما ألقى عليهم نظرة من بعيد، و صراخ منشط معروف في القناة التاسعة، وضحك كثير و تصفيق.

لم تكن لدي رغبة في إلقاء نظرة عليه، لقد مللت من مثل هذه البرامج التي تملأ الشاشات، يسخرون من المشاهد، ويسمون ما يفعلون مسابقات و تنشيطا. ذهبت لكي أغسل أطرافي، كان صوت الصنبور يصدر صوتا يقلق الجيران، و كلما حاولت أن أنقص من صبيب الماء ازداد الصوت المزعج، فوجدت نفسي بين أمرين اثنين، أن أزيد في الصبيب فأزعجهم بصوت الماء، أو أنقص من الصبيب فأزعجهم بصوت الصنبور، فكان الاختيار الصحيح، هو ألا افتح الماء، و أكتفي بما غسلت.

بينما كنت أمسح أطرافي، ازداد صوت التلفاز فجأة حتى أفزعني، ظننت في الأول أن إحدى البنات فعلت ذلك، لكنني عرفت بعدها أنه صوت أغنية شعبية لإشهار مسحوق لقتل الصراصير، و عرفت أن صوت الإشهار في الحالة العادية أعلى من أصوات البرامج الأخرى.

يقال بأن التكرار يعلم الحمار، أنا كذلك تعلمت هذا لكثرة معاشرتي لشاشة التلفاز، و تعلمت أشياء أخرى لا أستطيع أن أبوح بها حتى لنفسي، ربما لأنني لازلت أستحيي من نفسي فقط، نعم، فالواحد منا دائما يستحيي ممن لا يعرفه، و أنا كما أحس، لا أعرف نفسي، و هي كذلك لا تعرفني، هكذا أحفظ الاستحياء منها على الأقل، و لا أفجر إلا في غيابها.

حملت هاتفي، اكتشفت أنني لم أرد على مكالمة زوجي، نظرت إلى الوقت، عرفت بأنه اتصل بي حين كنت في العمل، كان صوت عشاق كرة القدم أقوى من صوت هاتفي.

لا بأس، سأحضر نفسي لبعض التقريع و اللوم و السب و الشتم، ففي مثل هذه الحالات، يبلغ الشك أوجه.

أخذت جهاز التحكم في التلفاز ثم استلقيت في فراشي، كان المنشط المعروف يلقي خطبة الوداع و يلوح بيديه قائلاً:

- "أعزائي المشاهدين..."

انتظرونا في الحلقة القادمة مع ضيوف آخرين، ضيوف تحبونهم و يحبونكم، و أنا كذلك أحبكم أحبكم أحبكم...و حتى ذلك اليوم، إلى اللقاء."

كانت طريقته في الوداع مستهلكة، وكانت أكثر المفردات التي يختارها مستقاة من قاموس الحب، أما أنا، فكنت أعرف بأن الضيوف لا يحبونني و لا أحبهم، و أعرف أنه هو كذلك لا يحبني و لا أحبه، فكيف تحب من لا تعرفه و لا يعرفك؟ و أعرف أن هذا ينطبق على كل الناس، فالحب لا يأتي من الجلوس قبالة الشاشة خلال برنامج ساخر، و لا يأتي من تعليق جميل في فيس بوك أو ضغط على زر العشق و الدهشة و الإعجاب، ففي العالم الأزرق، كل الناس شاعر و كلهم كاتب و كلهم مبدع، و كلهم فنان، و أما الحب، فهو شيء آخر.

ثم وصلة إشهارية، لبنك اسمه : "بنك السعادة"، ترى من خلالها الكثير من الناس يدخلون إلى هذه المؤسسة البنكية، فتندفق النقود في جيوبهم، وكلهم يضحكون وبيتهجون، ثم يطلع عليك رجل فلاح بدوي بوجه شاحب و هو يقول: "أنا أودع أموالي في بنك السعادة، و لذلك أنا سعيد"، ثم يبتسم، فيبدو فمه بلا أسنان.

و يطلع عليك موظف في إدارة، بوجه نقي و لباس مرتب و هو يقول: "أنا أودع أموالي في بنك السعادة، و لذلك أنا سعيد"، ثم يقوم من كرسيه، فتبدو صورة الشيخ الطاعن ذي الظهر المنحني و الشعر المشتعل شيئا متكئا على عصاه.

ثم تندلع في الأخير أغنية شبابية، فترى الفلاح البدوي و هو يرقص ملوحا بفأسه، و ترى الموظف و هو يرقص ملوحا بعكازه.

جميل أن يفتن الأبنك إلى العلاقة الموجودة بين المال و السعادة، وهكذا يضمنون تهافت الناس عليهم، فالكثير منا يلهثون وراء الأسماء والمظاهر فقط.

ثم وصلات إشهارية أخرى، تتوزع بين الفكاهة و الغناء و اللعب، كأ أن الشعب ضاحك، يغني و يلعب، لا شيء يخصنا غيره، صدق الذي قال :
 "ماذا يخصك أيها العريان؟ قال : يخصني خاتم يا مولاي."

ثم بدأت الموسيقى التصويرية لشريط مدبلج، كانت الأغنية فارسية عاطفية مؤثرة وجميلة، في آخرها كتب رقم الحلقة، السادسة والخمسون بعد الأربعمائة، أصابني هذا الرقم بالدهشة، حتى إن كنت من المتابعين لهذا المسلسل.

كم هو جميل أن أشاهد أحداثه المتشابكة في هذا الصمت الليلي المطبق، "سلمان" متزوج "بفريدة"، تلك المتكبرة الغيورة، دائما يحصل هذا، يحصل أن قلب الرجل يميل للتي لا تستحق على حساب من تستحق، إني أكرهها، وأسأل دائما كيف ترك بنت عمه الجميلة والمتواضعة والطيبة، والتي كانت ستضمن له حياة أكثر توازنا وسعادة، وذهب ليتزوج بتلك الشريرة الحقودة التي تكره أهل زوجها، ولا تعرف حتى كيف تعامله بلطف، إنها تؤنبه، إنها توبخه، إنها تقول له كلاما لا أطيقه:

- "سلمان"، إن كنت حقا تحبني، فما عليك سوى أن تحضر لي المبلغ الذي قلت لك، أريد أن أسافر إلى "باريس" في الشهر المقبل.
- حبيتي.

- لا تقل هذه الكلمة ثانية، الحب ليس كلاما.

نعم أيتها الشريرة، الحب نقود، الحب أموال و سفر و تسوق، و ليس فيه إحساس أو شعور، لكنه لازال يحاول أن يكسب ودها :

- "فريدة"، أرجوك أعطني فقط بعض الوقت، سأحضر لك المبلغ، حتى إن كنت أرى بأنه مبلغ كبير و لا أطيعه.
- لكن الحب لا يعترف بالمسافات و لا المبالغ يا "سلمان"، لا يعترف حتى بالمثل القائل "ما تراه العين صح"، الحب لا يرى بالعين، ولكن يرى بالقلب، و قد يرى صحيحا ما يبدو للعالم غير صحيح.
- لا أحب هذا الاختلاف الموجود بين كلام الترجمة و بين ما تقوله شفاههم، حتى طريقة انفعالهم الحقيقية تبدو لي أقوى و أكثر إقناعا مما نسمع، لكن لا يهم، ها هو "سلمان" يتصل بأحد أصدقائه، أريد أن أعرف ماذا سيقول له:
- ألو.
- نعم "بلال"، كيف الحال؟
- بخير، ما بك "سلمان"؟ أرى أن رنة صوتك لا تنبئ بالخير.
- كانت "فريدة" حينها تسترق النظر إليه، إلا أني أرى أن "المخرج" قد تعجل الحوار، بحيث جعل "بلالا" يعرف بسرعة هدف "سلمان"، لا يهم، سنرى ماذا سيقول له :
- "بلال" إني محتاج لقدرة من المال، لكنني لم أجد أحدا غيرك أخبره بهذا.
- أخبرني "سلمان"، ما بك؟ لابد أن الأمر يعني تلك الأفعى القاتلة زوجتك، لا تدعن كثيرا لطلباتها، سوف ترهقك، و تثقل عليك.

لقد أعجبني ما قاله "بلال"، و أتمنى ألا يقرضه مالا، كانت حينها "فريدة" تعرف أن كلاما يدور عنها، و كان "سلمان" يحاول أن يخفي الأمر بملاحه الهادئة، بحيث قال مستنكرا:

- لا، لا صديقي، سنلتقي و أقول لك، المهم أن تقف بجنبي و تساعدني.
- أنا معك صديقي، نلتقي متى تريد.
- لم يعجبني موقف "بلال"، لقد تراجع، و لم يعجبني تأجيل "سلمان" للحديث إلى موعد اللقاء، سيتعاطف معه، و يعطيه الأموال، و سوف تستولي عليها "فريدة" و تسافر لكي تشتتها هباء، ليتني أجد طريقة لإخبار "سلمان" بنواياها السيئة، أو ليتني أملك طريقة لتغيير مجرى الأحداث.
- ماذا قال لك "بلال"؟ هل سيوفر لك المبلغ؟
- سوف نلتقي ثم أخبره بكل شيء.
- كان عليك أن تخبره في الهاتف، ما الذي منعك من هذا؟
- علي أن أكون معه لكي أقنعه، قد يتخلص مني بنصف كلمة، لكنني لا أريد ذلك.

نعم، أنا أعرف بأنك تريد أن تشكو إليه ظلم هذه الأفعى السامة، تريده أن يتعاطف معك ليخلصك من نكدها و طلباتها التي لا تنتهي.

و جاء الصباح، و التقى "سلمان" و "بلال"، كانا يتحدثان بعيدا عن الموضوع، بينما تجلس "فريدة" شاردة قبالة التلفاز، و فجأة، رن هاتفها، يا إلهي، هل وفر لها المبلغ؟ كان اسم المتصل واضحا: "أختي نور" أجابت:

- أهلا بك "نور"، كيف حالك؟ (كان صوت "نور" مرتعشا)
- "فريدة"، أنا بخير، لكن أبي، أبي (اضطربت "فريدة" ثم صاحت):
- ما به؟ أخبريني "نور"؟
- لقد تعرض لحادث سير. (كاد الهاتف يسقط من يدها)
- و أين هو الآن؟ تكلمي؟
- نحن في مستشفى المدينة.
- حاضر، أنا قادمة. (خرجت مسرعة من البيت)
- أما "بلال" فهو يقول "لسلمان":
- سأعطيك المبلغ حالا، لكن اعلم أني سأحتاجه في الشهر القادم.
- لا عليك صديقي، سأوفره في الوقت المناسب.
- كانت "فريدة" تبكي على رأس أبيها الذي لا يتكلم، فرن هاتفها، كان اسم زوجها "سلمان" واضحا، يا إلهي، سأعتبره غيبا إن تسرع في إخبارها
- بتوصله بالمبلغ:
- ألو، "سلمان"، أين أنت؟

- نعم حبيتي، لقد... (قاطعته باكية)
 - أبي في المستشفى، لقد تعرض لحادثة سير، أهكذا تتركني و تغيب دون أن تسأل؟ (ظهرت البشاشة على وجهه، كأنه فرح للخبر، ثم ابتسم و حدث نفسه قائلاً:)
 - غبي أنا، هل يفرح الإنسان لمصائب الآخرين؟ (فحاول أن يخفي الابتسامة لكنها تعود من تلقاء نفسها، ثم حدث نفسه قائلاً و محاولاً الاقتناع بكلامه:)
 - لكنني لا أبتسم من أجل أبيها في المستشفى، أنا أبتسم لأن في جيبني مبلغاً من المال لا أستطيع إرجاعه لصاحبه، و كثرة الهموم تضحك. (فانفجر ضاحكاً، كان "بلال" ينظر إليه متعجباً، فسلم عليه "سلمان" و شكره على المبلغ ثم ذهب فرحاً، حينها كانت الدموع تجري سيلاً على خدود "فريدة"، و كان أبوها غائبا عن الوعي).
- دخل "سلمان" إلى المستشفى، اقترب من الغرفة حيث توجد زوجته و أبوها، تخفى قرب سارية كبيرة، و حاول أن يطرد الابتسامة، لكن عبثاً يحاول، فحدث نفسه متسائلاً: "و هل هناك إنسان يطرد الابتسامة؟"، ثم تدارك كأن أحداً يحدثه: "ولكن هل هذا وقت الضحك؟"، فعبس و كشر و زم شفثيه و تقدم كأنه ذاهب ليحارب ابتسامة قد تندلع من محياه في أية لحظة فتثير غضب زوجته التي ما تنفك تتحسر و تنوح و تن.

ارتفع صوت التلفاز فجأة حتى أفرعني، إنه الإشهار كالعادة، كانت بناتي نائمات، لكنني انتبهت لهن فوجدت أن "سكينة" صاحبة، كانت تشاهد معي أحداث المسلسل، إنها مولعة به هي الأخرى، و تتابع أحداثه بشغف كبير منذ شهور.

تبادلنا النظرات، فابتسمت قليلا، و ابتسمت أنا كذلك، ثم سألتها بصوت منخفض:

- منذ متى أنت صاحبة؟
- منذ سمعت صوت الصنبور. (ثم عانقتها و قبلتها في خدها و سألتها بعطف حتى إن كنت أعرف الجواب)
- من أحب الناس إلى قلبك حبيبي؟ (سألتني بدلال)
- هل تريدان الحقيقة؟ (أجبتها بغمزة أن نعم لأنني أظن أعرف الجواب)
- أحب "سلمان" كثيرا، إنه مظلوم دائما من الآخرين. (فأجاني الجواب حتى سقط الهاتف من يدي، حاولت ألا أبدي لها ذلك، ثم سايرتها لكي لا تعرف)
- و من أكثر من تكرهينه؟ (أجابت بعنف)
- أكره زوجته "فريدة"، إنها تعتدي عليه و تظلمه. (وافقتها الرأي ثم سألتها مبتسمة)

- هذا فقط؟ ألا تحبين شخصا آخر في حياتك؟ (نظرت إلي في شبه حيرة ثم أكدت)
- في الحقيقة لا أحب شخصا غيره.
- وأنا كذلك حبيبي، أحب "سلمان" و أكره "فريدة" في هذا المسلسل، و قد يتغير رأيي بتغير أدوارهما في مسلسل آخر.
- نامي يا بنيتي. (فقال بنبرة جادة): لا يا أمي، إني أحب سلمان حتى إن كان في مسلسل آخر، إني أحبه.

شهادة حياة.

إننا لا نجتمع على مائدة الطعام إلا قليلا، فلكل واحد منا مشاغله، و لكل واحد منا مشاكله... ما أغرب أن تشتاق إلى ابنك و هو يعيش معك في نفس البيت، فما أن تراه حتى تتمنى أن تعانقه، لكنك لا تعانقه، لأننا هكذا نتعامل مع الأشياء القريبة منا و المتاحة لنا في أي وقت، لا ندرك قيمتها إلا بعدما نصدم باستحالة وصولنا إليها.

شيء ما غير صحيح في تركيبة الإنسان العاطفية، و شيء ما صحيح في عقله، لكنه يمنعه من تقويم نفسه، كأنه يجبره على الخطئ عمدا، لكي يجبره الإحساس بالندم.

لذلك فكرت أن أتحدى نفسي و أقبل بناقي واحدة واحدة، ربما تكون هذه المرة الأخيرة التي نجتمع فيها، فأندم لماذا لم أفعل ما كان بإمكانني أن أفعله. عانقت ابنتي "سكينة"، وضممتها إلى صدري، أحبها أكثر من غيرها، شيء ما في نفسي يخبرني بذلك، لكني لم أشعر بطاقة منها تزودني و تشفي غليلي، لقد أحسست بتمنع صغير منها، صغير كمثّل جسمها النحيف، ربما أحست بأنها بدأت تكبر.

عندما تكون صغيراً، يبدي أبواك عطفاً عليك، و أنت تتجاهلها كأنك ترفض هذا العطف، لكني أقول لك فقط انتظر، سيأتي يوم تكتشف فيه بأنك كنت ترتكب خطأ كبيراً في حياتك.

عندما تكبر، ستكتشف أنك مهما فعلت، و مهما أرضيت والديك، فأنت لم توفيهما حقهما، و ستندم عندما تدرك بأن الحياة قد ضحكت عليك أنت كذلك.

كانت وجبة فطورنا فقيرة كالعادة، شاي و خبز و زيت، لم يكن لدينا حق الاختيار أو التخلي عن أكلة من أجل أخرى، كنا راضين بهذا، و لا نريد غيره، ولكن، ليتنا كنا، فقط، سعداء.

أما أنا، فقد خرجت من البيت باتجاه "المقاطعة الحضرية"، و ذلك من أجل الحصول على الأوراق التي طلبت مني صديقتي، لتقديمها للعمل في ضيعة "الحاج احمد": (صورتان شمسيّتان، و نسخة مطابقة لبطاقة التعريف)، و أتذكر مبتسمة مقولة كانت ترددها على مسمعي في كل حين: (إياك أن تعتقدي بأنها مجرد ضيعة، إنها أكبر من ذلك بكثير)، كانت تحاول أن تقنعني، ريثما أقف على الحقيقة بنفسي.

كان مكتوباً في أعلى البوابة بالخط العريض: (تصحيح الإمضاءات)، الكثير من المكاتب المصفوفة، و الموظفون هنا كأنهم خشب مسندة، كل واحد

منهم منهمك في ملا أوراقه و وضع الطابع عليها و إمضائها بطريقة روتينية، و ربما أكثر ما يمكنه أن يحدثك به، هو أن يضع الورقة أمامك و يمد إليك القلم و يضع أصبعه في مكان ما لكي تمضي، ثم يسحبها من بين يديك دون أن يكلمك، فأنت حينها أحسست بالانتشاء، لأنك أمضيت ورقة لولا إمضاؤك لما كانت صحيحة، و هو يحس بالانتشاء، لأنه، ببساطة، أخذ منك إمضاء لا يمكن أن تعطيه لأي إنسان، فالإمضاء شهادة ثقة و وفاء.

كان الموظف الذي أمامي يخطف إلي نظرات استطلاع من فوق نظاراته المهترئة و هي موضوعة على أرنبه أنفه، ربما هو الآن يتساءل من أنا، كان يخلق في عيني كأنه يستنطقهما.

لكن بطاقتي الوطنية بين يديه، و فيها صورتي بدون حجاب، و اسمي و أسماء أبوي و مكان سكناي، فهل يريد أن يعرف شيئاً آخر؟

ااه، لعله عرف بشأني، أو لعله يشك في مثل ذلك، إنه لازال ينظر إلي بنفس الطريقة، لكنني لم أبتسم، و لم أفتح له باب إشباع الفضول بملاحي أو بنظراتي، كان قد نشب حينها جدال بين موظف و مواطن سئم من كثرة الأوراق التي تتطلبها الإدارة، إذ تساءل المواطن في وجه الموظف مستنكراً:

- كيف يطلبون مني أن أدلي بشهادة الحياة، بينما كنت معهم؟ ألا يثقون في أعينهم؟

- في الإدارة، أنت لست جسداً، أنت يا سيدي ورقة، أنت مجموعة من المعلومات، أنت مستند يدل عليك، على حقيقتك، لا يمكنك أن تحضر في كل مرة لكي تدلي بنفسك، ولكنك تملؤها هنا مرة واحدة و نصحبها، فتأخذ طريقها في الإدارات، و لا تنس بأن هذه المصلحة هي الأهم، لأن الورقة التي تأخذ من هنا، تبني عليها كل الأوراق اللاحقة، و لذلك ففي الإدارة، يبدأ الإصلاح من التحت، و ليس من أعلى السلم، فلا تحتقر هذه المصلحة، لأنها الأصل، هي المدخل.

قام الموظف من مكانه و سلمني نسخة مصححة عن البطاقة الوطنية، فما أن هممت بالانصراف حتى لمحت عيني الملعون الذي يتصيد بي في المقهى، لقد التقت نظرانا و افترقت بسرعة كأننا ندمنا للحظة من زمن، لكنني لم أندم، ماذا يفعل هذا الرجل في هذا المكان؟

أه، إنه موظف هو كذلك.

لكنني أراه موظفاً في المقهى و ليس في الإدارة، إنه يمضي جل وقته في اصطيد الأخبار و توزيعها على الجالسين، و الغريب في الأمر أنه ينال أجرا على هذا الوقت، و ربما على ذلك العمل.

أعرف بأنه سيأتي إلى المقهى هذا المساء، و سيحكي عني الكثير من الحكايات، و ربما الآن، هو يسأل صديقه الموظف عن وثيقتي و عن كل المعلومات التي

يتذكرها بشأني، و أما صديقه، فهو ينظر إليه باستغراب مستنكرا: هل تريد أن تعرف كل شيء؟ كل شيء؟

ثم ينصحه بهدوء: لا أحد يعرف كل شيء.

و في مساء ذلك اليوم، صاحبتي صديقتي المقهورة إلى ضيعة "الحاج احمد"، وهي تبعد عن مدينتنا ببعض الكيلومترات، لقد مررت من أمامها كثيرا، و كنت أطيل النظر بداخلها كثيرا، لكنني لم أستطع يوما اكتشاف و لو القليل من أسرارها، فأسوارها عالية، و الأشجار المحيطة بها سامقة، و الحراس واقفون في الأبواب كأنهم متأهبون لطارئ، لكنها سحبتني إلى الباب الموجود خلف الضيعة، حيث يوجد مكتب الضبط، و حيث دفعت طلبي، و سألوني كثيرا عن حالتي النفسية و المادية و الأسرية، و تأكدوا كذلك من شهادة "حسن الخلق" التي تسلمتها من مركز الدرك، و التي تعني بأنني امرأة بدون سوابق، و ربما يوما ما سيطلبون من المواطن أن يأتيهم بالشهادة بأنه عاقل، هذا أمر ليس بالبعيد.

لا أنكر أني اكتشفت نفسي من جديد عندما شهدوا لي بذلك، كنت أظن بأن كل من يعرف حالتي سيجزم بفساد أخلاقي، و يكتبون في ذيل الشهادة: أخلاقها تقريبا حسنة.

لكن ذلك الرجل كان متعاطفا معي عندما حكيت له الحقيقة التي أعيشها بدون زيف، فإنك عندما تجد من يفهمك، تطمئن، لقد كنت مترددة كثيرا قبل أن أخبره، فالآخرون، لا يتعاملون مع حالتي بنفس الشكل، كأنني أنا نفسي أتبدل.

حتى إن كان مظهر هذا الرجل قبيحا، مما جعلني أتوجس منه خيفة بادئ الأمر، لكنني عندما حدثته، اكتشفت كم كنت مخطئة بشأن الكثير ممن مروا في حياتي و حكمت على مظاهرهم.

كان الحسن يتخفى وراء ذلك المظهر القبيح، كانت كلماته تنبع من القلب، كنت أحس ذلك.

و بعد قبول ملفي كخادمة في "ضيعة الحاج احمد"، كان موظف الضبط يحدثني كأنه يوصيني، كأنه يحرص على استمرارتي في العمل هنا، فهذه التي نسميها ضيعة، هي في الحقيقة قصر، و فيه متحف و أعمال مختلفة و متعددة، ولكل عمله هنا، لكن "الحاج احمد" رحمه الله، كان حريصا على تسميتها بالضيعة.

مشارك...

لا تتسرع في الحكم على شيء أو على إنسان أو على فعل...
لا تتسرع في اتخاذ موقف من مشهد أو حركة أو تصرف...
لا تتسرع في الفرحه بشيء أو الغضب من شيء أو التطير من شيء...
و لكن اعلم، أنك مهما تباطأت، و مهما فكرت، و مهما تريثت،
ستكتشف أخيرا بأن الحياة قاسية، نعم قاسية، و أنها قد ضحكت عليك، و أنك
لم تعرف ذلك إلا متأخرا، و ستندم كثيرا، أنك لم تتسرع في الحكم عليها، و أنك
لم تتسرع في اتخاذ موقف منها.
كل ظواهر الطبيعة، قد لا تزيد الحياة إلا متعة و جمالا، و أما القسوة،
فهي مرادف للإنسان.

تعال أقول لك شيئا، لقد كنت مخطئا، كنت أتعامل مع الآخرين على
حد سواء، كأني أنا ثابت الأحاسيس لا أبتدل، في موقف صحيح لا يأتيه
الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و كأنهم هم دائما نفس الشخص المثالي
الذي يعرف كيف يتكلم، و يعرف كيف يعامل الناس.

لقد كنت مخطئاً عندما جهلت بأن هناك أناسا طيبين، لكنهم فقط، لا يعرفون كيف يتحدثون إليك فتغضب منهم، أو كيف ينقلون إليك خبرا فتبتعد عنهم.

كان علي أن أفهم ذلك.

خلال تأليني لهذه الرواية، كنت دائما أبحث عن لفظ لوصف هؤلاء الحثالة الذين يملؤون الزوايا و الطرقات، فلا كلامهم يشبه كلام الناس و لا فعلهم يشبه فعل الناس، و لا هم يشبهون الناس، و كنت في كل مرة أجد لهم في قاموسي العربي وصفا بذيئا تكاد لا ترضاه لإنسان، فأكتشف بعدها أن هذا الوصف، رغم قبحه و بذاءته، يتميز بما تمنحه له اللغة من ضبط و قصدية وتحديد، فأدعه جانبا ريثما أجد الوصف الذي يقنعني.

و ذات ليلة، رأيتني في المنام جالسا برفقة الكاتب المغربي "الطاهر بنجلون"، الذي لم يكتب لي أن أجالسه في اليقظة، كنت أتبجح أمامه بأن أحكي له عن شخوص رواياته و هو في كل مرة يكمل لي المعاني بطريقة ساخرة، كأنه يكتب لكي يتهمك من المجتمع، هكذا كان يريدني أن أعرف حقيقته في الحلم.

تكلمنا عن "طفل الرمال"، و عن "ليلة القدر"، و عن "صلاة الغائب"، كنت أحاول أن أسبقه للحديث عن كل رواية لكي أثبت له

اهتمامي، لكنه كان لا يبالي كثيرا بما أحاوله، كنت أحكي له عن الرجل الذي حرم من ولادة الذكور، فصار يتعامل مع ابنته كطفل، و يلبسها لباس الطفل، وأخفى أنوثتها عن العالم و عنها هي نفسها، ولم تنتفض إلا عندما مات.

فدار "الطاهر بنجلون" عني بوجهه كأنه يريد أن يجد لهذا الرجل وصفا، وعبس كأنه غير راض على فعل الرجل، حتى إن كان هو من كتب الشخص و الأحداث، ثم قال واصفا إياه: "بوكلوة".

قمت من نومي فرحا، فقد وجدت الوصف الذي كنت أبحث عنه، لكنني سأحتفظ به لنفسي، و لن أكتبه في روايتي لأنه ذميم و ساقط، فقد نطق "بنجلون" الكاف قافا.

كان هذا الحدث حقيقيا.

نعم، أتذكر هذا الرجل جيدا، إنه رجل متشرد، يفترش أوراق علب الكرتون و ينام أمام المسجد، حتى إن كان الجو بردا و شتاء، كان مصابا بمرض في فخذه التي انتفخت بشكل مخيف، و صار يعريها لكي يجلب عطف الآخرين، ثم يدعو مع المارين بالدعاء الذي يتمناه الجميع: "الله لا يخطيكم صحة".

كنت في الغالب ألقاه في طريقي من البيت إلى العمل، أمر قرب المسجد لأنني أظن أن التحرش و السرقة أبعد ما تكون عن الأمانة المقدسة، كنت أجهل على

حد قول جارتي بأن الفساد يأتي من داخل بعض الأماكن المقدسة و ليس من خارجها، فربما المتحرشون يختبئون خلف بعض الركعات داخل المسجد.

إني أتذكر يوم أعطته ابنتي "سكينة" درهما صدقة، كانت فرحة ومسرورة بما فعلت، كانت واثقة بأن الله سوف يقبل دعاءها، لقد قالت لي بأنها تصدقت عليه لكي ينال أبوها أخف العقاب، كانت هي الأخرى تدرك بأن القاتل لا ينال البراءة، كنا قد تركناه خلفنا و هو واثق من قبول دعواته كأنه يفرق صكوك الغفران: "الله يعينكم، الله يعطيكم الصحة"، فعدت إليه ابنتي فقالت له: "قل، الله يطلق سراحو"، فصار يرددها كأنه يغنيها، و ابنتي "سكينة" في قمة الانشءاء.

لا أنكر أن طريقة البقال الموجود في حينا في التحرش، كانت تروق لي، كان يجتهد كثيرا في ابتكار طرق مثيرة و عجيبة، حتى صرت أتوقع منه في كل مرة حركة جديدة، لا أشك بأنه كان يفعل هذا مع معظم النساء، لكنه كان لا يتصرف بغباء كما هؤلاء الشباب المتهورين الذين قد لا تجد لتحرشهم معنى.

ذات يوم، رمى درهما في طريقي، فلما اقتربت منه فعل كأنه وجده، ثم قال لي متعجبا: "يا لك من امرأة مباركة !!! لقد وجدت درهما"، كانت الابتسامة قد اندلعت في شفتي من تلقاء نفسها، فقلت له متملصة: "خذها إنها

من نصيبك، بالصحة و الراحة"، لكنه أوقفني بطريقة جميلة قائلا: "لا، لقد وجدناها نحن الاثنان و علينا أن نتقاسمها نحن الاثنان"، و أصر علي حتى أخذت حقي منها، و انصرفت و أنا أضحك.

ربما كان الأطفال الصغار يعرفون بأنه يفعل هذه الطريقة كثيرا، فما أن أطلت من الشارع مرة أخرى حتى رماها، فجاء طفل صغير فسرقتها و هرب، كان منظرا مثيرا للضحك.

لم يتبع الطفل، لأني كنت قادمة، و كان عليه أن يكلمني، لكنه غير أسلوبه هذه المرة، فلما اقتربت منه، قال متأوها: "آه...أولاد الحرام لم يتركوا لأولاد الحلال درهما".



أشغل هذه الأيام في ضيعة "الحاج احمد"، الموجودة قرب مدينتنا، إنها تقع على آلاف الأمتار المربعة.

قالت لي إحدى العاملات، و هي امرأة طاعنة في السن، بأن "الحاج احمد" رحمه الله، من المقاومين الذين أخرجوا الاستعمار الفرنسي و أنه من الأشخاص الذين وقعوا على وثيقة الاستقلال.

عندما كنت أسمع كلامها، كنت أظن بأن "الحاج احمد" رحمه الله، من الأعداء الأبديين لفرنسا، لأنها كانت تنهب خيرات بلاده، و أنه كان يقاومها

بالسلاح، لكنني كنت أتفاجأ في كل يوم بمعلومة جديدة، كأن أعرف بأن "الحاج احمد" رحمه الله عاش معظم أيامه الأخيرة بفرنسا، أو أعرف بأن كل أبنائه نشأوا و ترعرعوا و درسوا في فرنسا، و أنهم يتكلمون الفرنسية في يومياتهم، و لا يعرفون من العربية إلا أسماء ممتلكاتهم و أراضيهم.

بالمناسبة، يحكي خدم الضيعة حكاية عجيبة، يقولون بأن صاحب الكوخ القديم الموجود على هامش ضيعة "الحاج احمد" و هو شيخ طاعن في السن، هو صاحب الضيعة الحقيقي، و صاحب هذه الأراضي كلها و اسمه "عضروط"، و قد ورثها أبا عن جد، لكن لا أحد يعرف كيف انتقلت ملكية كل تلك الأراضي من "عضروط" إلى "الحاج احمد"، و عندما سألت أحدهم عن اسمه، قال لي إنه لقب، لأن "العضروط" في العربية، هو من يشتغل بعرق جبينه، و لا يوفر غيره، ففهمت بأنه لقب غير جميل، و أنه شتمة له، و أنه يرضى به، بل و يعجبه، لقد سلم له الأرض، فماذا يضره في الاسم؟

سمعت كذلك، بأن "الحاج احمد" رحمه الله، كانت له يد طويلة في الدولة، و قد علم بأن ذلك المكان، كان قديما بمثابة تجمع سكني برتغالي أيام الغزو الإيبيري للمغرب، و أنه يقع تماما على الخط الروماني الذي كان يرسمه الإسبان و البرتغال على بعد عشرين كيلومترا من المحيط الأطلسي من أجل إيقاف هجمات القبائل على المدن المستعمرة في الساحل المغربي، و بعد رحيل

هذه التجمعات، كانوا يتركون خلفهم الكثير من المعادن النفيسة المدفونة تحت الأرض، خصوصا عندما يرحلون مرغمين لظروف معينة، فاستولى "الحاج احمد" عليه بمباركة المسؤولين الذين ساعدوه لأنه مقاوم، ثم أخذ يستخرج كنوزه شيئا فشيئا، وكانت سببا في اغتيائه، وأما "عسروط" فهو يشغل عنده، يأكل ويشرب والحمد لله، فهو راض على ما آل إليه، فإن حدثته في هذا الأمر، فهو يكتفي بالقول مطمئنا: "إن الملك إلا الله".

رحم الله "الحاج احمد".

كان يعجبني كثيرا درس الموسيقى الذي يلقيه الأستاذ لحفيدة "الحاج احمد"، كنت أقوم ببعض أعمال التنظيف قريبا منهما، فأتباطأ لكي أسترى السمع إلى الدرس كاملا، لم أكن أعرف بأن الموسيقى فن راق كما يفسره الأستاذ.

كانت الصغيرة تجلس كملك أمام آلة "البيانو" اللامعة والجميلة، كنت أحاول مرات، خلال التنظيف، وفي غيبتهم، ملازمة تلك الحروف لأستمع إلى النغمات المنبعثة منها، إلا أن الصوت كان يصدر مرتفعا، وقد يسمعي ويكتشف أنني أعزف فيعاقبني.

كان الأستاذ، ذو اللحية الطويلة والشعر المبثر، يردد على مسمعي كثيرا مقولة: "الموسيقى فن جميل يتكون بالأساس من ثلاثة عناصر، الصوت

والإيقاع و اللحن، كل هذا في سلم موسيقى يتكون من خمس خطوط و أربع فصح، تمثله في الكتابة سبعة أحرف معروفة، دو - ري - مي - فا - صول - لا - سي"، ثم يتجلى ليفسر لها الصوت قائلا: "و الصوت لا يمكنه أن يخرج عن أربعة: ألتو و سوبرانو و باس و تينور، و أما الإيقاعات فهي كثيرة، منها السريعة و فيها البطيئة، بحيث تجد الإيقاع الثنائي و الثلاثي و الرباعي وغيرها".

أما حديثه عن الألحان فهو طويل و جميل، بحيث يضع أمامها المقامات الموسيقية و يبدأ بتفسيرها واحدا واحدا.

ثم يمر إلى حصة التطبيق التي أكون بانتظارها على أحر من الجمر، ويعزف الأستاذ بتمكن و براعة، و تعزف الصغيرة كذلك معزوفات من الموسيقى العالمية لبعض الأسماء التي كان يرددتها كثيرا (موتسارت، بهوفن، باخ)...

لم أتردد في البحث عن هذه المقطوعات و الاستمتاع بها، خصوصا عندما كنت أسمعه يتحدث معها بإسهاب عن دور الموسيقى في تهذيب النفوس.

إنني كنت أقف منبهرة أمام بعض المعلومات التي كان يقولها الأستاذ للصغيرة، فقد قال لها أن "موتسارت" بدأ بالعزف في سن الرابعة، و بدأ في

التأليف الموسيقي في سن الخامسة، بينما لازالت ابنتي تعتبر نفسها طفلة و هي في سن العشرين.

و من النصوص التي لازلت أحفظها عن ظهر قلب منذ أيام الدراسة، لأن أستاذ العربية كان يفرض علينا حفظها، نص عن (أثر الغناء في النفس) "للأبشيهي" صاحب كتاب "المستطرف في كل فن مستظرف"، و هو نص معروف بين أوساط الطلبة آنذاك: "زعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجري في الجسم مجرى الدم في العروق، فيصفو له الدم و تنمو له النفس و يرتاح له القلب و تهتز له الجوارح و تخف له الحركات، و لهذا كرهوا للطفل أن ينام على إثر البكاء حتى يرقص و يطرب."

كنت أريد أن أعزز بهذا النص كلام الأستاذ مرات، لأن كل ما كان يقوله، يصب في هذا المعنى، لكنني لا أملك الحق في ذلك، قد يكون الثمن غاليا، فأصمت، و أستمع.

أكره الوحدة، لأنها تذكرني بالموت، و لأني أحس خلالها بأني أصارع الرغبة في التخلص من حزني العميق، و أنا أدري بأنه جزء مني، و أنه الضامن لتوازي النفسي.

أكره الإحساس بأني أحتاج إلى غيري، و لو في أمر بسيط، فيعاملني كأنه هو من أنعم علي بنعمة الأوكسجين.

أكره ثلاثة أيام قبل العيد، و الناس يتزاحمون بدون شفقة من أجل اقتناء بعض الألبسة الجديدة، فيسمونها (لباس العيد).

أكره الطفل الصغير، ابن أختي، يفسد علينا كل جلساتنا العائلية، وقد يدعي بأن الصورة المعلقة في الحائط قد ضربته، فتقوم أمه إرضاء له، فتضرب الحائط بالعصا أو بفردة حذاء.

أحب حياة اللمة و التجمع الأسري، حتى إن كانت "حكيمة" أخت زوجي في الغالب ترشقني بنظرات كراهية و استهزاء، أو تتعمد إيدائي بكلمات هي تعرف أنني لا أطيق سماعها.

أحب مساعدة الآخرين، لأنني هكذا خلقت، لا أطيق أن أرى شيخا تائها عن باب بيته، بينما أنا أعرفه، و قد أشير بسبابتي إلى الباب ليقصده، و قد أسحبه من يده إن خانه النظر، و قد أحمله على ظهري إن دعا الأمر إلى ذلك.

لا أفهم لماذا يضحك بعض الناس، خلال عشاء الجنائز.

لا أفهم لماذا عندما تلتقي بأحدهم في الشارع يسألك : "هل أتيت؟" و هو يراك أمامه، هل يتوقع أن تقول له : "لا، لم آت بعد".

لا أفهم لماذا يمشي الرجالون وسط الشارع الكبير المخصص
 للسيارات، وحين يفزعهم صوت المنبه، يلقون وينزعجون ويتخاصمون.
 لا أفهم لماذا الرجل، عندما يسأله أحدهم عن مولوده "هل هو
 ذكر؟" فيجيب: "لا، إنها فقط أنثى".
 نعم، كل هذا الذي قلت، رأيته وسمعتة في يوم واحد.

لو كانت علاقتنا رواية.

كانت ابنتها الكبرى "البوشتاوية" تضع الهاتف على أذنها و تتكلم، كانت تجلس على كرسي في المطبخ و تراقب بخار الماء المنطلق من فم المغلاة الموضوعة على الفرن، كان خيط الدخان الأبيض قد بدأ يلامس سقف البيت، و قطرات من الندى تشكلت بفعل السخونة في الحائط المجاور، حتى بدت المغلاة كأنها معلقة في خيط سميك من الدخان الأبيض، كان المنظر يبدو رهيبا بعد كل ثانية تمضي، و هي تنظر إليه لكنها لا تراه، و فجأة، قفزت من مكانها كأنها بالكاد أدركت هول تأخرها عن الإدراك، فقامت، و جرت خطوتين سريعتين فأطفأت نار الفرن، و خف الدخان المتصاعد من فم المغلاة، و عادت فجلست على الكرسي و هي تتكلم في الهاتف كأنها تحدث نفسها:

- أريد أن أعرف فقط، لو كانت علاقتنا رواية، كيف ستكون نهايتها؟
- (صمت)
- ماذا؟ الفراق؟
- (صمت)
- و لماذا لا تقول بأن نهايتها هي القتل؟ (ضحكت)
- (صمت)
- ليست كل نهاية في الروايات حزينة، و من قال؟ ربما تنتهي بالفرح؟

- (صمت)
- طبعاً، معك حق، أنا مجنونة.
- (صمت)
- نعم، لطالما سمعت بأن الحب جنون، و سمعت بأن الحب هو الحياة، و سمعت بأن الحب مر مذاقه، و سمعت بأن الحب معاناة، و سمعت بأن للحب لذة و متعة، فما بت أدري، هل الحب هو واحدة من هذه الصفات، أم أنه كل هذه الصفات مرة واحدة؟
- (صمت طويل تتخلله ابتسامة ثم ضحكة)
- لا أريد أن تحبني حب الإنسان، و لكن أتمنى أن تحبني حب الذئب.
- (صمت ثم ضحك و اندهاش)
- لأن الذئب و في لزوجته، و لا يتزوج بعد وفاتها، بل يعيش وحيداً حتى الموت. سمعت أزيز الباب و صوت الخطوات، فأقفلت الخط، لم تكن سوى أختها الصغرى "سكينة". فتحت قفل الهاتف، و دخلت إلى صفحة فيس بوك الزرقاء، فاختارت صورة لفتاة تقرأ كتاباً في غرفة مظلمة، و النور ينبعث من صفحات الكتاب منعكساً على وجهها، ثم كتبت في المنشور: "إذا كانت حياتك رواية، فكيف ترى أنت نهايتها؟".
- ثم نشرتها، و ضغطت على زر الإعجاب.

بعد لحظات، بدأت مئات الإعجابات تتسارع و تتوالى، و عشرات التعاليق في ظرف وجيز، كانت لا تعير هذا كبير اهتمام، لكنها تصفحت المنشورات الأخرى، فأثار انتباهها منشور تحت عنوان : "دليل القراء"، كانت صورته عبارة عن كتب مصفوفة في رفوف مكتبة، كانت الإعجابات به قليلة جداً، و التعاليق شبه منعدمة، و فوّه منشور لمقطع غنائي و رقص، كان عدد المشاهدات فيه مهولاً.

جحظت عيناها، كادت لا تصدق، ثم عادت إلى منشورها، كان عدد التعاليق يزداد، فتحت الأول، فقرأت تعليق صاحب الحساب المسمى "العاشق المجنون": "الثقافة و المخالفة، نحب لي يغلطوا... النهاية جنون" ضغطت على زر الإعجاب، ثم نظرت إلى التعليق التالي من صاحبة الحساب المسمى "حبيبة كمال"، كتبت: "بنية و ولد مع حبيبي كمال". ضغطت على زر الإعجاب، ثم قرأت في التعليق التالي من صاحب الحساب المسمى "مهدي مريول"، كتب : "نكونوا أحباب و جواد، يلا فاتونا الحساد."

ضغطت على زر الإعجاب، و فجأة ظهر لها شريط إشهاري مكتوب عليه: "كيف تحصلين على أئداء مثيرة"، ضغطت على الشريط فظهرت صور أئداء مثيرة لنساء عاريات، و معها إشهار لمنتوج دهني مكتوب عليه الثمن.

أقفلت الصفحة و هي تردد : "لم نجد حتى ما نأكله، فكيف أشتري متوجا بهذا الثمن؟ و كانت حينها تتلمس أثداءها.

الأشرطة الإعلانية كانت كثيرة أعلى الصورة، بإمكانك أن تسحب بصمتك فوقها يمينا أو شمالا لكي تحذفها، الأول في أعلى الترتيب، كان مقطع فيديو من اليوتوب بعنوان : "تفاقم الوضع الصحي للمغاربة على إثر تكاثر الأمراض النفسية".

أثار هذا العنوان انتباهها، فلم تتأخر في الضغط على رابط الصفحة، كان الأمر متعلقا ببرنامج تلفزيوني، كان وزير الصحة يعلن قائلا : "يؤسفنا أن نعلن، بأنه وفقا للإحصائيات و الاستطلاعات الأخيرة، و التي أجريت على معظم الشرائح، نصف المغاربة يعانون من اضطرابات نفسية."

كانت هذه المعلومة كافية لفهم مغزى المقطع بأكمله، هل بقي كلام آخر أكثر من نصف المغاربة؟

نحن أربعة في هذه الغرفة، اثنان من بيننا أصحاب، و الآخران مضطربان، لكنني أرى بأني لست صحيحة.

أنا أشك في نفسي إذن؟

ابتسمت، ثم خرجت من الصفحة، وفتحت صفحة "فيسبوك"، كان المنشور الأول قد ظهر لها لفتاة تضع صورتها وهي ترقص، بينما تغطي وجهها بصورة قلب صغير أحمر، وتكتب في المنشور:

"لا تحاول تصحيح أخطائي،

كل أخطائي صحيحة.

أنا Dija-love..."

كان عدد الإعجابات والتعليق مرتفعاً، ضغطت هي الأخرى على زر الإعجاب، ترددت، حذفته، ثم عادت وأثبتته، وبدأت تتصفح المنشورات التالية.

ظهر المنشور التالي، وفيه رسائل منمقة في شكل قلوب مختلفة

الأشكال والألوان، وسطه مكتوب بلون وردي:

"غدا عيد الحب.

لمن ستهديه بالمناسبة؟"

ضغطت على زر الإعجاب ثم دخلت للتعليق، قرأت: "عيد سعيد

لحببي الغالي (نعمان)، أتمنى أن تدوم محبتنا إلى ما بعد الموت."

أثار انتباهها أول رد على هذا التعليق من صاحب الحساب المسمى:

"أنس ولد ميمتو"، كتب: "الحلم جميل مع (نعمان)، قبل أن يقطف الرمان."

ثم وضع في آخر الرد إشارة ضحكة مستهزئة.

التعليق التالي من صاحبة الحساب المسمى (أميرة بحجاي)، كتبت :
 "حب إلى مالا نهاية، إليك حبيبي (أمين)".

نظرت إلى الرد الأول عليه، فقرأت : "هذا حب من زمن الرياضيات،
 الرقم واحد وخلفه الكثير من الأصفار"، وضع خلفه ضحكة ممتلئة.

لم تتوان "البوشتاوية" في كتابة تعليقها هي الأخرى: "لا أحد يستحق
 أن تهديه حبك وقلبك، إلا والديك"، ثم وضعت إشارة حزن.

لم تستغرق كثيرا من الوقت حتى وجدت ردا على تعليقها مكتوب
 فيه: "رأي البخلاء، لأن العبرة بالنهاية".

ضغطت على زر الإعجاب، ثم ردت عليه إذ كتبت: "حياتنا رواية،
 وليست كل النهايات سعيدة"، ثم وضعت إشارة حزن.

صعدت في صفحة المنشورات، فأثارها واحد لشاب كتب فيه:
 "كلمي الوفي (جاك) قد مات، أرجو كل من زار هذا المنشور أن يدعو
 له بالرحمة والمغفرة".

ابتسمت ابتسامة عريضة، ضغطت على زر الإعجاب الضاحك، ثم
 دخلت إلى التعليقات، قرأت التعليق الأول: "اللهم اغفر له و ارحمه و عافه
 واعف عنه" ثم إشارة ضحكة ممتلئة.

التعليق التالي مكتوب فيه: "اللهم ارحم (جاك) و احشره مع الصالحين".

التعليق التالي مكتوب فيه : "هل مات شهيدا للوطن؟ أم أنه مات على إثر سكتة قلبية؟ إشارة ضحك.

التعليق التالي: "فاتحة، و دعاء بالرحمة و الغفران لكل كلاب هذا الوطن، من نبج علينا، و من نبج على أعدائنا، و من عضنا، و من عض أعداءنا، فرحمة الله وسعت كل شيء." إشارة حزن.

التعليق التالي : "في وطننا ترحم الكلاب حية و ميتة".

كانت تقرأ التعليقات مبتسمة، حتى رن هاتفها، أجابت:

- أجبني بصراحة.
- (صمت)...
- لو كانت علاقتنا رواية، ماذا ستكون نهايتها؟

غرائب المرأة.

عندما تلج باب البيت الذي أسكن فيه، تتفاجأ و أنت تلمح بطرف عينك خيالا يعبر بجانبك، فتفزع، و يدق قلبك دقات، ثم تنتبه حولك، فتكتشف المرأة الملتصقة في الحائط قرب الباب الخارجي، ثم تهدأ رويدا، و تتمنى لو تعود إليها لكي ترى صورتك واقفا، إنها امرأة مغرية، تمتد على طول قامتك إن كنت متوسطا.

وعندما تعود، ستنتبه جيدا، ستقف قبالتها و تنظر إلى نفسك، ستعجبك المرأة لأنها حسنت صورتك و ظهرت فيها أجمل مما كنت تتوقع، و ستسأل هل أنت حقا بالجمال الذي يظهر لك، ثم ترى كيف يواقي السروال حذاءك، وكيف يلائم لون المعطف لون وجهك، ثم تنظر إلى تسريحة شعرك، فتعجبك، تعجبك كثيرا، إلا بعض الشعيرات الطائشة هناك، ستقوم بتسريحها بلمسة من كفك، ثم تنظر إلى عينيك، ثم تبسم، ثم تبسم بطريقة أخرى، فأنت تحاول أن تجد الصورة التي تبدو بها أجمل، و الابتسامة التي تبدو بها أكثر وسامة، و الوقفة التي تبدو بها أفضل، ثم ترمش بعينيك مرات، ثم تغضب، ثم تضحك، ثم تتوسل، ثم تنتبه، فتقول : يا إلهي، ماذا أنا أفعل ؟ لقد فارقت نفسي، وأحسست بأني غادرت الحياة، و سكنت هناك، داخل المرأة.

إني بهذا، لا أحكي ما قد يحصل لك، ولكنني حكيت ما حصل لي مرات، إن الذي صنع المرأة، انتقم منك ومني، بحيث جعلك ترى نفسك اثنين، و جعلني أبحث عني حيث لا متى و لا أين، و لك أن تتخيل كم من الناس أفزعته هذه المرأة الموجودة في باب بيتنا، و كم من الناس عدلوا حقيقتهم فيها، أما أنا، فقد اعتدت عليها، و أدركت على مهل بأن هناك فرقا كبيرا بيني و بين صورتني فيها، فأنا، أنا أكثر من مجرد صورة متحركة جميلة أو قبيحة، أنا إحساس.

و صرت أستعملها بدل نصف الزجاجة الموجودة في غرفتي، لأنها تعكس كامل جسدي، فأنت لست وجهها حسنا و شعرا مصففا فقط، ولكنك كذلك قد قديد و قوام عتيد.

كانت ابنتي "البوشتاوية" تقف بجنبي حين بدأت أنظر إلى شكلي في تلك المرأة، ثم بدأت أتلوى و أشد ثيابي شدا من كل الجهات لكي أرى ككل النساء هل لدي قوام يعجب الرجال.

نعم، كل الرجال يفضلون المرأة المتوسطة، ذات الصدر الكبير و المؤخرة البارزة، فعندما أمر بالقرب منهم، ألمحهم بطرف عيني و هم ينظرون خلفي، فكل النساء تعرف ذلك، لكنني لا أبتلع مثلهن حبوب الشهية لكي

تنتفخ أطرافي بفعل الأكل و النوم، كفاني ما أنا فيه، بعد و رغبة و اشتياق،
وزوج هناك في غيابات السجن.

تبادلنا النظرات، أنا و ابنتي "البوشتاوية"، ثم ابتسمنا في نفس اللحظة،
لقد فهمت ما فهمته أنا، فضحكنا، و مشينا إلى الغرفة و هي تقول:

- هل تذكرين تلك الليلة المشؤومة؟
- طبعاً أذكرها جيداً، إلى حد هذه الساعة لم أستسغ الذي حصل.
- ولكنني حكيت لك، ألا تثقين بي؟
- أثق بك، فأنت ابنتي، حتى إن كان مفهوم الثقة فيه نظر.
- كانت ليلة صيفية هادئة، حين نام الجميع و بقيت وحدي، حاولت أن أنام،
أغمضت عيني، لكنني لم أستطع، رميت الفراش كي تداعب بعض النسيمات
أضلاعي فأنام، لكنني لم أستطع، كان الجو حراً، حينها قمت من فراشي
و غسلت أطرافي بالماء البارد حتى أطرّد الحر، لكنني حينها كنت قد طردت
النوم، و لم يزدني هذا سوى أرقاً.

راودتني كل الأفكار، و كل الهموم، و استرجعت الكثير من الأحداث
التي كانت غائبة عني، و التي لا يمكنني أن أتذكرها إلا في هذه الحال، الأرق و
الليل و الجميع نائمون، و تذكرت الكثير من الأشخاص، حتى أيقنت بأن
النوم مخصصي، ففرغت من فراشي و استويت جالسة، ثم قمت من مكاني

وذهبت إلى الغرفة المجاورة لكي أسلي نفسي بشيء أفعله لعل النوم يأتي، لكن النوم لم يأت.

فتحت الدرج، وبدأت أقلب الثياب القديمة، يا إلهي، لدي الكثير من الملابس التي بذلت مالا و جهدا من أجل شرائها، لكنني لا أرتديها، فإذا ارتديتها سألتني أمي لماذا ترتدينها؟ فنحن لا نلبس الثياب الجميلة إلا في المناسبات والأعراس، ثم إن أباك في السجن، عليك أن تحزني.

و ستسألني عمتي "حكيمة" لماذا ترتدينها؟ سوف يراك الناس و يعلم أبوك بالأمر و ينزعج.

و عندما أخرج إلى الشارع ستسألني كل اللواتي ألاقينهن في طريقي : لماذا ترتدينها؟ لا بد أنك تعشقين رجلا و تحاولين استمالته و إثارة حبه لك بهذه الملابس الجديدة.

و قد يسألني الجار و الخضار و الجزار و النجار و كل من يعرفني، لماذا ترتدينها؟ هناك أمر ما تخفيه عنا، فليس من عادة الفقراء أن يلبسوا رداء جميلا حتى إن كانوا يملكون منه الكثير.

و سيبدأ الجميع بمراقبتي عن كثب، يمدون أنوفهم لاتباع رائحتي، وسوف يتتبعون خطواتي و نظراتي و يحللون كل حركاتي، حتى التي لا أنتبه

إليها أنا، و سوف أجد نفسي مرغمة على تفسير كل خطوة أخطوها و كل إشارة و كل بسمه و كل نظرة.

هذه الثياب لا نشترىها إلا لكي ننظر إليها و نزين بها الأدراج، ونبجح بإخراجها أمام الجيران، ثم نعيدها إلى مكانها.

ما فائدة الثياب إن لم تلبس؟ إن لم تكن غطاء و زينة في كل الأوقات؟ هل نشترىها لكي نزين بها أنفسنا؟ أم لنزين بها الرفوف؟

هكذا كنت أحدث نفسي و أنا أستخرجها و أبسطها أمامي، الثياب نشترىها لكي نلبسها فتزيد من قيمتنا، و لا نشترىها لكي نخبئها و نزيد من قيمتها، و ذلك لأن قيمتها في استعمالها.

و هذا نفسه يحصل لنا مع الأواني التي نقنتيها بأثمان مرتفعة، لكننا نخترن أجودها و أجملها، و لا نضعها و نخرجها إلا حين يرتادنا ضيف عزيز، فما أن يغادرنا حتى نلمعها و نعيدها إلى مكانها. إننا نحن الأجدر بأن نتناول فيها طعامنا.

كل معاملاتنا و سلوكياتنا يغيب فيها العقل، في البيت و في الشارع و في كل مكان، حتى بت أجزم أن معظم الناس مجانين، و كما قال الأولون: (الحمقى تسع وتسعون نوعا، لا نعرف منها إلا الذي يرمي الناس بالحجر).

وما الذي جعلني أفكر في هذه الأمور في هذا الليل البهيم؟ لا شك أن الليل أصابني بجنونه أنا الأخرى، فصرت أحدث نفسي بكلام لا قيمة له.

ولماذا لا ألبس هذا السروال؟ إنه جميل.

سأرتدي ذلك المعطف ذي اللون البنفسجي، وذلك الحذاء ذي القدم العالي، وسوف أنتقم من علبة المكياج.

واو!!! إن جسمي يبدو جميلا، وقوامي يبدو ممشوقا.

انظري، هذه أردافي تبهر الناظرين.

لم يبق لي سوى الركوب في سيارة فارهة و الذهاب إلى مطعم راق رفقة شاب وسيم لا يتكلم إلا بمقدار، و أتقدم بين الزبناء كمثّل أميرة مدللة، و الجميع ينظر إلي، لكنني لا أنظر إلى أحد، و يد الأمير تشد يدي و رأسي مرفوع إلى السماء، فأجلس في طاولة محجوزة لشلة من الأمراء، و كل من حولنا ينظرون إلينا منبهرين، نعم، أنا أريدهم أن ينبهروا، و أريدهم أن ينظروا إلينا، و كؤوس حمراء تدور بيننا فنقبلها مستمتعين، و نادلوا المطعم يتهافتون على خدمتنا ونحن لا نبالي، فنبدو كأننا نبوح بلا كلام، و نضحك بلا صوت، كأن حديثنا أنغام.

- آه نعم، تعال أنت، أو أنت، أو الآخر، أو تعالوا كلكم، أريد أن أحكم في دولة النوادل، أعطوني كل شيء، أعطوني لا شيء، أعطوني هذا الشيء، لا لا لا، انصرفوا عني، لا أريد أي شيء، لكنني لن أرحمكم، عليكم أن تفهموا رغباتي

دون كلام، أن تستنبطوا أحلامي من الأحلام، عليكم أن تقنعوني في البداية و الختام، فهل أطمئن و أنا؟

آه... لقد نسيت، لقد جئت إلى هنا لفقداني نوما بلا حلم، فها أنا ذا أجد حلما بلا نوم.

سأخرج لكي أرى كم أنا جميلة.

سأخرج إلى المرأة الموجودة في الباب الخارجي.

فما أن وقفت قبالتها منبهة أمام نفسي، حتى نزلت عمتي "حكيمة" من

أعلى و هي تمشي على أطراف أصابع رجلها، تخاطبني بصوتها الرخيم:

- إلى أين أنت ذاهبة أيتها الفاسقة؟ (كان سؤالها صادما، فتلعثمت قائلة)

- لست ذاهبة إلى أي مكان !!!

- هل كنت تظنين بأنني لن أكتشف حقيقتك؟ ها قد ضبطتك متلبسة الآن.

- ماذا تقولين؟ لقد أصابني الأرق، ولم أجد شيئا أفعله، (قاطعتني)

- الأرق؟ هل تظنين أنني غبية مثلك؟ الأرق يتبعه نوم و ليس زينة و لباس،

تغافليننا في منتصف الليل ثم تخرجين للسهر مع الشبان الطائشين؟ انظري

كيف تلبسين ثيابك هذه.

و اجتمع كل من في الدار، و صاروا يلقون علي نظرات التهكم و التعجب

والاستهزاء، كأنني قرد يتفرجون عليه، كانت أعينهم شبه مغمضة و وجوههم

منكمشة من النعاس، لم تسكت "حكيمة"، لقد صارت تهدد و تتوعد بأنها
ستخبر أبي بهذا الأمر، وأنها لن تسكت على ما يحصل، وأنها، وأنها، وأنها...
كان حلما مزعجا...

كان كابوسا...

كان واحدا من غرائب المرأة...

عودة إلى الجذور.

- لا أريد أن أبقى في هذا المكان يا بنيتي، أريد أن أرحل.
 - و إلى أين ترحلين يا أمي؟
 - إلى أي مكان آخر أرتاح فيه، بعيدا عن أعين الناس و ألسنتهم.
 - لكنك هنا في أرضك يا أمي، فكيف تتراحين في أرض أخرى؟
 - إنها ليست أرضي يا بنيتي، ليست أرضي.
 - أليست أرضك حتى إن كان لك فيها أهل و ولد و صحب و ذكريات؟
 - لا، لن تصير أرضي إلا إن كان لي فيها أموات.
- اشتقت إلى ذلك المكان، حيث كنا نسكن قبل الجريمة، قبل أن يتم تهريتنا خوفا من انتقام أسرة القتل، و كنت دائما أقول في نفسي: مهما طال الغياب، فلا بد من الرجوع، لأن المكان الذي نشأت فيه و ترعرعت و أحببته، يصير جزءا منك، تماما كمثل أطرافك، و ترسم له في خيالك صورة مقرونة بالوله والارتياح.
- هذا هو المكان الذي كنت أعيش فيه في البادية، غرف مبنية بالطين الأحمر والياجور و القش، تتخللها بعض أشجار الكلبتوس، و قربها بستان مسيح بأشجار الزيتون، لقد عاثت فيه الحمير فسادا من فرط الإهمال، لم يعد كل شيء كما كان.

كان صوت المحرك الذي يجلب الماء من البئر العميق إلى البستان، لا يتوقف عن الخفقان.

كان خريير الماء و هو يتخلل المجاري و يسقي الخضر و الأشجار، لا يتوقف عن الجريان.

كان نباح الكلاب مؤنسا، و نهيق الحمار مؤنسا، و خوار الأبقار مؤنسا، وصياح الديك مؤنسا، حتى صراخ زوجي و هو يحمل الفأس مبتسما يتسكع في البراري، كان مؤنسا.

ما عاد كل شيء كما كان، كل شيء تغير في هذا المكان.

كنا نصحو باكرا، و نبدأ الحياة باكرا، و نفطر مرتين.

ذبل الربيع، و صارت الأشجار وحيدة، و توقف الزمان هنا، بعدما كان النبض يملأ المكان.

حتى نافذة الغرفة حيث كنت أنام، صارت مهترئة، و صار كل شيء مكشوفاً، أما الباب، فيبدو بأنه مكسور، نعم، لأن قلوبنا كذلك مكسورة، ولأن نفوسنا ما عادت تتحمل الأوجاع.

و هنا، في الغرفة المجاورة، كان زوجي يسامر أصحابه من جيراننا الطامعين في أرضه و ثروته من الخضريات، كانوا يلعبون القمار و يشربون الخمر، لم أكن أبالي بهم بادئ الأمر، كانوا يسهرون و كنت أنام هنيئة، و في

الصباح أقوم لأجد أشلاءهم هنا وهناك، و أرى في وجه زوجي ملامح الندم، لكنه ندم لا تتلوه توبة.

لكنني بدأت أتوجس منهم خيفة، حين سمعت خصامهم ذات ليلة، كانت الخمر قد لعبت بعقولهم حتى ما عادوا يدركون حجم الخطيئة التي يستغرقون فيها طول الليل، كان أحدهم قد ربح كل ما بحوزتهم من مال خلال المقامرة، ثم هم بالانصراف، لكنهم كانوا يمنعونه من الخروج حتى يسترجعون أموالهم، بينما كان يتذرع بأنه ما بقي بحوزتهم مال يقامرون به، فسكت الآخرون و تقبلوا الأمر، لكن زوجي لم يسكت، لم يسكت، ثم قال له : "أنا سأقامر بواحدة من بناتي، خذ منهن من تشاء".

خفق قلبي فزعا حتى كاد يتوقف، تمنيت ألا تنتبه بناتي لهذا الكلام، لكن المقامر أجابه: "و ماذا أفعل ببناتك أنا؟ لا أريد ذلك؟ أريد مالا، فبالمال قد أشتري البنات و البنات و الذكريات".

استمر زوجي في التحدي، و لم يتردد في الإعلان قائلا: "سأقامر بزوجتي، عليك أن تقبل إذن، لا تهني أكثر".

تذكرت هذا الحدث فعاد إلي الفزع كأنه الآن، كان زوجي حينها، يتحدث عن الإهانة، و كنت أتألم منها، و كنت أتساءل: ماذا لو قبل المقامر الرهان؟

خلت البيوت، سكنت الذكريات البائسة، لكن الضجيج بقي في خيالي.
حتى البئر جف ماؤه، و ملأه الأطفال بالأحجار.
لا ثمار في الأشجار أقطفها.
لا أرى سوى الطريق يترنح أمامي لكي أعود من حيث أتيت، ما عاد كل شيء
كما كان، كل شيء تغير في هذا المكان.
اجتاحني الرغبة في البكاء، لكنني لن أبك قبل أن أجد صدرا حنونا أتوسده،
و أشكو إليه همومي و أوجاعي، فالدموع التي لا تبكي لها الأسماك كضربة في
الهواء.

في طريقي، قررت أن أعرج على المقبرة لكي أترحم على أهلي
الأموات، أبي يرقد هناك، وهناك يرقد جدودي.
كنت في المقبرة، كأني في القيامة، هؤلاء الراقدون كأنهم أحياء
ينتظرون البعث من الأحداث، حتى القبور يا نفسي ليست متشابهة، و فيها
الجديدة الناصعة، و فيها القديمة المتأكلة... كان أبي يقول لنا عندما كنا صغارا،
بأن الضبع يستخرج الجثث بعد دفنها و يأكلها، كان هذا يثير الاشمئزاز في
نفسى.

ذهبت لكي أرى القبور التي حفرت في الشهور الأخيرة، ربما مات
أشخاص أعرفهم، حتى القبور، فيها الجميلة و فيها المتسخة، فيها الكبيرة و فيها

الصغيرة، فيها المبنية في مكان فسيح و قربها مساحة متاحة، و فيها المبنية في مكان وعر مكدسة كأنها عنقود عنب.

أثار انتباهي قبر طفل لم يكتب عليه شيء، عرفت بأنه مات رضيعا، لم يكتب تاريخه في الحياة بعد، و بقربه شاهد قبر مكتوب عليه بالخط الواضح: "أيها الواقف على قبري، ادع الله لي"، و هناك، قبر بارز، مكتوب عليه "هذا قبر الشهيد محمد بن علي السهلي"، إنه الرجل الذي قتله زوجي، إحساسي تغير، اجتاحتني الرغبة في البكاء، لقد كان رجلا طيبا.

أثارت كلمة (الشهيد) انتباهي، فهل يشبتون بهذا كفر زوجي؟

قرأت على قبره الفاتحة، و ترحمت عليه، و دعوت له الله بالغفران، وقطفت وردة بيضاء و وضعتها عليه، و رششته بالماء، و فكرت كثيرا في طريقة أمسح بها كلمة شهيد، لأنها أكبر من هذا المقام، الرجل لم يكن حاملا بندقية للدفاع عن الشرف، و ربما أقبل لفظة مغدور.

ثم زرت قبور والداي، و عدت أدراجي، قد يراني أحدهم واقفة على قبره فيلبسني تهمة أنا في غنى عنها، سيقولون: "و ما الذي جعلها تسافر لكي تزور قبره؟ هل كان بينهما شيء؟ ثم يشكون في الأمر"، أو يقولون: "و ما ذنبها في الجريمة؟ هل جاءت لتكفر عنه؟"

سيتساءلون كثيرا، و سوف يجدون أجوبة يقنعون بها أنفسهم
 ويشبعون فضولهم، و ربما ألتقي بإحداهن ساقها حب الاستطلاع في باب
 المقبرة، ثم تسألني قبل السلام : "ما الذي جاء بك إلى هنا؟"
 سأسلم عليها، و أعانقها أولا حتى تحس برعشة ضلوعي في جسمها،
 و أنظر إلى عينيها مليا، ثم أقول لها : "رحم الله أموات المسلمين، مهما غبت،
 ومهما تغربت، فإني في كل مرة أذكر المثوى الأخير، و أحن إلى الجذور".

شيء ما بداخلي،

كان يدفعني إلى هذا المكان...

كان يأكلني،

ينطق بلا كلام،

و يلوح بلا بيان...

شيء ما بداخلي،

توقف الآن..

بياني السعادة.

نعيش الفقر والعوز والهم والوجع، نعيش كل مرادفات الاضطهاد في حياتنا، في يومنا، وفي كل مكان، لازلنا نتألم تارة ونصرخ، لكي نثبت للآخرين بأننا بشر يحس، ربما يعطفون علينا، فتخفق قلوبنا، وبتبسم شفاهنا، وها نحن صرنا كما الآخرين، جسدا يسعى، وروحا تسعد.

ثم تجد خلال تصفحك لفيسبوك، صفحات متعددة مكتوبة عليها عناوين مختلفة:

- دروس في التنمية البشرية.
- كيف تجد حلا لكل مشاكلك، و تنقلب حياتك من جحيم أسود، إلى جنة؟
- كيف تعيش السعادة في حياتك؟
- كيف تكسب المال دون بذل أي مجهود، وفي وقت قصير؟
- كيف تصنع من نفسك رجلا ناجحا بكل المعايير، و تدرأ عنها كل أسباب الفشل؟
- الطاقة السلبية و الطاقة الإيجابية في حياة الإنسان، و انعكاسها على التفكير.
- هل تعاني من الحب و الغيرة؟
- ما هي طرق الاسترخاء و التحكم في الأعصاب؟
- إدارة المشاعر و الأحاسيس تجاه الآخرين.

- كيف تمتلك مهارات الإقناع وأساليب التأثير على الآخرين؟
- كيف تسيطر على انفعالاتك و تضعاف ذكاءك؟
- كيف تتخلص من الخجل، و تملك أسرار النجاح؟

كانت العناوين غاية في الإغراء، و كنت أتمنى لو أنني أملك كل هذه المهارات مرة واحدة، و تحت العنوان المثير، هناك وصف بسيط مكتوب فيه : "لا تخزن، مفاتيح السعادة بين يديك، في ثلاث دورات من ساعة و نصف، سنقلب حياتك و نجعلك لا تصدق نفسك، سنجعلك تتخلص من الشقاء أولاً، و تحدد أهدافك بتركيز ثانيا، ثم تزرع الحب و السعادة ثالثاً".

و تحت هذا الوصف، يوجد رقم هاتف مكتوب بالخط الواضح، ومعه: "المرجو الاتصال عاجلاً، من أجل تأدية الواجب الرمزي و حجز المكان، المقاعد محدودة".

كانت صورة المدرب المعروف، و هو يلقي محاضراته أمام المئات من المشاهدين، تؤثث المكان، كان فعلاً يبدو كأنه يوزع عليهم صكوك السعادة في شكل كلمات منمقة.

لم أجد حرجاً في دخول هذه التجربة، أنا كذلك أفترق إلى السعادة، وإلى الحب، و إلى التخلص من الخجل، و إلى الاسترخاء، و إلى التفكير الإيجابي، و خصوصاً، إلى التحكم في مشاعري و أحاسيسي.

أليس هذا ممكنا؟

إنهم يقولون بأن النتيجة فورية، و أنني لن أصرف من أجلها مالا، و لن تكلفني إلا بعض سويغات.

حملت هاتفي، و اتصلت بهم، و أدت المبلغ الزهيد و حجزت مكاني ومقعدي.

كان الحاضرون فخورين بأنفسهم، سعداء لأنهم أخيرا سوف يمتلكون مفاتيح السعادة، كنت أنظر إلى المدرب المعتمد و أندبر ملامحه، أتدبر حركاته، و طريقة لباسه، كان دائم الابتسامة، نعم، الابتسامة لا تفارق شفتيه، لا بد من ذلك، فهو يملك الكثير من السعادة، و قد جاء اليوم ليفرقها على الحاضرين، حتى إن كان ثمنها قليلا، دريهمات معدودة.

بدأت أفكر بأن كل شيء قد تطور في هذا الزمان، حتى المبادئ صارت تلقن دروسا، و قد تباع في السوق و تشتري، سيأتي هذا الزمان يوما، نحن نسير في هذا الاتجاه، لن نتوقف عند دورات و دروس، سنتعدها إلى تبادل ملموس لا محالة، و ربما يوما ما تجد قنينة تباع في السوق مكتوب عليها: "قنينة السعادة" أو "قنينة الراحة" أو "قنينة الصبر"، بثمان رمزي، لمدة عام، حينها، سأعرف أن الإنسان خطأ خطوة كبيرة في فهم فكرة الموت.

إننا نبحث عن عالم مثالي كما في يوتوبيا ألدوس هكسلي "عالم طريف"،
و الذي حكوا بأنه قال قبل أن يموت: "كنت أعتقد ذلك"، فهل نرى الحقيقة
قبل أن تغادر الروح أجسادنا؟

كنت أنظر إلى المدرب، و أرى أن كل حركة يقوم بها، هي مثال
لحركات الإنسان، و كل كلمة ينطق بها، هي مثال لحديث الإنسان، و كل شيء
فيه، هو مثال لغيره.

كان واثقا من نفسه، موقنا، يحفظ كلامه، و يحفظ حتى الأمثلة و
الإشارات، كان يحاول أن يشد إليه الأنظار شدا، و يضرب لنا أمثلة من حياتنا
اليومية و انطلاقا من أنفسنا حتى نقتنع اقتناعا، لأننا لا نملك الجرأة لكي نعود
إلى أنفسنا ثم نسألها لماذا قامت بذلك الشيء؟ و هل هي مقتنعة به؟ لقد اعتدنا
إغماض أعيننا عن أشياء ألفناها، فلا نستفسر حتى أنفسنا عنها:

"كل من يأتي إلى هذا المكان، ينتظر مني أن أعطيه بعد الدورة، المفتاح
السحري لحل كل مشاكله، فلا يهمه الإنصات و الفهم، أكثر ما يهمه هو
النتيجة في آخر الأمر.

نحن لسنا هنا، لكي نوزع الكلام الجميل المعسول على الآخرين، و لسنا هنا،
لكي نوهمهم بأننا كالأنبياء، نملك وحيا و قدرة و كرامات و معجزات.

كل الحلول لكل المشاكل و العراقيل المحيطة بكم، لا تأتي مني و من كلامي، و لكن تأتي منكم أنتم.

ثلاثون في المائة فقط، هي نسبة مشاركتي في نجاح هذه الدورة ونجاحكم، و أما الباقي، فهو عليكم أنتم، لأنكم أنتم من تعاونون من هذه المشاكل و العراقيل، و أنتم من ملكتم الجرأة على البوح بها لأنفسكم أولاً، و أنتم من ملكتم القدرة على الاعتراف بالنقص، و أنتم من استطعتم الانتفاض بقدمكم إلى هذه الدورة التي لن يكتمل نجاحها، إلا بإنصاتكم، و تفهمكم، و فهمكم، و اعتكافكم على السير الصحيح للطرق العلاجية المناسبة التي أصفها لكم".

كان يتكلم واثقا من نفسه، و أعترف، أنه منذ الوهلة الأولى، زعزع كل المعتقدات التي كانت لدي، و سحب البساط من تحتي بسهولة كبيرة وسرعة فائقة، كأنه كان يستمع إلى الحوار الذي دار بيني و بين نفسي.

لقد أقنعتني فعلا، لأن كل هؤلاء الحاضرين، يشكلون الجزء الأكبر في مداواة ما جاءوا من أجله، بواسطة الفهم و الالتزام و المتابعة، و لذلك، سوف أنصت جيدا، و أفهم جيدا، و ألتزم جيدا، فربما أنا الوحيدة بين هؤلاء الحاضرين، مصيبي مركبة، فزوجي قاتل محكوم لا محالة بالمؤبد، و بناتي تعانين

من تبعات الجريمة و تتقن إلى التحرر و الانفلات، و أنا أعاني بينهم، لا مال و لا سكن، و لا أمان و لا راحة و لا عمل، مجمل الكلام، أنا بلا وطن.

"لا يمكن أن تتطابق مشاكلكم، و صعب حتى أن تتشابه، فأنتم بالنسبة إلي خليط غير متجانس، فاعتبروا كلامي كمثل ماء زمزم، فماء زمزم، لما شرب له، و الشاهد هنا، هو أمر لا يمكن أن نتنازل عن أهميته في الفكر الإنساني، و هو النية.

أعرف بأن كل واحد منكم يحمل في نفسه هما مختلفا عن الآخر، فهذا يبدو جليا من خلال الاستمارة التي ملأتم، فمنكم من يعاني من مشاكل مع زوجه أو زوجته، و منكم من يعاني من مشاكل خلال التواصل مع الآخرين، و منكم من يعاني من مشاكل مع نفسه أو أولاده، و أنتم تعلمون أن الحلول المقترحة لعلاج هذه الآفات، لا يمكن أن تكون هي نفسها، و لكنها تختلف باختلافكم، و لنا في ذلك شرح و تفسير".

لقد أطاح بآخر صروح شكي، و جعلني أثق به مغمضة العينين، ربما لأنني لم أكن أدرك في البدء كنه الموضوع، و ربما لأن هذه خطة ينهجها في كل دوراته، و ربما لأن ما أحسه الآن، يحسه كل الحاضرين، لذلك فأنا أبشره في سري، بأنه قد نال مني.

"إن الشرط الأول لكي تعالج أية مشكلة أو تواجه أية عقبة، هو أن تجلس مع نفسك، وتتعرف بكل خطاياك، وتعرض كل سلبياتك، وتبوح بها بلا قيد أو عقدة.

العقدة، هي هذا الشيء الذي يحشم على فؤاد الواحد منا و يزرع في صدره الكره والضغينة.

فالقاتل، يكره الآخرين، و يتمنى لو يقتلهم أجمعين.

و الذي يعاني من الخيانة، يكره كل النساء، و يعتبرهن باغيات.

و الذي يزرع تحت وطأة أب متسلط، يكره كل الآباء.

و التي يتحرش بها رجل، تكره كل الرجال.

و كل هؤلاء، ليسوا على حق، لأن كره النوع، بهذه الطريقة، أمر غير صحيح، و لا يخضع لمنطق محدد، فليس كل الناس قتلة، و ليس كل الرجال متحرشون، و ليس كل الآباء متسلطون، و ليس كل النساء خائنات.

و لذلك، عليك أن تعترف أولاً بعقدتك، بما يضرك، اعترف به على الأقل أمام نفسك، أما إن اعترفت به أمام الآخرين، فأنت ستكون قد تخلصت منه بدرجة أكبر، لأنك تملك شجاعة الاعتراف.

حكى لي أحد الأصدقاء، بأنه كان صاحب مقهى سماه : "مقهى

الاعترافات"، كان يتيح فيه لكل الذين يريدون أن يعترفوا بخطيئاتهم أمام

الملا، فرصة البوح و التخلص من عقدة الذنب، و أكد لي أن هذه الفكرة قد بلغت المراد و حققت الكثير من الغايات، فالكثير من مرتادي هذا المقهى يأتون للاعتراف، و الكثير منهم، يأتون فقط للمشاهدة، لأن الأمر كان ممتعا ومشوقا، مع العلم أن حصة الاعترافات، كانت تمر في الصباح الباكر، لأن من يهتم لأمر، فهو سيصحو باكرا و يحج إليه، و يهجر النوم من أجله.

الكثيرون منهم، كانوا مقتنعين بعدم الاعتراف، لكنهم عندما رأوا غيرهم اعترفوا بذنوب أكبر منهم بكثير، اكتسبوا الشجاعة، و اعترفوا، و أقروا بأن هذه الخطوة جميلة و مثيرة و مفيدة.

حكى لي صاحب المقهى، بأنه ذات يوم، اعترف إمام مسجد بسرقة مبلغ كبير من المال من المسجد الذي كان يصلي فيه بالناس، بحيث سلمه إياه أحد المحسنين، و عندما انكشف الأمر تبرأ الإمام و تم إلصاق التهمة برجل بريء كان قد دخل إلى المسجد قبل الفجر يصلي النوافل، و رمي الرجل في السجن سنين خمسا، فقال الإمام بأنه منذ ذلك الحين لم يرتح له بال، و أنه لا ينام، و أنه ندم على ما فعل، و أنه يريد إرجاع المال إلى المسجد، بل إنه مستعد للاعتراف في المحكمة و تبرئة الرجل المظلوم.

و مرة أخرى، اعترفت امرأة بأنها خانت زوجها الوفي ضدا فيه لأنه لم يشتر لها قفطانا كانت تريده، حتى وقع بينهما شجار و صفعها على وجهها أمام

ولديها، قالت بأنه توفي في حادث سير ذات مساء حين كانا لم يصطلحا بعد، وأنها اليوم نادمة حد التفكير في الانتحار.

لقد حكى لي صاحب المقهى بأن معظم هؤلاء الذين كانوا يعترفون في النادي، كانوا يحققون الأهم، إذ كانوا يتخلصون من عقدهم النفسية على الأقل، لأن معظم الناس لا يملكون الشجاعة للاعتراف حتى أمام أنفسهم، فكيف يفعلون ذلك أمام الناس؟

الكثيرون منا، لا يعرفون قيمة الاعتراف، و كل واحد منا مطالب، على الأقل، بأن يختلي ساعة في اليوم بنفسه، و يعترف بكل عقده، حتى لا تتكاثر و تتراكم و تستعصي و تستفحل".

انتهى المدرب من الحديث عن الشرط الأول من أربعة، لحل كل مشاكل الإنسان و التخلص من عقده المضنية، و هو الاعتراف، ثم أخذ يتجول وسط الصفوف و يحملق فينا واحدا واحدا، و يتحدث بثقة عن مدى تأثيرنا بما قاله في هذه النقطة، و بعد توطئة قصيرة قال لنا:

- " و الآن، أريد أن أعرف مدى صحة ما قلناه، هل يوجد بينكم الآن، من باستطاعته أن يواجه هذا الجمهور الرائع، و يعترف له بعقده؟".

لا أنكر أن قلبي صار ينبض بقوة، و أني كنت أحس حينها كأننا مرضى نفسيين في مستشفى للمجانين، كنا نتبادل النظرات الباهتة فيما بيننا، بينما ننتظر

هذا الشجاع الذي سوف يكرس نفسه لكي يكون مثلنا التطبيقي خلال هذه الدورة، ثم يقوم ليعترف، وها قد تطوع أحدهم، و هو رجل متوسط في السن، فقال:

- "مشكلتي هي أنني أعاني من الوسواس، بحيث أشك في كل شيء، حتى الأمور التي تحصل أمام عيني، فإنها ما أن تحتفي عني حتى أبدأ بالتساؤل فالشك فالوسواس، علما بأنني أحس أن هذا ليس بيدي، بل بأنه أكبر وأقوى مني، فأحاربه، لكنني لا أستطيع، و قد أوصلني هذا الشك إلى حد هجران الكثير من الناس و فقدانهم، و حتى علاقتي كلها تلاشت، لا أحد يفكر في الارتباط بي خوفا من عقليتي المريضة".

كانت فتاة تبتسم في الخلف، و لم يكن كلام هذا الرجل غريبا عني، لأنني أعرف حالات مثله، و هي متواجدة في المجتمع، حتى صرت أشك أن كل المجتمع مريض نفسيا.

و قال آخر: "مشكلتي هي أنني قليل الصبر، لا أستطيع أن أكمل عملا أو أذهب فيه إلى آخر نفس، لم أتل الإجازة في الجامعة و لم أكمل دراستي، و كلما أخذت كتابا لأقرأه وجدته متوقفا في منتصفه، و كلما قمت بعمل وجدته هاربا منه، فهل هذا ملل أم مرض أم عادة أم ماذا؟"

و اعترف الكثيرون ببساطة، إلا أن كل اعترافاتهم، أرى بأنها تدخل في إطار الأمراض النفسية التي تستدعي تدخلات على مستوى الطب النفسي، ربما كانت الشجاعة في الاعتراف هي المكسب الوحيد في مثل هذه الحالات، أما بالنسبة للتنمية البشرية و أهدافها كما سطرها المدرب سابقا، فهي تركز أكثر على تنظيم الحياة الإنسانية و اغتنام الوقت.

ثم استطرد المدرب: "الشرط الثاني لحل كل مشاكلك في هذه الدورة، هو عنصر الرغبة في تغيير الحال، فأنت مهما اعترفت، و مهما بحث لنفسك وللآخرين، فهذا ليس إلا بداية للحل، لأن الرغبة في القيام بشيء، تقوي الإرادة، و تطرد العجز و الاستسلام و التراخي.

الكثير من بينكم، تجدهم يصبرون قهرا على عادات سيئة بسيطة، لكنهم لا يتمتعون بالإرادة الكافية للتخلي عنها، بحيث أنك إن سألت الواحد منهم عنها، فهو يجيبك بأنه يتمنى إزالتها، و لكنه يتعذر بالوقت و العمل و أمور أخرى، علما بأن المسألة لا تحتاج إلى وقت بقدر ما تحتاج إلى رغبة و إرادة حازمتين.

الشرط الثالث من شروطنا، هو الالتزام و الامتثال و عدم التراجع".
 هنا اكتشفت بأنني لست بصدد الحصول على حل سحري لكل مشاكل دفعه واحدة، ولكنني بصدد توصيات محددة و علاج طويل الأمد.

فقد بدأ المدرب يقسم لنا اليوم إلى ساعات، ثم إلى منام و عمل و مأكّل و أشياء أخرى، ثم وضعها في جدول و حدد لنا المواقيت، و كيفية البحث عن عمل و كيفية الادخار، و دون أن يتطرق إلى ما جئت من أجله، انتقل للحديث عن الشرط الأخير الذي وصفه بالأهم :

"الشرط الرابع و الأخير، هو الإيمان بجدوى ما نقوم به".

و صار يحلل الأسباب و العلل، و يتطرق إلى أمثلة من علم النفس الاجتماعي، و يتحدث عن علاقة الإيمان بتحقيق الأهداف، فتارة يستدل بقولة لعالم أو مفكر، و تارة يستدل بآية من القرآن أو حديث من السنة النبوية أو أمثلة من التاريخ، لأن الإيمان، كما كرر منذ بداية الدورة، فكرة و تصديق.

و تدخل أحد الحاضرين محاولاً الطعن في ترتيب الشروط، بحيث قال بأن الإيمان يكون في البدء و ليس في الختام، فما كان من المدرب إلا أن أجابه بجملة مركبة : "إننا هنا، نتحدث على الإيمان بالنتائج و ليس بالأسباب".

استغرق معظمنا وقتاً طويلاً لفهم معنى هذه المقولة، و هو ما حصل للمتدخل بنفسه، حينها كان المدرب قد أعلن عن نهاية الدورة و عن موعد الدورة القادمة، و عن إلزامية الحضور، و عن متابعتنا لأخباره و جديده عبر صفحته على فيسبوك، و عن تفاعلنا معه كلما خطر لنا تساؤل، أو دعت الضرورة إلى ذلك.

نعم، كل ما قاله المدرب جميل كدرس في المعاملة مع النفس و مع الناس، كنت أرى بأنه يبسط دروس علم النفس و علم الاجتماع، ثم يوصلها إلينا بمتعته المعتادة و أمثلتها التي كان لا يعرفها إلا طلبة الجامعة.

هكذا، رأيت بأنه يصدمنا بأفكار عظيمة فيغلب الانبهار على الاقتناع، و كذلك انبهرت كغيري، لكنني لم أقتنع، لقد حملت في ذاكرتي أربع كلمات رنانة: (الاعتراف - الرغبة - الالتزام - الإيمان)، لكنها كلمات صالحة لكل زمان و كل إنسان، فهل هذه المفاهيم، و بهذا الترتيب، هي الدواء الشافي الذي نضعه على كل جرح فيلتئم؟

سأعترف إذن، و أرغب، و ألتزم، و أومن، لكنني قبل ذلك، و خلال عودتي إلى البيت، دخلت إلى صفحته الفيسبوكية، و أخذت أتصفحها، و أنظر في دوراته القديمة، أحسست كأنه بدروسه هذه، يقنع الناس بالمستحيل، تماما كممثل السكران، يرى الدنيا جميلة، و يرى كل الناس إخوة له، لكنه ما أن يفيق من سكره، حتى يدرك حجم الوجدع الساكن في أضلاعه، و حجم الهموم التي تطارده.

إني أعاني من مشكلة في السكن، و مشكلة في العمل، و مشكلة في الأمن، و عندما أعترف، و أرغب، و ألتزم، و أومن، هل ستوفر لي هذه المفاهيم مسكنا ألوذ إليه أنا و بناقي بدل السكن في غرفة ضيقة مع أهل زوجي؟

نعم، سأعترف، و أرغب، و ألتزم، و أومن، هل ستوفر لي هذه المفاهيم عملاً يضمن لي رزقا يوميا، و يكون بمثابة مصدر عيش مستقر أعترف منه أنا و بناتي بدل التشدق تارة إلى هذا و تارة إلى ذاك؟

نعم، سأعترف، و أرغب، و ألتزم، و أومن، فهل ستضمن لي هذه المفاهيم ما يكفي من أمن لكي أتحرك بسلام بين عملي و بيتي، بدل التهرب من اللصوص القابعين في أركان الأزقة و زواياها صباح مساء؟

ها قد نشر دورتنا اليوم على صفحته، و ها قد تركت له سؤالا واضحا فصيحاً، و أنتظر الجواب، فإني و إن كنت أنتظر أن يبيع لي كل السعادة ببعض المال، فإني أعرف أنه لن يهني بعض السعادة بكل المال.

اختبار فيس بوك.

اليوم فقط، عرفت بأن القوة النفسية ليست هي ما كنت أؤمن به، وأن السعادة والحب والطمأنينة وأكثر، ليست هي ما كنت أفكر فيه، وأن حقيقة الإنسان، ليست هي ما كنت أعرفه، وأن الحياة، ليست هي ما كنت أصبو إليه. كانت أُمي تحتضني، و كان أبي يخاف علي، و كان زوجي يغمري بالحب، كان الأولاد هدفا كبيرا في حياتي، و كنت لا أدرك أن كثرة الأحاسيس والمشاعر الموجودة حولك، تغلف قلبك بغلاف و تحجب عنك الإحساس بمشاعر أقوى و أكبر.

كنت أتذكر و الهاتف في يدي، حتى وقعت عيني على صفحة مختلفة منمقة مكتوب عليها : "اختبار فيس بوك".

نعم، أتمنى لو أنني أختبر نفسي، لو أن أحدا غيري يخبرني عنها، فأنا ما بت أعرفني، ما بت أفهمني، ما بت أدرك ما يحصل داخلي و ما يقع خارجي. ضغطت على الصفحة فقرأت: "اختبار البيض المكسور لتحليل الشخصية"

ثم تحتها تعليق: "اختبار ترفيهي يحدد طبيعة شخصيتك، بسيطة أو معقدة، مرح أو كئيب، من خلال إجاباتك عن الأسئلة".
و تحتها: ابدأ الاختبار...

ظهرت ست بيضات بألوان و أشكال مختلفة، و تحتها أرقام من الواحد إلى الستة، و فوقها مكتوب: "أي بيضة في الصورة تصف شخصيتك؟"

اخترت البيضة الرابعة، ليس لأنها تصف شخصيتي، ولكن لأنها في نظري، الوحيدة التي تشبه البيضة الحقيقية.

ثم مررت إلى السؤال التالي، و فيه ست صور لستة أطباق فيها صفار البيض مقليا بطرق مختلفة، و فوقه السؤال: "أي نوع من بيض العيون تفضل؟"

اخترت الثالث لأنني رأيت فوقه أثر التوابل التي تعطي مذاقه الكثير من اللذة، و أحسست حينها بالجوع، و فكرت أن أقوم في الحال و أطبخ مثله. ثم مررت إلى السؤال التالي، و في الصورة ستة أطباق من البيض المعد بطرق مختلفة، و فوقها السؤال: "أي نوع من الوجبات الخفيفة أعجبتك في الصورة؟"، اخترت الرابع، لأنني رأيته لذيذا، خصوصا مع حبات الفلفل المشتة فوقه، كما أنه يبدو مختلط الألوان، من أبيض و أصفر و أحمر و أخضر.

ثم مررت إلى السؤال التالي، بحيث ظهرت صورة لستة أشكال من البيض المكسور، و فيه ما انكسر كله حتى أهرق الصفار على الأرض، و ما انكسر بعضه و بقي الصفار في شقفة البيضة، و السؤال فوقه: "أي شكل من

البيض المكسور تفضل؟"، اخترت الشكل السادس الذي انقسمت فيه البيضة إلى قسمين متساويين، و أهرقت البيضة بكاملها على الأرض، و احتفظت برونقها كأنها موضوعة بعناية في مقلاة، بينما لم ترق لي الأشكال التي يهرق بعض صفارها و يبقى الآخر عالقا في الشقف.

ثم مررت إلى الشكل الأخير، و فيه ستة أطباق من البيض المسلوق والذي تم تقديمه بعناية، و فوّه السؤال: "أي نوع من البيض المسلوق تفضل تناوله؟"

اخترت الطبق الرابع الذي رغم أنه لا يضم سوى بيضة واحدة مقسومة إلى نصفين، ولكن لأنني أراها حقيقية و مقسومة بدون تعديل أو تنميق.

ثم ظهر زر أخضر أسفل الصورة مكتوب فيه: "الحصول على النتيجة"، ضغطت عليه فظهر نص مكتوب تحت عنوان: "أنت شخصية واقعية"، و تحته صورة معبرة، كأسان مملوءان بالماء، و في كل واحد منهما بيضة، بحيث حثلت البيضة أسفل الأول و طففت على سطح الثاني، فهتمت بأنه ليس في الحالتين حل وسط، و أنه يريد أن يقول بأن لي شخصية متطرفة، و تحت الصورة نص مكتوب فيه: "أنت شخصية واقعية، لست متفائلا و لست متشائما، فأنت لا تحب أن تزيد من التفاؤل لتعيش على أمل كاذب، فتعيش

الحياة على طبيعتها، لا تبالغ في التفاؤل أو التشاؤم، لكن أحيانا، نحتاج للأمل لكي نعيش، فلا تكن شديد الواقعية في كل الأمور، تفاعل، فربما يأتي الغد بخير مما كنت تظن."

أعرف أن الذين يضعون هذه البرامج، يملكون معارف كبيرة في العلوم الإنسانية، و لهم باع في الفلسفة و علم النفس و الرياضيات و غيرها، وأنهم يستعينون بعلماء كبار في شتى الميادين، و بذلك فامتحان البيضة لم يأت بشكل عبثي، شخصية الإنسان كالبيضة، أنت لا تعرف إن كانت صالحة أم فاسدة إلا إن كسرتها أو فحصتها بإتقان.

شخصية الإنسان مغلفة في قشرة هشة و قد تنكسر سريعا، و بداخلها سائلان، الأبيض و المح الأصفر، لكنها لا يختلطان، و لكل منهما مظهره ولذته و دوره، و حتى الانكسار، فهو ليس واحدا، بين ما تنكسر فتفسد، و ما تنكسر و تحتفظ بجمال شكلها، فالشخصية هي كذلك مظهر و لون و شكل.

ابتسمت طويلا، لم يدهشني هذا الجواب، و لم يدهشني ذلك التشبيه، ففي أعرافنا و تقاليدنا نحن كذلك، هناك علاقة كبيرة بين شخصية الإنسان والبيضة، فنحن نقول بأن العين حق، و عندما يصاب بها طفل، يقوم أبي بمعالجته عن طريق أخذ بيضة و نسبها إليه و وضعها في يديه، و كتابة اسمه

عليها، و قراءة المعوذتين، ثم كسرها و النظر إلى محها و زلاها من أجل كسر حبال العين الصفراء و إبطال سحرها.

لكنني أعرف أن فيسبوك يقوم بمثل هذه الاختبارات من أجل التسلية، و ربما هي تجارب يحكمون على صحتها من خلال التفاعل و المشاركة و التعاليق، لكننا لا يمكن أن نغفل بأنه يستعين كذلك بما يعرفه عنا من خلال صورنا و منشوراتنا و تعاليقنا و ردود أفعالنا، و حتى مكالماتنا و رسائلنا النصية.

لم أتردد في مشاركة هذه النتيجة على فيسبوك، على الأقل لكي أتسل بتعاليق بعض الأصدقاء الوهميين أو الحقيقيين.

ثم فاجأني بسؤال : "هناك اختيارات أخرى قد تعجبك".

ضغطت عليه، فظهرت أمامي الكثير من الأسئلة المثيرة و المغرية:

- ما مدى الشر بداخلك؟ اكتشف نفسك.
- أي نوع من الأمهات أنت؟
- ما هو معدن قلبك؟
- من يشبهك من رؤساء الدول؟
- ما هي الشخصية الكرتونية التي تمثلك؟

أعجبني امتحان شبيهتي من رؤساء الدول، إنها فكرة جميلة و ممتعة، بسطتها أمامي و أجبته عن الأسئلة كلها، حاولت أن أكون صريحة مع نفسي هذه المرة، فالأمر يتعلق، لا قدر الله، برئاسة محترمة مقدسة، كنت أشك بأنه سيجد لي شبيها، لا أحد يشبهني في هذه الحياة.

و في نهاية الامتحان، ظهرت لي صورة تمثل لامرأة، يبدو أنها ملكة دولة قديمة، و مثلها لا تكون فقط ملكة و حاكمة، ولكنها تكون إلهة تعبد. نظرت فوق الصورة فقرأت مكتوبا: (تشبهين "تيتو"، ملكة قرطاج). يا إلهي، إني لا أعرفها، سأبحث عنها في وقت لاحق، ربما كانت امرأة سعيدة، فهي على كل حال، كانت تحكم واحدة من أكبر عواصم الدنيا، "قرطاج".

ابتسمت، و ابتسمت ثانية، ثم ضحكت، ثم قمت من مكاني، "تيتو" ملكة قرطاج، نعم أعرف هذا، لكنها أحرقت نفسها من أجل "إنياس"، هكذا حدثنا "فيرجيل".

هل دائما تحرق المرأة نفسها من أجل رجل؟

الجزء الثاني

"جدران الألم".

وصف زنزانة.

في السجن، قد تكون الزنزانة انفرادية، لا تتسع إلا لنصف إنسان، لكنهم يدسون فيها إنسانا كاملا عقابا له، و أما الزنزانة التي أنتمي إليها، فهي الأخيرة على اليمين في الممر الطويل للحي السجني الثالث، و هو المعروف هنا بحي المجرمين، بابها كسائر الأبواب، حديدي متين، و في وسطه فتحة منمقة بحجم وجه إنسان، لا تفتح إلا من أجل دفع المؤونة للمساجين، و حولها مقبضان متقابلان، أحدهما على اليمين و الآخر في الشمال، و في الأعلى مكتوب رقم الزنزانة بخط رديء: ٢١، فما أن يفتح الحارس الباب و يركله برجله ليفسح لك المجال للدخول، حتى تحس بضيق المكان، و تشعر بأنه أصغر ممن فيه.

أول ما يمكنك أن تراه بعد أن يفجعك صرير الباب خلفك، ثم إقفاله بعنف من طرف السجنان، هو الأسرة الستة الموزعة على ثلاثة أماكن، و في كل مكان سريران، أحدهما تحت الآخر، بحيث ينام القوي فوق الضعيف، فيشعر الأول بسطوة كاذبة، و يرزح الثاني تحت ظلم غير موجود.

في وسط الزنزانة تترنح طاولة صغيرة، و حولها أربعة كراسي، و على الهامش توجد سجادة مبسوطة تولي وجهها نحو القبلة بشكل غير صحيح، يا إلهي، إنهم لا يعرفون من أين تطلع الشمس.

أما إذا رفعت عينيك و تمعنت في الجدران الأربعة، فأنت ستقرأ الكثير من الأسماء و الألقاب التي مر أصحابها من هذا المكان، و لكل اسم هنا قصة تحكى، و رسوم أكثرها وضوحا علامة الخطر، و هي عبارة عن جمجمة بعينين جاحظتين، تجدها في الغالب مرسومة على أعمدة الكهرباء من أجل تحذير كل من يفكر في تسلقها، بحيث زادها عدم الإلتقان حبكة و جمالا، و فوقها العنوان: "الحياة خطر"، و تحتها التوقيع بصمة بالدم.

و في الجهة المقابلة رسم لأسوار عالية تطل من خلفها أعين دامعة، وفوقها العنوان: "جدران الألم"، و تحتها التوقيع بصمة بالدم.

و في الجدار المحاذي يبدو رسم كبير لشخص قوي بعضلات مفتولة وشعر غزير و نظرة ثاقبة، يركض، و حوله النيران مشتعلة و الشظايا تتطاير في كل مكان، أظن أن الذي رسم هذه الصورة السيئة كان يتخيل "رامبو"، صاحب البطولات الأمريكية المزيفة في بلاد الحرب، و هي لوحة بلا عنوان و لا توقيع.

تحتها يوجد رسم لعبة سجائر مشتعلة، بعيني رجل ذابل كئيب، ورسم لفتاة جميلة عارية غير مبتسمة، و رسم للمقصلة، و رسم للمشنقة، ورسم لأفواه تصرخ، و شعارات هنا و هناك: (الحياة كابوس)، (الحب والحرية)، (الضياح يا أمي).

ثم عندما تنتبه إلى السجناء حولك، تجدهم خمسة و أنا السادس، يبدو بأنهم قد وجدوا القاتل الذي سيكمل العقد الفريد، فنحن القاتلون، نعرف بعضنا، و أتذكر عندما كنت أتحدث مع أحد السجناء في الساحة التي نرتادها ساعة في كل يوم، فقال لي: (أنت لست مثلنا، أنت لست سجيناً، أنت قاتل). و بعد أيام، بدأت أكتشف بأنه لا أحد من بيننا ينتبه لتلك الرسوم إلا في المرة الأولى، و لا أحد من بيننا يصلي على السجادة المرمية جانباً إلا عندما يفجعه أهله بخبر موت أحد أفراد أسرته، فنحن لا نصلي إلا عندما نخاف، و لا أحد من بيننا يفكر بأنه للزنازة باب موصد و نوافذ لا تفتح، كأننا داخل علبة كبريت.

و كما رحب بي السجناء في الزنازة، فقد رحبت بهم في نفسي، و كعادتهم، كلما اقتحم عنصر جديد مثلي غربتهم، أقاموا له ليلة اعتراف و تعارف، بحيث يجلسون بعد العشاء، و يتسامرون من خلال الاستماع إليه بعد أن تنطفئ الأنوار، فهو بالنسبة إليهم يمثل حكاية جديدة، و هي مناسبة أن يستمع إليهم، و مناسبة كذلك لكي يهونوا عليه الأمر الجلل ببعض حكاياتهم المتنوعة و الغريبة، و ذلك لأنهم يدركون بأنك عندما تبوح ترتاح، و هم يمنحونك شرف الاستماع إلى حكايتك مهما كانت مفاجعة، و مهما كانت تافهة، و تلك هديتهم إليك.

مرات، تجد أحدهم لا يحبك بدون سبب، و يحاول قدر الإمكان الابتعاد عنك، و يتحاشى حتى النظر إليك أو الاستماع إلى كلامك، بل إنه قد يسلك العديد من الطرق من أجل إذلالك أو جعلك تشعر بالنقص، والغريب، هو أنك لم تفعل له شيئاً يستحق كل هذا العناء، والأغرب، هو أنك تراه بأم عينيك يصبر على إذلال الآخرين و احتقارهم.

هذا الذي يحصل لي مع الشاب الثلاثيني "عبد الكريم"، الذي ينام في السرير الموجود فوقى، كنت أعرف، لأنهم أخبروني، بأنه مصاب بالصرع، لكنني أطلت صمتي لعله يرتدع، فلم يرتدع، فسألته أمام الآخرين عما يكنه لي، فتبرأ من كل تلك الأمور مبتسماً، و أخبرني أمامهم، بأنه يحبني، و أنه يتمنى لي الحرية، و أن ما أحسه هو فقط مجرد شك و ارتياب.

لقد كنت مصدوماً من هذا الجواب،

هل فعلاً يحبني؟

هل فعلاً كل هذا الكم الهائل من الكره الذي يصلني مجرد شك؟
ما أفجع أن تخطئ في أحاسيسك، و ما أفجع أن يخذعك الغير فيها.
كنت قد بدأت أتعرف عليهم واحداً واحداً، و ليتني ما عرفت، فليس كل ما تعرفه يفيدك.

كان من بيننا رجل بريء رغم كبر سنه اسمه "العربي"، تبدو عليه صفات البداوة، بشرة حمراء و شارب كثيف و بنية قوية و لغة ناصعة، من بعض ألفاظها ما يضحكك خلال النطق، و لا تفارقه الابتسامة كأنه ليس قاتلا، حكى لي بأنه قد تم القبض عليه لأنه كان في موسم الصيد، فأطلق رصاصة طائشة، أخطأت الهدف و أصابت صديقه، كان هو الوحيد الذي أراه يعتاد السجادة مرات و يُخطف بعض الركعات، إلا أنني كنت ألاحظ بأنه لا يصلي بانتظام، فقد يصلي مرة و يغيب مرات.

كان لا يلعب الشطرنج مع الآخرين، "الأستاذ" و "كونار"، كان يراها لعبة الجنود و قواد العسكر، فلما يشتد بينهما الصراع، كان ينظر إلي مبتسما ثم ينبس قائلا:

- "لم أجد يوما صعوبة في تعلم لعبة كما وجدت في الشطرنج".
- و لأن الصمت يسود المكان، يفهم الأستاذ مقالة "العربي"، بحيث يكررها في كل مرة، فلا يتردد في إمداده بمعلومات عنها غير متبته إليه:
- "لا أعرف متى تم اكتشاف هذه اللعبة بالضبط، لكن الأمر الذي أجزم به هو أن الذي اخترعها كانت له علاقة بالحكم و بالحرب، و كان يفكر في طريقة بسيطة و مقنعة للانتصار على العدو مع أقل الخسائر، فإن لم يكن ملكا، فهو كان يمجد الملوك، بحيث جعل من الملك فيها القيمة العليا التي لا تتغير،

فحياته تعني حياة الجميع مهما ماتوا، و موته يعني موت الجميع مهما عاشوا. و حتى الطريقة التي جعل البيادق و الفرسان و الحصون و الفيلة تتحرك على الرقعة، هي طريقة مدروسة تنم عن فهم لمكائد الحروب".

رفع "كونار" رأسه كأنه انتبه لكلام "الأستاذ"، و عدل عن التفكير في اللعبة، وثبت عينيه فيه و هو يفرك لحيته، ثم أضاف كمستنكر يتخفى خلف السؤال:

- كنت أظن بأن الشطرنج لعبة جديدة؟ (أجابه "الأستاذ" وهو يحثه على اللعب)
- لا، الشطرنج لعبة قديمة، وأضف إلى معلوماتك، بأنه كان لا يلعبها إلا الملوك، كان يلعبها "هارون الرشيد" مع رجل سمي بأبي حفص الشطرنجي. (سكت الأستاذ، بينما أمره "كونار" باللعب، ثم انفجر "الأستاذ" ضاحكا أمام ذهول الجميع، فاستفسره "كونار" فأجاب)
- هناك خليفة عباسي اسمه "الأمين"، يقال بأن الجيوش كانت تحاصر قصره، وعندما جاءه الحرس منذرا قال له "الأمين" دون أن يرفع رأسه: "انتظر، انتظر.. سأفوز بعد ثلاث نقلات" (ثم انفجر ضحكا، و ابتسم الآخرون، كانت لحظة غفلة "الأستاذ" استغلها "كونار" شر استغلال فسحق بيادقه، فقال منتشيا، كأنه صار أستاذا كذلك).

- الشطرنج يا سيدي، هي لعبة الانتصار في المعركة عن طريق قتل ملك العدو، ومادام الملك حيا، فالمعركة لم تنته بعد، و الانتصار لم يحسم بعد، و أما الرقعة، فتتشكل من ملك و ملكة و قلعتين و حصانين و فيلين و ثمانية جنود.
- "يتسم "العربي" كأنه لا يريد أن يفهم، ثم يتساءل مستنكرا:
- "و أين هو السلاح؟"
- فيجد الأستاذ فرصة استعراض معارفه و هو منهمك في اللعب:
- "يوضع الملك و الملكة في الوسط، و بجانب كل واحد منهما فيل فحصان فقلعة، و يوضع الجنود في الأمام، و خلال الحركة، نقتل و نموت..."
- فكر "العربي" قليلا ثم سأل:
- و ماذا لو مات الملك من أجل إنقاذ الباقيين؟ (أجابه الأستاذ):
- هذا لا يسمى انتصارا، فمهما كان عدد الناجين في جيشك أكثر من عدد الناجين في جيش عدوك، فالمهم هو من نجا، و ليس هو كم نجا. (أوماً "العربي" برأسه كأنه فهم هذا الكلام، ثم أردف متسائلا):
- المهم هو أن ينجو الملك؟ (فأثبت الأستاذ مقالته):
- المهم هو أن ينجو الملك حتى إن مات الجميع. (فسأله "العربي" مؤكدا):
- حتى إن مات الجيش كله؟ (أجابه الأستاذ ضاغطا على حروفه):
- حتى إن مات الجيش كله.

- وماذا إذا نجا الجيش كله و مات الملك؟
- خسرت المعركة إذن. (فابتسم "العربي" و دار بوجهه قائلاً كأنه يخاطب نفسه):
- هذه ليست لعب. (فرغ الأستاذ رأسه لينظر إليه أخيراً كأنه لم يفهم، فسأله):
- وماذا تكون إذن؟ (لم يتأخر "العربي" في الإجابة):
- هذه الحقيقة.

أكثر الذين كانوا يتنافسون في اللعب هم الباقون الثلاثة، الرجل العجوز الذي لا نعرف من أين تسلمت إليه جريمة القتل ويداه يغطاها الرعاش، و الذي حكى لي بأنه أستاذ للغة العربية، فقد كنت أراه يتوسد بعض الكتب، و معظم أوقاته يقضيها في القراءة، و أتذكر أنني رأيته يحمل "ديوان المتنبي"، و قد قرأ علينا منه الكثير من القصائد الجميلة التي لا أفهم الكثير من أبياتها إلا عندما يشرحها لنا، فأجد معانيها عظيمة و ألفاظها بديعة، و قد تردد أمامي كثيراً بيته القائل: (إذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جباناً)، بينما كان يتستر على جريمته كأنه قد ندم، و كنا لا نقول له إلا "الأستاذ"، حتى أنني لم أتجرأ يوماً على سؤاله عن اسمه.

و شاب، هو الوحيد الذي قد لا ترى غرابته في وجوده هنا، بل إنه يتبجح بأنه صار لا يغادر السجن إلا أياماً ثم يعود، فهو لا يرى الحرية إلا في هذا المكان، و لكثرة تردده على السجن و تناوله للمخدرات، صار الوشم يغطي

ذراعيه، بحيث يكتب في ذراعه الأيمن اسم فتاة يبدو بأنه كان ربما يحبها، و كنت أتساءل كيف يتسلل الحب إلى قلب مغلف بالغفلة والتهيان، و في ذراعه الأيسر يبدو جلياً رسم لوجه إنسان، أما أنا، فكنت أعرف بأن الوشم هو رسم يلصق بالجسم، و هو من شأن النساء، و أن الرجال لا يهتمون به كثيراً، فإن كان الرجل يستعمله كمظهر من مظاهر الشجاعة و الرجولة، و كان في الغالب يخفيه، فإن المرأة تستعمله كمظهر من مظاهر الأنوثة و الجمال، و في الغالب ترسمه في أماكن مكشوفة من الجسم و محددة، كـ"السيالة"، و هي خط عمودي يرسم في ذقن الفتاة، و "المركب"، و هو وشم تضعه المرأة بين الحاجبين.

و من الرسوم الوشمية التي أعرف أنها كانت لصيقة بالرجال، و أقول كانت لأنها لم تعد تستعمل منذ القدم، هناك ما نسميه: "الشمامة"، و هي عبارة عن خط عمودي مستقيم في أرنبة الأنف، و ترمز للأنفة و الكبرياء، و "العياشة"، و هي عبارة عن تاج يوشم في الكتف، و ترمز إلى القوامة والقدرة و الرجولة، و "الكفافة"، و هي وشم مخزني يوضع بين اليد و الذراع، فهل كان هذا الشاب يعرف ماذا يفعل؟

كان يحلو له أن نناديه باللقب الذي عرف به في السجن منذ زمن: (كونار)، و أكثر الذي يزعجني فيه، هو أنه يتكلم دائماً بصوت مرتفع، و لا

يؤمن بالرأي الآخر، فقد نخوض في حديث طويل، نتبادل الآراء والأفكار و ربما الأحاسيس، فلا يتردد في الأخير بأن يقطع الحوار باستنتاج من محض خياله، و بطريقته السوقية، منهيا كلامه بلفظة (سطوب)، فلا نملك إلا أن نرضيه، مادام إرضاءه لا يتجاوز أن يكون لحظة من الصمت.

و أما الثالث، فهو شاب جميل الوجه، أبيض، طويل القامة كثير الصمت، اسمه (أنور)، حكى بأنه قتل زوجته عن طريق الخطأ: "كانت ضربة واحدة لرأسها قد أوفت بالعرض"، و رفع عينيه للسما و أعاد النظر إلي ثم أردف متداركا: "لكني لم أر في حياتي لسانا سليطا كلسانها، إنها تقول كلاما يدفعك إلى أن تقطعها إربا إربا و ترميها في حاوية الأزبال"، حكى بأنه كان لا يدخن، ولكنه الآن صار يفعل كل شيء: "لقد رميتها في المقبرة و رميت نفسي في السجن و تركنا رضيعتنا عرضة للضياع"، كان يعجبني كثيرا، عندما يقوم ببعض الحركات الرياضية البهلوانية، و يعلن بعدها بأنه كان يأمل بأن يكون بطلا في رياضة (التيكواندو) لولا هذا الكابوس الذي غير مجرى حلمه، و أما (كونار)، فإنه لا يتورع أن يسدي له النصائح قائلا: "اجلس بارك الله في صحتك، إن رائحة العرق ستملأ المكان، هل تريدنا أن نختنق؟"، بينما لا ينتبه (أنور) إلى نصائحه، و يستمر في حركاته، و حول رقعة الشطرنج، يلوي الاثنان عنقيهما كأعلى رأسيهما الطير، ثم في الأخير، و كالعادة، يعلن (الأستاذ) عن

الكوابي،

محمد البرهان،

انتصاره قائلاً: (كش ملك)، ثم يضحك ملياً، بينما يغضب (كونار) و يستلقي في فراشه بعنف مردداً: "يا إلهي، أكثر الأفعال وقاحة، أن يموت الملك بسبب جندي حقير".

العفو و البراءة.

كانت الحصة الأكثر إمتاعا في سهراتنا السجنية، هي "حصة الأمنيات"، بحيث نتنظر انطفاء النور، و خلود كل واحد منا إلى فراشه، لنبدأ بالإنصات إلى من نختاره من بيننا، و هو ييوح بكل ما يتمناه في الحياة انطلاقا من موقعه في هذا المكان.

كانت أمانينا، مهما اختلفت و تعددت، تلتقي عند مبدأ واحد، و تجتمع عليه، و تسبح باسمه، و تجزم بأنها لن تتحقق إلا بتحقيقه أولا، و هو "الحرية".
إن "الحرية" بالنسبة إلينا، هي شرط الحياة، و سبب الحياة، و نتيجة الحياة، و فرض الحياة، بل إن "الحرية" عندنا، هي الحياة.

فبقدر ما نتوق إلى التحرر من السجن، نتوق إلى التحرر من هذه الجدران التي تنضح بالألم، إلى التحرر من هذه الوجوه التي رأيناها و حفظناها و عرفناها حتى شعبنا و فهمنا و مللنا، إلى التحرر من فكرة ضيقة قاتلة، تعني بأن الحياة زنازة و حارس و انتظار و قتل للوقت و أمد يطول، إلى التحرر من نفوسنا التي تطالبنا في كل يوم بافتعال الجديد و التخلص من هذا الموت المتدثر خلف قناع العقاب، و الذي يحاصرها من كل مكان.

لكن الذي أثار انتباهي، هو السجين "العربي"، الذي كان لا يتكلم عن الحرية خلال "حصة الأمنيات"، بل لقد سمعته كثيرا يردد: "أمنيته

الأولى، هي أن أنال البراءة"، و فكرت كثيرا، و فهمت بأنه فعلا يتمنى أمرا أكبر من الحرية التي كنت أراها أنا منتهى الأمنيات.

ثم سألته: "كيف تعلن بأنك تتمنى البراءة و أنت قاتل؟"

أجابني: "ليست هناك جريمة ما لم تكن هناك نية، إني لم أقتل ذلك الرجل، ولكن الرصاصة أصابته خطأ، لقد كان على بعد مئات الأمتار مني، وكنت لا أراه، لأنه كان مختفيا وسط الأشجار، فكيف تتسلل إليه الرصاصة من بين كل هذا الزحام لكي تورطني في جريمة لا أعرفها و لا أريدها و لم أدبرها و لم تكن لي نية فيها؟"

كان الحوار خاصا بيننا، و قلما كنا نجد هذه الفرصة المناسبة، لكن الأقدار تتكفل في بعض المرات بزف بعض السعادة إلينا، تماما كما قد تتكفل برمي أحسن التهم علينا.

ابتسمت ثم قلت له: "و إذن كان عليهم أن يعتقلوا الرصاصة في الحقيقة."

اقرب مني أكثر، و خفض صوته قليلا كأنه يستعد لكلام كبير، ثم قال لي: "أعرف؟ لقد حصلت على العفو الملكي للخروج من السجن مرتين، لكنني رفضته."

كنت مندهشا لهذا الكلام، ليتني مكانه، كنت هرعت فارا من السجن بلا رجوع، فسألته متعجبا: "و ما هو السبب في ذلك؟ هل أنت أحمق؟ هل تحب هذه الحياة الجافة المحدودة الشبيهة بالموت؟" لم يعبأ بكلامي و بتحفيزي، لم يبد نادما على ما فعل، فأجابني ببرود: "أنا لا أريد العفو، أنا أريد حكما بالبراءة".

- ولكنك بهذا تريد أن تغير الفصول و القوانين التي يمشي عليها الإنسان منذ "حمورابي"، القانون يا سيدي، لا يحكم على النية، و لكن على الفعل و النتيجة، فبالنسبة للقانون، كل إنسان بريء أو متهم، لا غير.

- سأحكى لك حكاية، اسمعها و تدبر، في يوم من الأيام، خرج مجموعة من الرجال كعادتهم إلى الصيد في الغابة المجاورة لبيتهم، و معظمهم من أبناء العمومة و يعرف بعضهم بعضا، و في لحظة، أطلق أحدهم رصاصة، ذهبت بعيدا لتصيب ابن عمه الموجود في الشعبة المقابلة فأردته قتيلا، اجتمع الرجال، و ذهلوا لما حصل، و عرفوا القاتل، و هو أخوهم الأصغر، و المصاب هو ابن عمه، لكنهم اكتشفوا بأن القاتل لا يتوفر على رخصة الصيد، و أنه بهذا سينال عقوبة قاسية، أولا لأنه قتل، و ثانيا لأنه يمارس الصيد بدون رخصة، فما كان إلا أن تدخل أبوهم، وهو شيخ طاعن في السن، و أمر ابنه الأكبر، الذي يتوفر على رخصة الصيد، بأن يعترف بأنه هو صاحب السلاح، إنقاذا لأخيه من

عقاب قد لا تحمد عقباه، و ذلك الذي حصل، نفذ الابن الأكبر مخطط أبيه خوفا من أن ينعت بعقوق الوالدين، و ألبسوه التهمة، و دخل إلى السجن ليمضي عقوبة لا يد له فيها، و لكي يقضي فرضا على أخيه الأصغر الذي قد لا يتحمل العقوبة فيموت في السجن.

تلك قصتي باختصار شديد. (كانت قصته عجيبة و غريبة، حاولت أن أستجمع شتاتي وأفهم، ثم سألته)

- ولهذا أنت تريد البراءة لا العفو؟
- و لغيره كذلك، أنا ألتمس البراءة لأخي الذي لم تكن له نية القتل، أما أنا، فالله يعلم أنني بذلت نفسي من أجل تكفير ذنوب لا قبل لي بها.
- ستنال ما تطمح إليه إن شاء الله.
- و لماذا تقول إن شاء الله؟ هل من الممكن ألا يقبل الله أمرا فيه خير لعباده؟
- إن شاء الله هنا ليست للاختيار، ولكنها دعاء مني و توسل إلى الله من أجل أن تقضى حاجتك.

وصف وطن.

عندما أقف أمام هذه الأسوار الإسمتية العالية للسجن و أنظر إلى أبراجه القابعة في الزوايا الأربع، و العساكر المتأهين لإطلاق النار لمجرد إشارة، ينتابني الخوف و الهلع، و أفكر في الهرب، أفكر في الرجوع من حيث أتيت، إنها من الداخل تبدو أكثر وحشة و صلابة، كأنها قبل كل شيء، عقاب نفسي للسجين الذي ينظر إليها، يفقد الأمل في الخروج، لأنه ليس هناك سجين لا يفكر في الانفلات، فهو لا يرى من العالم الخارجي إلا النجوم و السحاب و الطيور، و كل ما لا يستطيع أن يطاله حتى و هو خارج الأسوار، ولكني لا أملك إلا أن أصبر على كل تلك الأحاسيس، فالسجن، وطن السجناء.

يكون السجن أقل عظمة عندما أتصفحه و هو صورة في خيالي، تكون مسافته قريبة و أسواره أقل علوا، لكن عندما آتي إليه، يكبر و يتسع.

لست أدري لماذا يكون الواقع دائما أسوأ من الخيال، ربما لأن العقل يرسم للأشياء صورة منمقة حتى يملك القدرة على التفكير فيها بارتياح، فكل من أتعبه الواقع، يهرب بنفسه إلى الخيال، حتى دون أن يدري.

كلما جئت إلى هنا، أصابني الإحباط، و ذلك عندما ألمح بنصف عيني ذلك الطابور الطويل الممتد على جنبات الحائط العريض، و المسيح بأعمدة من الحديد الصديء، و على جنباته بعض الحراس الذين وضعوا هناك من أجل

السهر على تنظيم عملية الزيارة، فالزوار إن لم تقم أنت بتنظيمهم بالقوة، لا ينتظمون.

كل الموجودين في هذا الطابور، يضعون أمامهم قففا كبيرة مملوءة بالمؤونة، قد تجزم إن رأيتها، بأنهم لا يستطيعون حملها، أو تتساءل كيف أوصلوها إلى هذا المكان؟

هؤلاء الناس، هم السجناء حقا، إنهم يتحملون مشاق الحياة من أجل ضمان عيش كريم لأهلهم داخل السجن، ما عاد السجن عقابا للمذنبين، وإنما هو عقاب لأهلهم، وربما يحضرون لهم هنا من الأطعمة ما لا يستطيعونه وهم أحرار، وما لم يسبق لهم أن تناولوه خلال حريتهم.

معظم المصطفين في هذا الصف العجيب، نساء مثلي، تبدو عليهن علامات السخط و الحزن و عدم الرضى، بل إن من بينهن نساء إن سألتها عن الزيارة انهالت عليك بكلام مجتر من قاموس لم تعهده في حياتك، قائلة : " هذا كثير علي، فلا أنا قادرة على إطعام أولادي، و لا أنا قادرة على إطعام زوجي السجن، لقد دخل إلى الحبس و ارتاح، و تركني وحيدة أتخبط في المشاكل والهموم، و الله لو قبض الله روحه، لكان ارتاح هو من السجن و ارتحت أنا من هذا الحمل الثقيل."

و إن حدثتك نفسك بمواساتها و ذكر زوجها بالخير، و بأنه سوف يخرج يوما من السجن ثم يعوضها عن كل الذي حصل، أو أنه هو كذلك، داخل الزنزانة، لا يخلو من الهموم، أمطرتك بوابل من الهجاء قائلة: "أي هموم؟ إنه لا يفكر أبدا، إنه لا يعرف إلا كيف يأكل و ينام، هذا الذي يعتادون عليه هنا، فيخرجون لممارسته في حياتهم، لقد ابيض وجهه و انتفخ جسده و صار كالثور، هل تلك هي حال من به هم و غم و تفكير؟ دع الهم لي، أنا التي أبيت الليل كله أفكر في أولادي و طعامهم و ملبسهم، و فيه هو نفسه، لقد صرت كالجمار الذي يجير العربة المحملة بالأزبال.

و لا تظني أنه في وقت الزيارة يحس بي، و يتذلل إلي و يستسمحني ويعتذر عن الألم الذي يسببه لي، بل إنه يدخل علي منتفخا منتفشا يكاد ينفجر، لا يبتسم، و لا يتكلم و لا يسأل إلا عن أولاده، كأني أنا التي أدخلته إلى السجن."

قلوب مثل هذه المرأة مكسورة، عامرة بالأسى و الحزن و الشكوى، كثيرة في هذا الطابور، و كل امرأة هنا، قصة، و كل قصة تترك في نفسك الكثير من الألم و الاعتلال، لست أبالغ إن قلت أن كل هؤلاء الزائرين، هم بمثابة مرضى نفسيين.

و عندما تصل إلى بوابة الدخول بعد طول انتظار، تستغرق في سلسلة من الإجراءات المتكررة، بحيث تمد ورقة الزيارة إلى موظف لا تظهر منه سوى عين واحدة من ثقب صغير، فيفتحون لك الباب و يفتشونك، ثم يفتشون حمولتك.

و تنطلق في مسار طويل لتجد بابا آخر، فتمد لهم ورقة الزيارة ثم يفتشونك، و يفتشون حمولتك.

ثم تدخل إلى ممر ضيق، و تضع الحمولة لتمر عبر جهاز المراقبة، و أما أنت، فإن الحراس يفتشونك كقاتل، كأن قريب المتهم متهم كذلك.

و هكذا تتكرر العملية سبع مرات في الأبواب السبعة، حتى تجد نفسك في قاعة الاستقبال، و التي أول ما يذهلك فيها، هو هذا الضجيج الذي قد لا تسمع معه نفسك، فكيف تسمع غيرك، كأنهم يريدون أن ييوحوا بكل الكلام الذي يرهقهم خلال الغياب في هذه اللحظات، و ربما يتحدثون به أنفسهم أياما، و أما الكراسي و الطاولات، فهي من البلاستيك، حتى لا يستعملها المساجين أسلحة بينهم أو مع أهلهم و ذويهم.

جلست وحدي بانتظاره، كنت أظن في الأول بأن السجناء يقيمون قريبا من هنا، إلا أنني اكتشفت أنهم بعيدون، و أنهم يستغرقون وقتا للوصول متفرقين إلى هذه القاعة.

على يميني امرأة مسنة تعانق ابنها و تبكي، و هو الآخر يبدو مستسلماً منهاراً، الضعف مكتوب على وجهه و في حركاته و نظراته، كأنه فاقد للأمل في الحياة، ربما لأن الحياة بالنسبة إليه في هذه اللحظة تساوي الخروج من السجن والانعقاد من القيود و النظر خلف الأسوار العالية، فالإنسان بطبعه يختزل الحياة في ما يفتقده.

و على يساري امرأة تحدث رجلاً، لا أعرف هل هو زوجها أم أنه أخوها، و لكنها تبدو متماسكة و قوية و معتادة على مثل هذه الزيارات، هو كذلك يبدو غير آبه بحالته، بل إنه يبتسم و يضحك بامتلاء، ضحكة رجل سعيد لا يفكر في هم و لا يساوره غم.

كنت أتفحص وجوه الجالسين في القاعة واحداً واحداً، و كل ما أبحث عنه، دموع امرأة تشبهني، لكنني كنت موقنة أن خلف كل زائر هنا توجد قصة حزينة.

كنت أتفرس الداخلين من السجناء إلى القاعة، و لهفة الانتظار تأكلني، كنت أتخيل في ذهني مرات، لحظة اللقاء منذ ظهور زوجي حتى مغادرتي للسجن، لم تكن الصور في ذهني متشابهة، فمرة أرى نفسي أبكي، ومرة أرى نفسي أضحك، ومرة أرى نفسي أغضب، و مرة أرى نفسي أرضى، كل الأحاسيس و كل الوسوس و كل الخيالات مرت في ذهني، لكنني لست

أنكر أي في هذه اللحظة أتمنى لو أعانقه حتى تتداخل أضلاعنا، وأقبله بعنف شديد، وأتفحص وجهه وأشعر بنفسه الساخن يراودني عن نفسي، أما هو، فأنا أعرفه.

نعم، أعرف ما الذي سيفعله، إني أعرفه جيدا، وأفهم كم هو مشتاق إلي، سيحضنني بشغف، ثم... ثم نتبه إلى بعضهم قد بدأ يلاحظ ما نفعل، ثم... ثم أحجل... ثم أفك الخناق عنه شيئا فشيئا، ثم نجلس متقابلين، ثم يبدأ بالنظر إلى عيني مليا، ويدانا متشابكتين، ونحن في صمتنا الموحش نذوب، نذوب... بينما داخلنا قلوب تصرخ من وجع الفراق.

- اشتقت إليك كثيرا (قال وقد بدت اللفظة في شفثيه)
- أنا كذلك، (أطرقت طرفي خجلا، ثم قال معاتبا):
- لماذا لا تأتين لزيارتي في كل أسبوع؟
- لا يمكنني أن أزورك برفقة أمك أو أختك، أفضل أن أتركهم يزورونك أسبوعا، وأزورك أنا في الأسبوع التالي.
- معك حق، لقد خاصمتهم في الزيارة الفائتة بسبب معاملتهم غير اللائقة لك ولبناتي.

- إنك بهذا تثير غضبهم علي، إنهم رغم ذلك، يلذون في معاداتي، و يعاملوني بقسوة و جفاف، ربما قد يخترعون طرقا خفية للانتقام، حتى لا أجد دليلا على كلامي.

- و ماذا أفعل؟ هل أسكت؟ لا أستطيع.

- هكذا، أنت تريدني أن لا أحكي لك مرة أخرى، لقد سئمت من الصراع و الهم و الغم و الخصاص و سم البشر.

- كيف تقولين بأنك سئمت؟ أنت الآن في أول الطريق، لازالت السنين مترنحة أمامك، اضحكي لهم و ابتسمي، و انسي كل ما من شأنه أن يثير الضغائن.

- كيف أبتسم و أنا كارهة؟ أأبتسم على طريقة سيدي عبد الرحمان المجدوب: "السن يضحك للسن و القلب فيه خديعة"؟

- نعم، افعلوها إن كانت ستنفعلك و ترفع عنك الهموم و تغنيك عن الصراعات، فالمرأة لا تكون خطيرة إلا في حالتين، عندما تستخدم عقلها، و عندما تكره بسبب الحب.

- لقد صرت تتكلم بعقلية قاتل، كل التصرفات الغير اللائقة تعتبرها أقل ذنبا من ذلك، و لذلك صرت ترى كل شيء مباحا، الكذب و النفاق و السرقة، و صرت لا ترى ذنبا، إلا القتل.

- لأن كل شيء قابل للتدارك مادامت الروح تدب في الجسد، أما القتل فهو ينهي كل شيء، و ينقلك من عالم الأعمال إلى عالم الحساب، ثم لا تنسي أن القاتل يحمل معه إحساسا غريبا، بأنه هو كذلك مقتول، أنت بهذا تقتل نفسك في الآخرين، تماما كما تقتل الآخرين فيك.
- و ما الذي دفعك إلى ارتكاب القتل ما دمت تفكر بهذا المنطق؟ و ما دمت تعرف كل هذه الأشياء؟
- قليلة هي الأعمال التي نرتكبها في حياتنا و نحن راغبون فيها أو مدركون لها، كل الباقي مكتوب علينا و مقدر من قبل أن نولد.
- و من قدره علينا؟
- الله... الله هو الذي قدر كل شيء، و ما نحن إلا عبيد ضعفاء تحت رحمته.
- و هل الله هو من دفعك إلى القتل؟
- كل شيء مكتوب في كتاب، هذا ما يريخني و يجعلني أعدل عن التفكير في الانتحار أو الانتقام من نفسي، لقد كان مكتوبا علي أن أقتل هذا الرجل منذ ولادتي، لكنني لم أكن أعلم بالأمر، لو كنت أعلم، لانشغلت كل حياتي بتغيير منحي القدر.
- مهما فعلت، لا يمكنك أن تغير القدر، و مهما هربت من قدر، فأنت ستجد نفسك غارقا فيه، و لن تفعل إلا ما كتبه الله لك، و على حد قول ابن الرومي:

- طامن حشاك، فإن دهرك موقع بك ما تحب من الأمور و تكره
و إذا خشيت من الأمور مقدرا و هربت منه، فنحوه تتوجه
- ها أنت الآن عدت إلى فكري، ألم أقل لك؟ إن كل شيء مكتوب في كتاب،
نحن فقط نعيشه كما كتب.
- لكنه كتب بعد أن عشناه و ليس قبل، هذه الحياة ما هي إلا مرآة حياة حقيقية
نحن لا نعرفها، لكننا عشناها، لذلك فأنت تحس في بعض الحالات بأن بعض
المشاهد تتكرر في حياتك، فتقول في سرك: "كأنني عشت هذا المشهد، أو كأنني
رأيت من قبل".
- كنت أشعر بأن كلامي هذا يزعجه، فأنا أعرف بأنه يحاول أن يخلق
لنفسه منظومة فكرية تتماشى مع ما يريده من أعذار، فكلامي و حججي تجعل
التهمة محض إرادته، أما هو، فكأنه يحاول أن يثبت لي بأن الإنسان مصير،
مسلوب الإرادة.. و حان موعد الوداع، فأوصاني كعادته، و ابتسم في وجهي،
و عانقني، و اختفى خلف الباب الصغير.
- لم تكن إجراءات مغادرة السجن بنفس صعوبة الدخول إليه، و لم أنتبه إلا حين
وجدت نفسي خارج الأسوار، كانت الشمس حارقة، و كان الظل بعيدا عني،
و هو ما أرغمني على المشي نحو محطة سيارات الأجرة خالية اليدين، إلا من
بعض الذكرى المؤلمة.

قوة القانون.

القانون، مسطرة في الرف، و آلة تعزف.

داخل السجن، كنا نحاول دائما أن نفتعل مواضيع و نناقشها، يحصل هذا غالبا بعد العشاء، حين تطفأ الأنوار، و يدق الناقوس المسمى (الزواكة) معلنا عن خلود كل سجين منا إلى فراشه، كان حديث الليل طويلا و شجيا، كنت أشعر بالكثير من القرب و أنا أنصت إلى أحدهم يحاول أن يهون علينا المصاب، و كنت أعرف في الغالب بأن "عبد الكريم" الذي يحتل السرير الموجود فوق سريري قد نام، و كنت أستمع بشخيره الهادئ.

لو تدري كم أحبك و أنت تتكلم في الظلام، و صوتك وحده يصلني مخترقا سواد الليل، و أنا لا أراك، فقط أتخيلك، و أصنعك في عقلي كما أريد، بوجه بشوش و ملامح صافية و عينين ذابلتين و ثغر مبتسم، أعرف أنك لست كما أراك الآن، لكنني أحمد الله أن الظلام أخفك عني، و أخفى معك كل العيوب، و كل ما من شأن العين أن تدركه قبل الكلام.

لو تدري كم أرتاح لكلامك الجميل حتى إن كنت لا أفضل الإنصات إليك و أنا أراك، و أشكرك في نفسي، و أشكر أنك تبذل جهدا كبيرا لتدفعنا إلى النوم على نغمات الأمل و لو كان كاذبا، ولكن نفوسنا كانت تصدقه، لأنها كانت تريده و تتمناه.

فهل تدري؟

و ربما أنت كذلك تشكرنا في شرك على مساعدتك أن تمارس رياضة الكلام كما تريد، فكل فعل جميل، متبادل حتى إن لم ننتبه إليه.

كان السجين "كونار" يلعب دور المستشار القانوني بيننا، لخبرته الكبيرة في الجرائم والعقوبات، وحتى في القوانين، يكفي أن تحكي له قصتك لكي يجبرك بالمسطرة القانونية والحكم، بل لقد تحول مرات عديدة إلى قاض ييث في كل الجنح والجنایات التي نعرضها عليه، ثم إلى محام يدافع عنا بشراسة خلال الجلسات الوهمية و نحن منبطحون في أسرنا، إذ كنا نشق فيه كثيرا، ونعلم أن كلامه صحيح، رغم اعتراضنا على الطريقة السوقية التي يتحدث بها، والتي لا يد له فيها ولا قدرة لنا على تغييرها.

كان يقفز من فوق سريره، يلعب كل الأدوار و يبدل الأصوات صادحا:

- ما هي الأداة التي استعملتها في قتل صديقك؟
- لم أقتل صديقي يا سيدي القاضي.
- وماذا فعلت؟
- لقد كنت في حال الدفاع عن النفس، و كنت سكرانا، و كان يريد أن يعتدي علي و يستولي على ما بحوزتي من مال.
- ثم قتلته؟ (مفتعلا ضحكة انتصار)

- إنه كان سيقتلني لولا أنني دافعت عن نفسي. (يفتعل البكاء)
- ثم قتله. (مفتعلا ضحكة انتصار، ثم تدخل صوت آخر يبدو أنه محامي الجلسة)
- اسمح لي سيدي القاضي، فموكلي الآن في حالة لا تسمح له بالتفكير، إنه شبه منهار و مرهق، و قد عانى من آثار التعذيب و الضرب من طرف عناصر الشرطة، كما اعترف بأشياء لم يفعلها، و لذلك ألتمس من سيادتكم تأجيل موعد الجلسة إلى يوم قادم، و ذلك من أجل توسيع عملية البحث و العثور على قرائن جديدة.
- رفعت الجلسة.

كان الوحيد الذي يملك الجرأة على مناقشته في الفصول و القوانين هو "الأستاذ"، ليس لأنه درسها، ولكن فقط لأنه مهووس بالمطالعة و القراءة التي فتحت عينيه على فصل يردده في كل مرة عند النقاش قائلا: "لا يعذر أحد بجهله للقانون"، و كنت أعرف بأنه يقول هذا لكي يدفعنا إلى القراءة دفعا.

كنت أعف عن التدخل في الحوار و طرح الأسئلة، على الأقل لدرء هذا الغموض الذي يلف قضيتي، فقد مر أكثر من عام من الزمن و لم ينطق بالحكم علي بعد، كان الخجل يعقد لساني و يخرسه عن الكلام.

كنا في كل ليلة نسطر برنامجا و نسير على نهجه، و أتذكر الليلة الماضية، بحيث كان برنامجنا فكاهيا، و كان كل واحد منا يفعل شيئا من أجل إضحاكنا، بحيث يروي لنا قصة أو حكاية أو نكتة أو حتى حدثا عاشه في حياته، كنا نبدع كثيرا لأن معظم الحكايات قد مرت أمامنا، و صار الواحد منا يحاول أن يتذكر بعض دقائق حياته التي ربما لم يتذكرها مذ حصلت، و يضيف عليها بعض السخرية ثم يحكيها لنا.

كان "كونار" كذلك أكثر إبداعا في هذه الفقرة، فحكاياه لا تنتهي، بل إنه كان يحكي ما حصل للآخرين ممن عرفهم في السجون قبلنا، كان يضحك طويلا قبل أن نفسح المجال للحكاية التالية.

لم أكن أعرف أن في الحياة أشخاصا لم يخلقوا من أجل الضحك، فلا هم يضحكون الآخريين، و لا هم يضحكون على قصصهم، كانت تلك هي حالة الشاب الثلاثيني "عبد الكريم" الذي ينام في السرير الموجود فوق، فرغم وجوده بالقرب مني، فإني كنت لا أسمع له ضحكة و لا حتى ابتسامة، كان صامتا كأنه حجرة، لا يحكي، لا يتكلم و لا يضحك، و كان "كونار" يسخر منه قائلا: "تكلم يا صاحبي، هل أنت ميت؟"، ولكنه كان لا يجرؤ على الإجابة، و يكتفي بالنظر إليه نظرة غير مفهومة.

و أما "الأستاذ"، فإنه كان يمتعنا بالكثير من حكايا الأدب العربي، و أتذكر جيدا كم حكي لنا من بعض قصص البخلاء للجاحظ، و قصص "كليلة و دمنة" لابن المقفع، كان يرويها على ألسنة الحيوان، و كنا نجد فيها الكثير من المتعة، و أما نحن الثلاثة الباقون، فكنا نجتهد كثيرا في النكت العامة التي قد نكررها و نضحك عليها، وكان يضحكني أكثر "كونار" عندما يقول: "بعد انتهاء النكتة، اضحك عليها، أو اضحك على الذي حكاها، المهم ألا تسكت".

أتذكر كم حكيت لهم عن المرأة التي روت لزوجها في الصباح حلما رآته، بأنه اشترى لها سيارة، فقال لها اذهبي أكلمي الحلم ربما تموتين في حادثة و أتخلص منك.

و أتذكر عندما حكيت لهم عن المعلم الذي قال للتلميذ يشرح له رد الأمانات إلى أهلها: يا ولدي إذا أعطيت لأبيك ألف درهم، فكم سيرد لك؟ أجابه التلميذ: لا يرد شيئا، فقال له المعلم: يا ولدي أنت لا تعرف الأمانة، فأجابه التلميذ: إنك أنت الذي لا تعرف أبي.

لقد كنت أضحك كثيرا قبل أن أروي النكتة، حتى أكاد أفسدها، واكتشفت حينها، أن كل ما كان يحصل لي في حياتي، كل ما كنت أعيشه، كل ما كنت أسمعه و أراه، قابل أن يترجم إلى لحظات سخرية، فقط كنت لا أتدبر ذلك و لا أدركه، لأنني كنت أتعامل مع الزمن بجفاء، و أحسبه بالأيام

والأسابيع و ربما الشهور، أما اليوم، فإن الزمن قد تقلص و صار بطيئا، و أحسبه بالساعات و الدقائق و ربما بالثواني، فلا ضير إذن أن أُنْتَبِه إلى أصغر الجزئيات في حياتي.

و أما اليوم، فقد اتخذ الحوار منحى قانونيا، كان الظلام يعم المكان، وربما نام "عبد الكريم"، فنفسه منقطع، إنه ينام كأنه يموت، بينما قال "كونار" جوابا على تساؤل غبي لي:

- القتل العمد في القانون المغربي، يعتبر جنائية، يطبق عليها الفصل ٣٩٢ من القانون الجنائي الذي يقول: (كل من تسبب عمدا في قتل غيره، يعد قاتلا، و يعاقب بالسجن المؤبد). (تدخل الأستاذ قائلا):
- و في التشريع الإسلامي، القاتل يقتل. (أجاب كونار)
- في حالة ما إذا كان عند القاتل سوابق جنائية، فقد يتحول المؤبد إلى إعدام، لأن السوابق سوف تعتبر بمثابة ظرف تشديد، لكن الإعدام هنا في المغرب هو أن تموت في السجن و لا تغادره أبدا. (كنت أحاول أن أجد في كلامه بعض ظروف التخفيف، فتساءلت):
- و ماذا لو تنازلت أسرة الضحية عن متابعتها للقاتل؟ (كان "كونار" وحده يجيب):

- في هذه الحالة يتم تحرير محضر للضابطة القضائية، و يمثلون أمام وكيل الملك، ثم تتم إحالة الملف إلى الجلسة العلنية المكونة من قضاة و وكيل عام في محكمة الاستئناف، لأننا هنا بصدد جناية و ليس جنحة.

- و هل يلعب التنازل دورا في تخفيف العقوبة؟

- التنازل لا يعفيه من العقوبة، لأن هناك دعوة مدنية و دعوة عمومية، فإن تم التنازل عن الدعوة المدنية من طرف أهل الضحية، و تخلوا عن حقوقهم مثل التعويض عن الضرر الذي أصابهم بسبب القتل، فإن الدعوة العمومية تبقى قائمة، تحركها النيابة في شخص الوكيل العام للملك، و تصدر في حق الجاني الحكم بالمؤبد للجريمة التي ارتكبتها، و عليك أن تعلم أن هذا الحكم هو كذلك بمثابة الحماية للقاتل، و في الغالب يستأنف المحكوم، لكن النيابة تؤيد الحكم.

- هل هذا يعني بأنه ليست هناك سبل للخروج من السجن؟ (استمر "كونار" في الإجابة عن الأسئلة كأنه خبير في القانون):

- هناك سبل، لكنها ليست فورية، من بينها طلب العفو، لكن عليك أن تتحلّى بسمعة طيبة و أخلاق حسنة و معاملة جيدة داخل المؤسسة السجنية، و بالطبع هذا لن يحصل إلا بعد أن تقضي سنين عدة، لأنك قاتل، لكن عليك أن تعلم أن العفو نفسه يباع و يشتري، بحيث أن تجار العفو الملكي يتصيدون فرص

الأعياد الوطنية و الدينية و بعض المناسبات، لبيع الإعفاءات للسجناء الذين يؤدون الثمن. (لا أنكر أن أنفاسي قد ضاقت عندما سمعت هذا الكلام، فإني قد أحسست بأنه لا مفر من هنا، و إني أحس بأن كل مكان أكون فيه، أفضل من هذا المكان، حيث تعيش مسلوبا من الحرية، ثم تساءلت):

- و ماذا بخصوص الثغرات القانونية؟ (ضحك "كونار" مليا، كأنه يعرف ما بنفسي ثم قال):

- كل الأبواب مقفلة أمامك، فإنك لم تدخل إلى السجن من قبل، و يوم دخلت إليه، كانت جنايتك لا تغتفر، الثغرات القانونية قد توجد في الجرائم التي تتراوح آجالها بين مدة و مدة، جرائم و ليست جنایات، و بذلك يحاول المحامي أن يتحايل على الفصول ليسحبك إلى الفصل حيث يكون الحكم الأقل، و أما في حالتك، فليس هناك اختيار، فأنت قاتل، و القاتل يقتل، و عندنا يحكم عليه بالمؤبد، سطوب.

كنت أنظر إلى هذا السواد الذي يغلفني من كل مكان، و كانت كلمات "كونار" قد أفقدتني كل أمل في الخروج من هذا الجحر، كان الآخرون قد خلدوا إلى النوم، لا حس و لا خبر، و هم لا يدركون بأني استسلمت للأرق، و أذعنت للهواجس و الوسوس، فكرت كثيرا، لكنني كنت دائما أصل إلى الباب المسدود، لا يمكنني أن أجد حلا لما أنا فيه و أحفظ بإنسانيتي في نفس الوقت،

لا بد هناك ثمن، فإما أن أفقد حياتي و أغادر إلى المقبرة، و إما أن أفقد إنسانيتي
و أغادر إلى مستشفى المجانين.

كان الجميع يغطون في سبات عميق، و في النوم أنت تتحرر من سجنك،
وتخرج بخيالك إلى العالم الفسيح، و تعيش الحياة كما تتمناها، ولكنهم تركوني
هنا وحيدا داخل الأسوار، أحملق في السواد، لم أتذكر متى نمت.

الأستاذ.

أنا أستاذ اللغة العربية، أفنيت حياتي في تعليم الطلاب قواعد الأدب، كنت أنفق من عمري أفضل السنين، و أقطف من شبابي أجمل الورود، و أفني صحتي في سبيل ترديد كلمة أو جملة على مسمع تلميذ غبي حتى يحفظها، كنت لا أكل و لا أمل من تكرار مقرر الدراسة في كل عام، لأنني كنت أحس بأني بهذا، أقوم بعمل على أكمل وجه، حتى إن تهيأ لي بعد بضع سنين من العمل بأني صرت كالحمار، أحمل نفس المحفظة، ونفس الأغراض، و أمشي في نفس الطريق، و أدرس نفس المقرر، و أردد نفس الكلام، يتجدد التلاميذ في كل عام بحيث يتسلقون مدارج العلم المتعددة و المتشعبة، و أتقدم أنا هنا، و أبدو بالنسبة إليهم مع مرور السنين كسلم، كورقة باهتة بفعل تعاقب الندى و ضوء الشمس.

كان علي أن أتسلى لكي أدرأ عني الملل، و كان لي صديق أستاذ مدمن على الخمر يقول لي: "إنك لن تستطيع تحمل أعباء القسم بعقل ثابت و نفس مطمئنة"، فما كان مني إلا أن أرتمي في أحضان الخمر التي لعبت برأسي و جرعتني المر، فصرت سكيراً عريداً لا أتوقف عن إضحاك الآخرين من حالي البائس، و امتنعت طويلاً عن الذهاب إلى القسم لتأدية عملي، و جاءتني الإنذارات

تباعا، لكنني لم أهتم لأمرها، و كنت أسعد كثيرا حين أنال أجرتي في آخر الشهر.

و في يوم من الأيام، لم أتوصل بها، فلما سألت عن ذلك قيل لي بأنه قد تم توقيفي عن العمل، و أني لم أعد موظفا، و لذلك تم حبس أجرتي إلى أجل غير مسمى، لأنني لا أعرف ماذا سيقدر المجلس التأديبي بشأني، هل سيتم توقيفي أم طردي؟

انعكس هذا الأمر سلبا على علاقتي، مع أصدقائي الفضلاء و مع عائلتي و كل أقربائي، بينما كنت لا أبالي بذلك، لأنني حينها كنت فاقدا كليا لحاسة التمييز، فبت لا أصحو من سكري ليل نهار، و صاحبت العالة و رعا القوم، و صرت لا أشرف كل من أنتمي إليه أو صاحبه أو حتى أحدثه.

و سرت طويلا في درب الهلاك، حتى وجدنتي أبيع بيتي بدم بارد، و أشرد أسرتي، و أدفعهم إلى أن يكرهوني، و خرج صغاري مع أمهم التي ضحت بحياتها و عانت كثيرا من أجل تربيتهم و تعليمهم، أما أنا، فقد بذرت ثمن البيت في أيام، و لم أفكر حتى وجدنتي خاليا، إلا من بعض أسامي القديمة.

كل الناس حولي كانوا يرثون لحالي، و منهم من كرهني من أجل ذلك، و منهم طلاب دراستهم تخرجوا و بلغوا أعلى الدرجات، و كانوا عندما يلقونني

يسلمون علي ويخبروني بذلك، و منهم من يعانقني ويكي لحالي، و منهم من يسخر مني.

لقد كان المجتمع رحيمًا بي، لأن الناس رغم كل شيء، كانوا يلقبوني بالأستاذ، أو على الأقل، الأستاذ السكير.

"الأستاذ"، كان عملي، فصار لقيبي.

صرت أبيت في العراء دهرا، وأصاحب دنية القوم، من السكارى والمشردين و اللصوص و المعدمين و غيرهم، و نسيت نفسي، و نسيت أهلي، و نسيت بأن العمر يمضي، و أن العقارب تدق في كل مرة تنذرني بقرب الرحيل، واستغرقت طويلا فيما أنا فيه، لأنني لم أجد عنه محيدا.

عشت التشرّد سنين طويلة، ولم أبال بكلام بعض الناصحين الذين كانوا يوقفوني طويلا و يقدمون لي النصائح، و يحاولون تنبيهني قبل فوات الأوان، و منهم من كان يدفعه تعاطفه معي إلى مساعدتي ببعض المال، لكن الرفقة السيئة، كانت تحجب عني الحقيقة.

لقد وقعت لي أحداث كثيرة، كان علي أن أنتبه لواحد منها فقط، لكي أملك الحجة الكافية للإقلاع عما كنت فيه، ففي يوم من الأيام دس لنا أحد أصدقائنا المشردين سما في الطعام، لا ندرى هل فعلها لسبب أو بغير سبب، و كدنا نموت لولا أن تدخل رجل كان عائدا من صلاة الفجر فوجدنا نتلوى من

الأم فأتصل بالإسعاف، فحملونا إلى المستشفى سريعا، و لولا لطف الله، ولولا ذلك الرجل، و لو بقينا هكذا حتى يطلع النهار، لكنا في عداد الأموات.

و في يوم آخر، كنا في حي بعيد نبحت في حاويات الأزبال ليلا عن بعض البقايا نبيعها صباحا و نتدبر أمرنا بها، فهجم علينا كلب كبير مدرب، فكاد يقتلنا جميعا و نحن سكارى لا نعرف حتى إلى أين نهرب، إن صاحب هذا الكلب قاتل، لأنه يعلم جيدا أنه سيقتل كل من وقع في طريقه، و منذ ذلك الحداث، أصبت بفوبيا الكلاب، و صرت أكرهها و أخاف منها، و أرى الكلب من بعيد فأهرب.

لكن الذي حز في نفسي، هو ما حكاه لي أحد الذين كنت أرافقهم ذات ليلة، حين جاء ابني يبحث عني، كان يريد فقط أن يراني و يسلم علي، لكنه وجدني سكرانا حتى الثمالة، كان مغشيا علي، كنت غائبا عن الوعي، و حاول أن يوقظني دون جدوى، و بكى كثيرا و حزن، و فقد الأمل في أبيه، و ذهب ولم يعد.

ليتني كنت أعرف أنه سيأتي، كنت بقيت في وعيي ذلك المساء، كنت استعددت لقدمه و عانقته، لقد كنت أجهل أني مشتاق إليه، و الأمر الذي ألمني أكثر، هو أن أحدهم كان حاضرا، فقال لابني: "يا ولدي، أبارك الله في أبيك، اذهب و ابحت لك عن أب غيره، فإنه ميت".

و كما أن للإنسان يدا قد تتحكم في القدر، فإن للقدر يدا تتحكم في الإنسان، اللعبة هنا متبادلة، لكن القدر لا يفشل وإن ربحت، ولا يتعثر وإن غلبته، و لا يؤدي الثمن وإن أسقطته أرضاً، و أما أنت، فتفشل، و تتعثر، وتؤدي الثمن بلا حساب.

كنت مع أصدقائي المتشردين بدون مأوى، كنا نحتل بعض المساحات المتسخة قرب المزابل أو في الأماكن المهجورة التي لا يتجرأ حتى رجال الأمن للذهاب إليها، فنشعل نارنا و نشرب كؤوسنا و نمارس شذوذنا، و نقرع الطبول و نغني و نرقص، كنا نتوهم بأن الدنيا جميلة، و أن ما نعيشه هو الحياة. كنا نسهر كثيراً، و لا ننام إلا عندما نعب شرابنا بالكامل، فكنا في الغالب، نفقد وعينا في آخر الليل أو في تبشير الصباح، وحينها، قد تحصل لبعضنا أشياء خطيرة، و قد يتلاعب بعضنا بالآخر.

لكنني بكل صراحة، لا أتذكر هل تلاعب بي أحدهم، لأنني أكون فاقدا للوعي، ثم إنهم يؤمنون بأن كل أفراد مجموعتهم بمن فيهم أنا، قد تعرضوا للاغتصاب في لحظة أو لحظات، لكنني لا أومن بهذا، لأنني لا أحبه، و لا أصدقه، و حتى إن كان دبيري يؤمني، فإني أعرف أن الأمر لا يتعلق باغتصاب، إنها فقط أعراض البواسير بدأت تتتابني بفعل البلية و التقدم في السن.

و ذات يوم، داهمني نوم عميق، فوجدتني أمام فسحة في باب منزل جميل، افترشت صفحة كرتون كانت لا تفارقني ثم استلقيت على ظهري ونمت، و لم أستيقظ، إلا على "رجل أمن" ينهش صدري بأصابعه اليابسة، كان رأسي يؤلمني كثيرا، فزعت من نومي فوجدت رجال الأمن يحيطونني، لم أنتبه لغير ذلك، فوضعوا السلاسل في يدي، ثم حملوني في سيارة الشرطة إلى مركز الأمن، و رموني في زنزانة مظلمة ريثما يأتي أحدهم ليستنطقني، و أعرف في الغالب لماذا أنا في هذا المكان، ربما يتعلق الأمر بحملة أمنية.

مرت علي ساعات من الانتظار، كنت خلالها مرتاحا مطمئنا، إلا من جهلي بسبب القبض علي، و لا ضير، فقد حصل هذا مرات خلال بعض الحملات التطهيرية التي يقومون بها لغرض ما، و في الصباح يطلقون سراحي. ثم أخذني رجل الأمن إلى الاستنطاق، يقولون بأنهم سيقومون بإعداد محضر لي، كان هذا غريبا علي، لم يحصل من قبل أبدا، كانوا يسجنونني ويتخلصون مني في الصباح، إنني ألفت هذه الحال منذ مدة ليست بالقصيرة.

و بعد تسجيل معلوماتي الشخصية، و بعد التأكد من أنني متشرد أفقد حتى بطاقة الهوية، كان الشرطي يسجل ما يسمعه مني دون استفسار، و كنت مستغربا أنتظر أن يطلقوا سراحي، لكنني لم أنتبه أني أخطأت في بعض معلوماتي، حتى اسمي ما عدت أحفظه لو لم يذكرني به، لأنه يعرفني مذ كان

صغيراً، وربما درس عندي، فأنا هنا معلم الأجيال، وربما الآخرون يعرفونني أكثر مني.

ثم بعد ذلك بدأ بطرح أسئلة أثارت دهشتي و استغرابي، كأنه يستفسرني عن جريمة قتل أنا واحد من المتهمين فيها، وربما أكون شاهداً، لكنني أخبرته بكل شيء، فأنا سكير عرييد أشرب حتى أنام، فلا أصحو إلا على أشعة الشمس تلفح وجهي أو على أصوات الصغار يلعبون بجنبي و ربما يعتبرونني واحدة من الأحجار التي تشكل العابهم.

فهم الشرطي أنني أحاول بهذا الاعتراف القبيح أن أبعد عني كل اتهام يفكر فيه، فحدث نفسه كأنه قال لي: "لو قال لك أحد مثل هذا الكلام لما رضيت به."

الموضوع يتعلق برجل مقتول في المنزل الذي كنت نائماً أمام بابه، ضربه أحدهم لرأسه ضربة قاتلة فهرب و تركه غارقاً في الدماء، جاء صديقه في الصباح لزيارته، فوجد الباب مفتوحاً، و وجدني نائماً أمامه، فدفعه و دخل، فوجد الرجل مقتولاً، فاتصل برجال الأمن، فكنت أنا الشاهد الوحيد في هذه الجريمة.

لكني لا أتذكر هل كان الباب مفتوحا قبل أن أنام، فإن وقعت الجريمة بعد نومي، فكيف لم أنتبه إليها؟ وكيف لم أنتبه إلى القاتل وهو يمر فوق جسدي ويرد الباب ويهرب؟ هل كنت ميتا؟

لكن الشرطي كان يطمئنني، و كنت مطمئنا حقا بقوله: (لا تخف، فإن الروح عزيزة عند الله، و المجرم لا بد يظهر).

أعادوني إلى الزنزانة المظلمة، و التي كان لا يصلها الضوء الكافي ليجعلك تتبه إلى نفسك، ثم بعد ساعات، حضرت لجنة من الشرطة العلمية، كأنهم أطباء حضروا من أجل تشريح جثة، فأخذوني إلى غرفة جميلة خاصة، وبدأوا بمساءلتي و فحصي.

كانت أعينهم تتفحصني بإمعان، حتى إني أخاف أن يقرأوا في ثيابي علامة ما بشكل غير صحيح، لأنهم هنا لا يفكرون في تبرئتي كما أفكر أنا، ولكنهم يفكرون في إيجاد دليل على الجريمة، مهما كان بسيطا. نزعوا ملابسني، كل ملابسي.

خجلت في الأول أن أنزع الثياب الداخلية، لكن شرطيا جرها كأني طفل صغير قائلا: "و هل نحن في الخجل الآن؟".

بقيت عاريا كما ولدتني أمي، و الأسئلة تنهال علي من كل مكان، فكلما لاحظوا أمرا استفسروني عنه، و مرات أسبقهم للجواب قبل السؤال،

فأعلمهم بأن السروال الملطخ كان بسبب سقوطي في الوحل ليلة أمس، وأن نقطة الدم التي في كفي هي من جراء عراك مع صديقي حول قارورة خمر، حتى انتهرني الدركي وأمرني بالصمت، وأن لا أجيب حتى يسألني.

و جاء أحدهم، والذي فهمت بعد ذلك بأنه طبيب، وأخذ عينة من لعابي، و تفحص بالمجهر جسدي، و تفحص قضيبتي و مؤخرتي، و هو يقول: "و من يدري؟ لعله اغتصاب؟"، لكنني سخرت منه في سري.

كانوا لا ييوحون لي بنتيجة، كانوا فقط يفحصون و يكتبون، و بعد ساعات، أمروني أن ألبس ثيابي و أعادوني إلى الزنزانة.

لم أكن قادرا أن أسأل أحدهم: "هل وجدتم دليلا ضدي؟" خفت أن يضيفوا هذا السؤال إلى نقطتهم التي سجلوها و يحاجوني به، فبعض الكلام دائما يكون حجة لك، ولكن أكثره في الحياة يكون حجة عليك. كنت مرميا في الزنزانة لا أفهم شيئا، و لا أعرف شيئا، و لا أسألهم عن شيء، كنت أنتظر أن يأتي إلي أحدهم فيخبرني بكل جديد في الموضوع، لكنه تأخر عني كثيرا، و اختلطت علي الأحاسيس، و بدأت أشعر بالذنب يدب إلى نفسي كأني فاعل شيئا، لكنني في لحظة، طردت كل تلك الوسواس مرة واحدة، وعدلت عن التفكير.

و بعد أيام من البحث العميق، و من الشهود و الاستطلاع الميداني، لم يجدوا متهما غيري، و لم يجدوا قاتلا غيري، ربما لا يصدقون أنفسهم لأنهم يعرفون طبائعي، ولكنهم يصدقون القرائن التي بين أيديهم، و هم يعرفون بأن طبائع الإنسان قد تصير شاذة مع مرور الأيام، حتى بالنسبة للأسوياء.

أعادوا معي البحث مرات كثيرة، و في كل مرة كنت أرى أن يقينهم بضلوعي في هذه الجريمة يزداد، و كنت أتساءل في نفسي عن أسباب هذا اليقين، لكنني لا أجد جوابا مقنعا، ربما تندلع من بين ثنايا كلامك و أفعالك و تصرفاتك تم أنت لا تدركها و لا تحسها، ولكن الآخر ينظر إليها بأعين جاحظة.

ثم حملوني إلى المحكمة فالسجن، و بعد الكثير من الأخذ و الرد، ثبت لهم أنني أنا المتهم الوحيد في هذه الجريمة التي لا علم لي بها، حكموا علي بالسجن المؤبد، و رموني هنا في هذه الزنزانة الكئيبة، لم أقبل هذا الأمر في الأول، كنت أحسب أنني أتمتع بالحرية خارج السجن، فوجدت بأنه لا فرق بين هنا و هناك، و أنني هنا أفضل، لأنني تخلّيت فجأة عن الخمر، و عن حياة التشرّد، و عن أصدقاء الضياع.

لكنني كنت أحس بالراحة النفسية رغم كل هذا، لأنني موقن ببراءتي، ولأنني لا أثق في تحرياتهم، حتى إن كانوا قد وجدوا بقعا من الدم في ثيابي و في

وجهي، و كنت لا أراها، لأنني لم أنظر إلى المرأة، و لم يززعز ممثل النيابة العامة ثقتي في نفسي، حتى إن كان يعلن جهارا بأن تحليلات الطبيب الشرعي تؤكد بأن بقع الدم التي في جسدي هي للقتيل، فأنا أقول دائما ربما يبحثون لهم عن متهم مهما كان الأمر، وذلك من أجل إغلاق هذا الملف، في ظل غياب القاتل الحقيقي.

و لست أنا القاتل الحقيقي.

و بعد شهور طويلة من العلاج النفسي و علاج الإدمان، و بعدما استقرت حياتي على ما أنا عليه الآن، بدأت أشعر بأني أسترجع الكثير من الذكريات التي مرت علي منذ سنين الضياع و التشرذ، كيف كنت أغفلها طوال هذه السنوات؟ كيف كانت تحتفظ بها ذاكرتي بينما تغيب عن وعيي؟ و لماذا صارت تمدني بها الآن تباعا كقطرات الندى؟ هل تعاقبني بهذا؟ هل تثبت لي بأن الحقيقة لازالت تطاردني مهما تنصلت منها و مهما تجاهلتها؟

نعم، كنت في حلم طويل لا تفسير له، و اليوم بدأت أستيقظ، و أكتشف بأنني كنت أعيش كابوسا مرعبا، و أني لولا هذه الجريمة، كنت سأموت دون أن أكتشفه.

لقد تذكرت بأن أقرب صديق إلي كان يغتصبني مرات، بعدما كان يضع في شرابنا منوما لا نستطيع معه الاستيقاظ، و ربما يغتصب غيري في نفس

الليلة، و كنا لا نحس بذلك و لا نفكر فيه، و حتى الأعراض التي في أجسادنا لا نصدقها لأننا لا نشك.

لو كتب لي أن أراه مرة أخرى لقتلته.

و تذكرت بأني ذات ليلة بعدما لعب الشراب بعقلي، غادرت المكان، و تهت بين الأزقة و الشوارع، حتى وجدتني في منزل رجل أعرفه منذ القديم، كان هو الذي سحبني إلى الداخل كأنه يريدني في أمر، و شربنا ما كان بحوزته من خمر، و غلبني النعاس، و نمت بجانبه، و في لحظة، فزعت من نومي كأن أحدا دفعني للقيام، فوجدته يفعل معي نفس الرذيلة، إنه يغتصبني، و لم أتمالك نفسي، حملت آنية كانت أمامي و ضربته لرأسه، فسقط صريعا، ما كنت أظنه قد مات، فخرجت سريعا هاربا، حتى وجدتني متهما بجريمة قتل في ظروف أجهلها.

بعد هذه الذكرى المؤلمة، لم أعد مرتاح البال، لقد صرت مكتئبا، وكدت أموت من الغم، لا أصدق بأن أكون قاتلا متعمدا.

لا أحد يدري من بين هؤلاء الذين يحيطون بي، بأني رجل لا يمكن أن يقتل حتى ذبابة، فالذين عاشوا معي منذ الطفولة يعرفون هذا جيدا.

لم تكن لدي الجرأة حتى للنظر طويلا في عيني من يظلمني و لو لكي أقول له: لا تقس كثيرا علي.

كنت في كل حياتي أجد العناء حتى في طلب كأس ماء من نادل مقهى،
بينما يكاد يقتلني العطش.

كنت خجولا حد التفريط في حقي.

لا أحد هنا يعرفني، هم يعرفون فقط، بأني قاتل.

لا أحد هنا يريد أن يفهم بأني رجل طاعن في السن، و أني كبرت على
العتاب و على اللوم و على أحاسيس الصغار المراهقة.

لا أحد قادر أن يفهم بأني تجاوزت كل التحولات التي تطرأ على جسم
إنسان و على حس إنسان، و أني جامد كصخرة في الثلج.

لكن الذي حصل، هو أنني عانيت من وباء عل نفسي، إنه الظلم
المطعم بالشهامة.

لكن أتعرف ما معنى الشهامة؟

الشهامة أن يظلمك خسيس القوم، و يضربك، و يستمتع بالاعتداء
عليك أمام الناس، ثم بعد ذلك تجد نفسك مرغما على مساعدته لأنك محتاج إليه
في أمر ما أنت لا تستطيعه و هو يملكه دون أن يعرف قيمته.

أتعرف ما هو أكثر من الشهامة؟

أكثر من الشماتة أن تجد نفسك مضطرا أن تضع يدك في يده، و تمشيا كأخوين في الشارع، و هو يعلن للآخرين أمامك جهارا، بأنه لن يعتدي عليك مرة أخرى.

سأخبرك بشيء، لا يمكن لأمر أن يمحو هذا العار الذي سيظل موشوما في جبهتك كلما رآك الآخرون و سخرؤا منك بينهم، إلا أن تتغير، فإن لم تفعل ذلك، فاعلم بأن نفسك ماتت، ماتت.

السجين "كونار"

ربما لا أحد هنا يعرف اسمي، فأنا نفسي كنت لا أتذوقه عندما تنطقه امرأة واحدة في هذه الدنيا، و هي أمي، لأنها كانت تصر دائما على أني طفل له أصل و فصل، و لست لقيطا أو ابن زنا كما يدعي كل الذين يعرفوني، و الذين منهم من كان يحكي وقوفه على حدث ولادتي لحظة بلحظة، لكنهم لا يتجرؤون على هذا القول أمامي، ليس خوفا مني، ولكن ربما احتراما لمشاعر أمي في صغري، فأنا كنت لا أدرك إلا بسائط الأمور، و لمشاعري في كبري، لأن تكذيب هذه الحقيقة المرة قد كبر معي، و لذلك، أجزم أن مشاعر الرحمة هي كذلك موجودة في مجتمعنا، و لا نملك إلا أن نتعايش مع مظاهر القسوة، فكلاهما تعوض الأخرى.

كان الناس يلقبوني في الأول باسم "باطار"، و هي بمعنى "اللقيط"، لكن بعدما بدأت أكبر، أحسوا بأنني أصبحت أدرك حقيقة الكلام و معانيه، فلقبوني باسم "كونار"، و هي بمعنى "الوغد" أو "الوضع"، فهم يرون بأن انتماءك إلى أصل، و معرفتك لأبيك، و انتسابك إليه، هي أمور وحدها ترفعك إلى مصاف الإنسان المحترم ذي القيمة العالية، لكنك مهما كنت محترما و مثقفا و راقيا، فلن تنال عندهم حظوة إن كنت ابنا لغير أب، و هم يجهلون بأنه في هذه الحالة، الخاسر ليس أنت، ولكن هو الأب الذي تركك.

كنت طفلاً، لا أعرف ما يحصل حولي، كنت فقط ألعب، و لا يزعجني إلا حين تمنعني أمي من مخالطة بعض الأطفال الذين ترى فيهم خطراً علي، بينما كنت لا أدرك أنا هذا الخطر، كنت أسأل أمي مرات عن أبي، و كان يكفئها انتهار أو إهمال أو أمر أو نصف جواب لتقنعني بالصمت.

ثم بدأت أكبر، و الرجل يكبر في داخلي، و السؤال كذلك يلح علي، و صرت أفرض نفسي على أمي فرضاً، و قد بدأت تحس بالضعف أمام إلحاحي، فأدركت بأن السؤال الذي بداخلي لا يشفيه إلا كلام صحيح و إقناع، فما كان منها إلا أن تكلمني كرجل عاقل، و قد أعجبني هذا.

كنت أسمع كلمة "أبي" من كل أصدقائي، بينما كنت لا أراه و لا أعرفه، و لا أدري ما قصته، و كنت في الكثير من المرات أدس هذه الجملة دساً في ذهن أمي، فتجيبني متوسلة: "يا ولدي، إن أباك قد مات عندما كنت صغيراً، و الكثير من الأطفال مثلك يتامى و محرومون من آبائهم، يا ولدي، أنا أمك، و أنا أبوك، فلا تشغل بالك بكلام الناس."

و أتذكر أني كنت معها ذات يوم في المقبرة، فباغتتها بسؤال بريء: "أمي، أين هو قبر أبي؟ ألم تقولي لي بأنه مدفون في هذا المكان؟"

كان سؤالاً محرجاً، لكنها أخفت كل الحرج بابتسامة صغيرة، ثم شدتني من يدي شداً، و تخطت قبوراً و قفزت فوق أخرى، و دارت بعينها

ذات اليمين و ذات الشمال كأنه اختفى وسط الأرماس، ثم جرت نحو قبر
قديم بلا عنوان و أعلنت: "هذا هو قبر أبيك يا ولدي"، فنظرت إليه حزينا،
وبكى قلبي بكاء موجعا، و صرخت في نفسي كأني أفقده الآن، و جثوت على
ركبي راكعا، و وضعت كفاي على الحجر المتآكل، و نظرت إلى الورود الياقة
في تربته، و قطفت واحدة لكي أحتفظ بذكره، ألمسها و أشمها و أراها في كل
حين، و قرأت الفاتحة و المعوذتين، فهي كل ما كنت أحفظ، كانت أمي تخطف
إلي بعض النظرات، و تحثني على القيام، و تقول لي بأن أبي قد سمع دعائي و أنه
راض عني، و أنه يحبني كما أحبه، و يفتقدني كما أفتقده، و أننا ربما يوم ما
سنلتقي في الجنة.

و منذ ذلك الوقت، صرت أرتاد المقبرة خفية، و أحمل معي بعض
الماء، أعود قبر أبي و أسقي وروده، كما حملت معي قطعة من الطباشير الأبيض،
و كتبت اسمه بخط عريض، فكل الموتى يحملون أسماءهم إلا هو.
و منذ ذلك الوقت، أحببت الجنة كثيرا، لأنني سألقى فيها أبي، و تمنيتها
كثيرا، ولكنني لا أتمنى أن أموت.

إلا أنني في كل مرة كنت أسمع كلاما من هنا أو إشارات من هناك، وأن
الحقيقة ليست هي ما أعرف، كنت أسمع بأن أبي لازال على قيد الحياة، و أنه

ربما يعرفني و يراني، لكنني لا أعرفه، فما كان مني إلا أن أتوجه إلى أُمي، فهي التي تعرف من أنا و من أبي؟

بدأت حالتي النفسية تتدهور أمام تمنعها في كل مرة بعذر، بأنها لا تعرفه، و أنها لا تتذكره، و أنها لم تره منذ افترقا، حتى بلغت من الجنون حدا لا يطاق، حينها قررت أن تأخذني إليه، و كنت أتمنى ألا تفعل بي وسط الرجال كما فعلت بي وسط القبور.

لم يكن الأمر سهلا كما كنت أعتقد، لقد أفقنا باكرا و ركبنا في الحافلة، و استغرقت بنا ساعات حتى وصلت إلى مدينة أخرى، كنت أتساءل كيف وصل أبي إلى هذا المكان، كنت ألمح الكثير من الوجل في عيني والدتي، لكنني كنت أخبرها في سري ألا تخافي، إني معك الآن.

و بعد ساعات، وجدتني أمام باب مهترئ لبيت قديم، دقت أُمي الخشبة برفق، ثم أعادتها بقوة، فأحسسنا بصوت خطى بطيئة تتوجه نحونا، كنت أدرك حجم المفاجأة التي ينتظر القادم من خلف الباب، ولكنني كنت أثبت نفسي، رغم أن دقات قلبي كانت تفضحني، ثم خرج رجل أسود كشبح، استغرق وقتا حتى بدأ بالتعرف على أُمي، كان يبدو كشيخ طاعن قليل النظر، كان اللقاء بينه و بين أُمي باردا كأنهما لا يطيقان بعضهما، و أنها يخفيان الكثير من الكلام احتراماً لوجودي هذا الذي أتى باهتا و متأخرا.

سلم علي أبي، عانقني برفق كأنه يخاف أن أنكسر، كان كحجرة ملساء باردة، لم أشعر بشيء، لم أشعر بالدفع يحتاجني، كأن أمي قادتنى مرة أخرى إلى قبر، فقط لكي ترصيني، فحتى إن كنت من دمه، فإني لا أحس بذلك، والكثير من الرجال الذين عرفتهم في صغري، كنت أشعر بعطفهم وحنانهم ودفئهم كأنهم آبائي، لأنهم كانوا يتعاطفون مع حالتي، وتساءلت كثيرا في نفسي: كيف يكون هذا الرجل أبي؟ كيف يعانقني و لا أشعر بنبضاته في صدري؟ لا يمكن أن يكون أبي، ربما فعلت معي أمي نفس حيلة القبور من أجل إرضائي.

أحسست بالبرود يحتاجني، وأحسست بالارتياح، كان علي أن أعرفه، كان علي أن أركب الطريق الطويل إلى هذا المكان، أن أتجرع كل هذا العناء من أجل إرضاء الهوس الذي لعب بأفكاري، لم أعد أحس باليتم، و لا بالضيق، ولا بأنني لقيط أو ابن زنا، لأن أمي حكمت لي بأنها حملت منه في الشارع، وأنها ولدتنى في ليلة ظلماء، في هيكل سيارة قديم كان مرميا في آخر الزقاق.

ما عدت أريد أبا يظلني كما ظننت قبل اليوم، أريد فقط أن أعود إلى بيتنا، و أن نعيش كما كنا، و أن أحمل الاسم الذي أعطانيه الناس، "كونار"، فكم من الأشياء التي تحصل في حياتنا، نكرهها و لا ندرك أنها كانت سببا في ضمان التوازن النفسي الذي طالما نتمناه.

لم نلبث معه سوى لحظات، شبت من خلالها من نفسي، و من السؤال الذي أتعني، لم نخضع لرغبته الحثيثة في استقبالنا و استضافتنا تلك الليلة، ثم ركبنا الحافلة و عدنا من حيث أتينا، كنا منسجمين أكثر، لقد أحببت أُمي اليوم، أُمي المسكينة التي تجرعت من أجلي كل المتاعب، و ربما كانت تعتبرني الربح الوحيد الذي استفادت من هذه الحياة.

إن كان للمعاناة اسما و لونا و شكلا، فهو أنا، هذا الطفل البريء، والذي يراه الآخرون متهما لأن لونه الأحمر يميل إلى السواد، و ملامحه تفصح عن رجل قوي جريء قبيح صعب المراس، لأنني أحمل من أبي ملامحه الصحراوية و قوته البدنية، و من أُمي الطيبة و التلقائية، و لذلك كان كل الأطفال في الحي الذي أسكن فيه يخافونني، و يحسبون لعداوتي ألف حساب.

و في الطريق، لمست أُمي في نفسي استعدادا لقبول حكاياتها و أفكارها بعدما عشت الحقيقة بكل أحاسيسي، و صارت تحكي لي عن حياتها ما لم تقله منذ بلغت سن الإدراك، حكّت لي عن معاناتها التي بدأت مع رجل سكير قبل أبي، و أن لها معه ابنة أكبر مني بعامين اثنتين، كان هذا الخبر صادما بالنسبة إلي، لقد فرحت كثيرا، كنت أظن بأني مقطوع من شجرة، "كان عليك أن تخبريني بأن لي أختا يا أُمي، هذا خبر لا تخفيه الأم عن ولدها؟"

فأجابني بأن هذا الخبر يرتبط بكل الأوجاع الأخرى و الحكايات،
ولذلك فضلت أن تعفيني من كل هذه الظنون والوساوس.

أحسست حينها بالسعادة تغمرني، و سألتها أن تحدثني عن أختي
وتصفها لي، فقالت إنها فتاة جميلة، شعلة من نور، قالت بأنها سلمتها لأبيها
لأنها كانت لا تملك القدرة على تربيتها و تعليمها، و أنها كانت تراقبها إلى أمد
قريب، و أنها بخير، و أنني يوما ما سألتقيها و أكلمها و نعيش كأخوين
عزيزين.

أحببت كل الفتيات اللواتي تشبهن أختي، لهن بشرة بيضاء و أعين
لامعة و شعر أسود متطاير و قامة متوسطة، و كنت كلما رأيت إحداهن،
أحببتها في سري، لأنها إن لم تكن أختي، فهي تشبهها.

لكن الأمر الذي حز في نفسي كثيرا، هو خروجي من المدرسة،
واهتدائي للتجارة من أجل مساعدة أُمي على تحمل المسؤوليات، لقد كان علي
أن أكمل تعليمي لكي أثبت لنفسي و للآخرين بأني رجل قادر على التحدي، و
أني قد انتصرت على النوائب و العاديات.

فها أنا اليوم أعيش بعقل ناقص، فالدراسة مهمة لاستكمال النضج،
حتى إن كنت أؤمن بأن معرفة الحياة، هي أبعد ما تكون عن العلوم
والرياضيات، و أقرب ما تكون إلى معرفة الحضارات و الشخصيات.

و فجأة، وجدتني أدور في فلك البلية، الخمر و القمار و كل ما يمكنه أن يقع في طريقي، كنت لا أتردد في خوض التجارب، و كان يزيدني شجاعة، ثناء الآخرين على قوتي و صلابتي و قدرتي على الانسجام.

بعت الخمر و الحشيش، و استعملتهما، و باعني تجار المخدرات فدية لأرواحهم، فصرت أتردد كثيرا على السجن، كنت أجه كأني في رحلة استكشافية، بينما يتولى أصحابي من التجار أمر تسليم بعض المال لأمي فدية على ما كنت أقوم به من أجلهم، و كانت أمي المسكينة غير راضية على ما أفعل، و كانت تقول لي دائما: "يا ولدي، إنك تسلك طريقا شائكا و لا يوصل إلى غاية نبيلة"، ولكنني كنت أكمل هذه المقولة في نفسي فأقول: "لا يا أمي، فهي توصل إلى مكان، لكن اسمه الجحيم"، و رغم أني كنت أعرف ذلك، كنت أغمض عيني و أستمر في الغلط.

كانت الحرب بين يبايعي الخمر على أشدها، و كان الأباطرة يدفعون المال من أجل تقديمنا قربانا للقتال، كانوا يمدوننا بكل ما نحتاج إليه من أجل القضاء على أعدائهم في الحرفة لكي ينفردوا في السوق، السيارات، الخمر، المال، الأسلحة البيضاء و بعض الأسلحة الممنوعة كـ "الكريموجين" مثلا، والذي قد يلعب دورا كبير في تشتيت مجمع من مئات الناس، و ربما يصيبهم بآثار ضارة في أعينهم كما وقع في الكثير من الحالات.

كنا في كل مرة نخوض تلك الحروب، نتجح بيننا بما فعلناه، و كل واحد منا يفتخر بما ضرب أو ما قصف أو ما قذف، و نضحك و نعزي بعضنا فيما خسرنه، و نتوعد بالانتقام في المرة القادمة، كأننا لا نسعى من وراء كل هذا إلا لنيل رضى كبيرنا الذي لا يبتسم إلا نادرا.

و حصل ذات ليلة، أني كنت أستعد للنوم، حتى باغتني صديقي "زريقة" بخبر نشوب صراع بين الفريقين، لم أفكر كثيرا، حملت بعضي و ركبت معه السيارة و قصدنا الميدان، كان القتال عنيفا في هذه المرة، كنا نضرب بعضنا بدون رحمة، كأننا لسنا إخوة في الإنسانية، أتذكر أني كنت أحمل في يدي هراوة، و أني ضربت الكثير منهم، و قد جرعناهم الليلة خسائر فادحة، و فروا من الميدان، فعدنا منتشين فرحين بالنصر الذي حققناه، و حكيينا كثيرا عن هروبهم، و تذكر كل واحد منا ما قام به، و ذكرت لهم كيف ضربت زعيمهم ضربة موجعة للرأس حتى فقد وعيه و حملوه، و كيف عاد إلى العراق فلم يستطع، فانسحب و انسحبوا، و نلت أجري دراهم معدودة كالعادة.

عدت إلى بيتي و نمت، كان الصداع في رأسي قويا بسبب قلة النوم، و بسبب الجهد المبذول، و بسبب آثار الخمر، فنمت عميقا، و رأيت أحلاما جميلة.

رأيت بأني أحلق في السماء بلا جناحين، و رأيت بأني أجد أموالا كثيرة، فأجمعها، و أجمعها، و أتمنى نفاذها فلا تنفذ، لأني لا أقبل أن أترك و لو بعضا منها لغيري، و امتلأت جيوبى، و بدأت الأوراق تتساقط، فلم أفق إلا على صوت رخيم و أصابع تلمسني كأنها تلدغني، كان صوت رجال الأمن الذين اقتحموا بيتي و اقتادوني إلى الدائرة، لقد مات الرجل الذي ضربته و حكيت عنه بنفسى شامتا، لكن كيف عرفوا ذلك؟ من قال لهم بأني أنا الفاعل؟

إن الذين يبلغون عنا الأخبار السيئة في غالب الأحيان، هم أقرب الناس إلينا، و رغم ذلك، فنحن لا نحذرهم، و إن أكثر الحروب التي تكلفنا نفوسنا و نضحى فيها بحياتنا، هي حروب نخوضها من أجل غيرنا.

كان حلما جميلا أن أطير في السماء بلا أجنحة، و كان حلما جميلا أن أجمع الأموال دون أن أنافس غيري عليها أو ينافسني، كان حلما جميلا عندما كنت نائما، لكنني استيقظت مرغما على كابوس مزعج، ليتني لم أستيقظ، لقد أخبرتني أُمي كذلك بأن أبي قد مات ليلة أمس، فحزنت كثيرا أني لم أحبه كثيرا، و حزنت أني ربما لن أعرف قبره، و لن أسقي وروده، و لن أعتاده في كل حين، لقد حملوني إلى السجن.

قصة هروب

كان موعد الزيارة السجنية بالنسبة إلي قد صار لا يعني شيئاً، أما بالنسبة لزوجي، فهو كان يعني الكثير، خصوصاً بعد موت أبيه، فإنه كان متلهفا لمعرفة كل ما يروج في البيت، و كل أخبار أمه و أخته و بناته.

كان علي أن أستعد اليوم لإعطائه الكثير من التفاسير حول موت أبيه، لأنني أعرف أن زوجي كان لا يكلم أباه من قبل أن يرمى في السجن، كانت بينهما قطيعة طال أمدّها بسبب أن أباه "الحاج" لم يقرض زوجي بعض المال، بينما كان يقرض أناساً آخرين، لكن الأب كان على حق، لأن ابنه كان لا يرد له القروض، و قد حصل هذا سابقاً.

إني أتذكر كم جاء الأب حسيراً ليصالح ابنه مرات، حتى إن لم يكن مخطئاً معه، لكن الابن يرفض مصافحة أبيه بغلظة و فظاظة، كنت أقدر إحساس هذا الأب المسكين الذي يريد أن يرضي ابنه مهما تنازل عن حقوق الأبوة و بلغ به الأمر حد الإذلال، كان قلبي يسيل دماً، كم نصحت زوجي بمصالحة أبيه لكنه كان يجيني بانتهار، و يقول بأن "الأمر لا يخصك"، و كنت حينها أعرف جيداً بأنه ذات يوم سيندم، سيندم كثيراً، حين لا ينفعه الندم.

ما الذي يمنعك أن تمد يدك لأبيك، حتى إن كان ظالماً؟

إنك، إن طال بك الزمان، ستمدها إليه، و تتركها ممدودة دهرًا، و لن يكون هنا لكي يصفاحها و يقبلها و يردها إليك، فتعضها ندما و حسرة.

كان يتوق في كل لحظة لمعرفة ما يحصل لنا خارج السجن، لكنني ما كنت أتوق لمعرفة ما يحصل له داخل السجن، كأننا نحن المسجونون و ليس هو. صعب أن تشعر بأنك تحب وحدك، و غيرك لا يحبك، و صعب كذلك أن تشعر بأنك تكره وحدك، و غيرك لا يبالي حتى بوجودك، هذا هو نفسه الشعور باللاجدوى و العدم.

أريد أن أعرف فقط، ما هي الأسباب التي قد تقنعني بأن أحبه و أعيش على انتظاره عمرا قد لا أعيشه أنا نفسي؟

ما هي الدوافع التي قد تجعلني أعيش على ذكره، إن لم تكن هي نفسها كونه بجنبي و وقوفه معي؟

ما جدوى حياتي المتعلقة به، إن لم أكن أراه في كل يوم، و ألسمه حين أشتاق، و ألقاه عندما أحن إليه؟

ما فائدة وجوده في الحياة، إن كانت بناته لا تحملن منه إلا الاسم واللقب؟

هكذا كنت أحدث نفسي و أنا أستقل سيارة الأجرة باتجاه السجن،
 همومي في الطريق وحدها تشكل مأساة في كل يوم، و كلما شكوت همي لغيري
 وصاني بالصبر و التحمل و عدم الاكتراث، كأنه يوصيني بالاستسلام والخنوع
 و الموت البطيء.

الكثير من عاداتنا و أقوالنا المأثورة، نردها و نمارسها و نعيشها، و لا
 ندري بأننا نقبل، من خلالها، بأن نكون عالة أو جبناء، و بأننا نمارس موتنا حين
 نعتقد أننا نمارس الحياة.

كيف أصبر إذن؟

و علام أصبر؟

و ماذا أنسى؟

و كلما حكيت همي لأمي قالت : "اصبري يا بنيتي، اصبري، فليس
 لك إلا الصبر، و باب الصبر ليس عليه زحام".

نعم يا أمي، نعم.

لأن باب الذل ليس عليه زحام.

و لأن باب القهر ليس عليه زحام.

و لأن باب الخنوع ليس عليه زحام.

كيف يقولون بأن على الصبر الزحام؟ فالصبر على المذلة يا أمي ذل وهو ان.

كانت سيارة الأجرة قد توقفت عند الضوء الأحمر، كان الجميع صامتين، إلا اثنين من الأفارقة يتحدثون في الخلف، لا أعرف لغتهم، ولكنها مزيج من عدة لغات، فإني أسمع من مفردات عربية وأخرى فرنسية وأخرى غامضة لا أفهمها، لقد هاجروا إلى المغرب بكثرة خلال السنين الأخيرة، وصاروا يتمتعون بكل حقوق المواطن المغربي وربما أكثر، ومنهم من تعلم العربية و صار يتحدث بها على طريقته التي تتميز بالكثير من التحريف واللعن، وصارت لهم بيننا أحياء وتجمعات خاصة.

حتى طريقته في الانفعال والتعبير، فهي تختلف عنا كثيرا، فملامح وجوههم لا تتخذ أشكالا متعددة مثلنا، فتعبيرنا على الفرح والحزن والدهشة والإعجاب وغيرها يكون فصيحاً واضحاً من خلال ملامحنا، أما هم، فلا تجد الواحد منهم إلا صامتا أو حزينا، وهو في كلتا الحالتين مخيف، وأما إن ابتسم، فأنت تحسده على الأسنان البيضاء المصففة.

و بعد معاناة و صبر، وجدني في قاعة الانتظار داخل السجن، كالعادة تتداخل في نفسي المشاعر و تتضارب الأحاسيس عندما أكون في هذا المقام، لأنني أنتظر زوجي، و شعور الانتظار أثقل ما يكون على النفس، لأن

انتظار الطبيب أصعب من الداء نفسه، و انتظار الحبيب أقوى من الغياب نفسه.

ظهر زوجي فجأة، لم يكن مبتسماً، لم ينظر إلي إلا في المرة الأولى لكي يعرف مكاني، و بعدها حول نظره عني، كأنه لا يرغب في لقائي، كأنه ليس زوجي الذي أعرفه، ليتني أدرك ما برأسه قبل أن يصل إلي، ليتني أعرف.

ماذا باستطاعة الشيطان أن يوسوس لهؤلاء الحثالة كبعض الذين أرى وجوههم في هذا المكان، إنهم يعيشون الوسواس، يعيشون الخطيئة، إنهم يلعبون دور الشيطان في كل مكان، إنهم يوسوسون للآخرين و يحملونهم جبراً على ركوب طريق الجحيم.

قمت من مكاني، و استقبلته بالعناق، قبلت وجهه و مسحت رأسه بكفي، فأنا أعلم جيداً بأنه جريح الفؤاد، أحسسته كطفل ارتقى في حضني ثم أجهش بالبكاء، ضممته إلي و قد أحسست بسخونة أنفاسه في صدري ودموعه كالأمطار تبلل ثيابي، كان يبكي كطفل صغير فقد لعبته المفضلة، و كأنه يخترن كل هذه الدموع لهذا اللقاء، لم أتأخر أنا الأخرى، لقد ذرفت دموعاً غزيرة، اختلط فيها القديم بالجديد، و لو طاوعت قلبي لما عدلت عن البكاء، ثم عزينا بعضنا و جلسنا، كنت موقنة بأنه ليس على ما يرام، لكنني لن أسأله حتى يتكلم.

- كيف حالك؟ كيف حال البنات؟ (كان كأنه يؤجل الحديث عن موت أبيه، أو يحاول أن يوهمني بأنه ليس مهتما لها كثيرا، وأنه ليس نادما على خصومته معه).
 - الجميع بخير، وكيف حالك أنت؟
- لم يقل شيئا، كأنه يقول: "أنا لست بخير"، لقد فهمت ذلك، ولم يبدأ بالكلام إلا لمعابتي على عدم ردي على بعض مكالماته، وعلى ما يحصل للبنات، لقد تأثر كثيرا للذي حصل "السكينة"، حين صارت بعض صديقاتها تناديها بابنة القتال، كاد ينفجر وهو يحدثني وأنا أستمع إليه.
- كان يعرف كذلك بخصوص موضوع "البوشتاوية"، لكنه لم يحدثني عنه، أعرف أن مثل هذه الأشياء لا تهمه.
- كان ينتظر أن أبدأ بالحديث عن موت أبيه، كان يبدو هذا في عينيه، لكنني أخاف أن أخطئ التقدير فينتهرني كعادته، لأن ما أراه أنا، هو ربما يبدو لي، فقط لأنني أنتظر الحديث عنه، بقيت صامتا طويلا وهو مطرق لا ينظر إلي، حتى هزمتة نفسه، ورفع رأسه وقال لي:
- احك لي عن موت أبي؟
 - لقد أنهكه المرض حتى صار كقطعة من خشب، و تدهورت حالته ببطء، ومات عرقا عرقا أمام أعيننا، كان الأمر صعبا، كانت هذه هي المرة الأولى التي أتفرج فيها على الموت وهو يخطو نحو الإنسان بثبات، ويدب في عروقه

بوجل، الموت شجاع، لا يتردد، لا يفكر، ولا يرحم، لقد مرضت بسببه أختك "حكيمة".

- ماذا كان يقول؟ هل كان يقول شيئاً أو يريد أن يبلغ رسالة أو يذكر شخصاً؟ ألم يذكرني أنا مثلاً؟ (أدركت المغزى من كلامه، و عرفت جيداً ما هي الكلمات التي قد تسعده أو تحزنه، لكنني لن أكذب عليه، سأحكي له الأحداث كما عشتها، حتى إن كنت بهذا الفعل قاسية عليه).

- بصراحة كان لا يذكر أحداً، كان مشغولاً فقط بمرضه، ولم يذكر أمامي، ولو ذكرت أمام أمك و أختك لأبلغاني بالأمر، و لبعثا معي رسالة إليك، (كنت أتكلم، بينما ملاحظته تتغير، لكن عيني كانتا تبوحان بالهزيمة الكبرى، فوضع كفه على خذه و غاب، ثم قال:)

- اصدقيني القول، ألم يذكرني بسوء؟

- لا، و الله لم يذكرني بسوء، و إني عشت معه، و عرفت بأنه ما كان يحمل في قلبه ذرة كره لك، بل إني أجزم بأنه كان يحبك، و ربما لم تمهله الأقدار ليعبر عن إحساسه تجاهك، و لو كتب لي أن سألته لكان عبر بجلاء.

- و لماذا لم تسأليه؟ كان عليك أن تسأليه.

- و هل كنت ستتهم أنت لهذا؟

- طبعاً أهتم، أتخسب أني مصنوع من حجر؟ أنا فقط إنسان، قابل للهزيمة في أي وقت، و لأبسط الأسباب، كان عليك أن تطريني بكل الشتائم، أو أن تنهالي علي بكل كلام العتاب، لكن لا تقولي هذه الكلمة، إنها وحدها قادرة أن تبكينني.

- إني أراها كلمة عادية.

- لكنها أصابتني في مقتل.

- هل ندمت؟ (تغيرت ملامحه و صار يتكلم كأنه يتخلص من أعباء أثقلت عليه طويلاً)

- طبعاً ندمت، ندمت كثيراً، و ما فائدة الندم الآن؟ ما فائدة العقل إن كنت لا أعرف الحقيقة إلا بعد التجربة؟ كان يكفي أن أدرك بأن النار حامية لكي أفهم بأنها ستحرقني إن ارتميت فيها، لكنني لم أدرك الأمر إلا عندما رميت نفسي في النار، كان علي أن أتنازل، أن أفكر و لو قليلاً، لم يكن أبي مخطئاً، و رغم ذلك كان يزورني و يتوسل إلي أن أصلحه، كأنه كان يعطف علي من العذاب الذي قد أعانيه بسبب تأنيب الضمير، أتذكر أنه جاء إلي ذات مرة فوجدني نائماً، فلم أقم لأحدثه، فسمعتة و هو ينصرف راضياً، تلك الخطوات لازلت أسمعها الآن، أتذكر أنه بعث إلي أمي مرة ثانية لكي تفاوضني لمصالحته، فانتهرتها هي الأخرى، و أقنعتها بأنه مخطئ، و أنه لا فائدة من الاعتذار، فانصرفت و هي

تدعولي بالتعقل و الرزانة، ماذا كان سيحصل لو تنازلت لحظة و قلت كلمة و أرضيت أبي؟ ماذا كان سيحصل؟ (أطرق برأسه متحسرا متأوها، حاولت أن أهون عليه الموقف)

- لا تهتم، فإني أجزم بأن أباك قد مات و هو راض عنك، لا يهم ما يقع، ولكن بهم ما نفكر فيه و ما نريده. (أحسست بأن هذا الموضوع قد أرهقه، و فكرت أن أهرب إلى غيره)

لكن كيف أحكي له عني؟ عن معاناتي التي هو جزء كبير منها؟ كيف أحكي له عن المأساة التي أعيشها بين غيابه الأبدي و بناته اللائي تكبرن، و تكبر معهن المتطلبات و المشاكل؟

كيف أتحمل كل هذا وحدي؟ كيف أتحملة هو الآخر؟

كيف أقنعه بأن خارج هذه الأسوار هناك سجن كبير يكبلني و يغتال حرיתי؟ سجن اسمه العادات و التقاليد و الأعراف، اسمه الإنسان. ليس هذا مقام الشكوى، و لكنني سوف أسايره، و أستمع إليه حتى ينتهي ثم أذهب إلى حال سبيلي، أو أعود إلى سجنني.

من عنده سجين يزوره بانتظام، فهو كذلك سجين، هذه قناعة.

ثم صار يحدثني عن صراع بينه و بين أحد السجناء، و عن خلاف انتهى بتدخل الحراس، و أنهم كادوا يزجون به في زنزانة انفرادية، لقد اكتشفت

من خلال كلامه و حركاته، بأنه صار عدوانيا، و هذه صفة غريبة عنه، ثم صمت لحظة و صار يحكي لي ما يدور بينه و بين السجناء من حديث، بحيث أن السجن لا يصنع أحداثا، و لكن بحكم مكوثه في مكان محدود، فهو يصنع فقط كلاما، و لذلك لاحظت أنه صار كثير الكلام، بل صار يلهج بأحاديث غريبة و غير مفهومة.

إن موت أبيه أثر فيه كثيرا...

صدق من قال، بأن السجن كالرحم، يعيد ولادة الإنسان من جديد، لقد قال لي بأن أحد أصدقائه حكى له حكاية جميلة عن أغرب السجناء، و هو عسكري فرنسي اسمه "لافايت"، و كانت زوجته اسمها "إيملي"، كان بينهما حب كبير، و صارا بسببه مضربا للمثل.

وذات يوم، تم القبض على "لافايت"، و زوجا به في السجن، و تم الحكم عليه بالإعدام، لأنه كان من معارضي الملك.

و مرت الأيام، و اقترب موعد الإعدام، و كانت زوجته هي الوحيدة التي سمحوا لها بزيارته، و في اليوم الأخير، ألبسته لباسها النسائي بحرص شديد، و خرج من السجن متنكرا، بينما لبثت "إيملي" مكانه و هي تلبس هندامه في الزنزانة، و لم تندم على ما فعلت، و لم تخف أن تقتل مكانه، لأن

السجن بالنسبة إليها، هو أن يكون حبسها في السجن، و الموت بالنسبة إليها هو أن يتعرض حبسها للإعدام.

و هرب "لافايت" إلى خارج البلاد بضع سنين، حتى مات الملك وأصدرت المحكمة الجمهورية حكما بالعفو عنه، فعاد إلى وطنه و أهله، لكن السؤال المحير هو: هل تعلمين ماذا وجد أمامه؟

- ماذا وجد؟

- لقد وجد حبسته "إيملي" قد صارت مجنونة.

لكن السؤال المحير أكثر هو: هل تعلمين لماذا أصيبت بالجنون؟

- لماذا أصيبت بالجنون؟

- لأنها كانت تظن بأنه قد مات.

- كنت أظن بأنها قد جنت لأنه تركها داخل غيابات السجن.

- هذا هو الحب يا "شرقية"، الحب تضحية، الحب هو أن تعيش من أجل

حبيبك، على الأقل هذا ما يجب أن تحسه، فلا تعجزك المسافات و لا تغلك

الأيام، و لكن تصير أنت أنا، و أنا أنت.

الحب يا "شرقية"، هو ألا ترى وجهك في المرأة حين تواجهها بالتأني، و لكن

تراني أنا، حتى يثبت لي، بأنك لا تحب نفسك أكثر مني.

انتهى من الكلام كأنه كان يستظهر آيات من الكتاب المقدس، ثم طأطأ رأسه في شبه استسلام، لكني ما كنت لأتركه هكذا، حاولت أن أهرع بالحديث إلى الجهة المعاكسة فتساءلت مستنكرة ضاحكة :

- و إذن، فما علي إلا أن أعطيك ملابسني و تعطيني ملابسك لكي تخرج متنكرا؟
(ضحكت، فأجابني هازئا)
- و لكن ملابسنا متشابهة، فالمرأة اليوم تتشبه بالرجل، و تريد أن تفعل مثله في كل شيء، حتى في اللباس.
- لا، لا، لا، هناك فرق بينهما.
- الفرق الوحيد بين المرأة و الرجل، هو أن المرأة شعرها طويل، و أنت لا يمكن أن تعطيني شعرك. (ضحكنا، ثم أردفت قائلة)
- إنه لمن السهل جدا على المرأة أن تصير رجلا. (حدجني بنظرة وقال):
- و أسهل من ذلك أن يصير الرجل امرأة.
- و لماذا تحكي لي عن "لافاييت" الذي لبس ثياب زوجته، هل يقبل الرجل أن يصير امرأة فقط لكي يهرب من حكم الإعدام؟
- لو كنت فهمت ما حكيتك لك، لعرفت بأن الأصل في القصة هو مروءة "إيميلي" وليست رجولة "لافاييت".

كأني فهمت بأنه يريد أن يوصل إلي فكرة بطريقة غير مباشرة، ربما لأنه يحس بالدونية إن أعلن عنها مباشرة، فهمت هذا، لكنني لم أفهم الفكرة، لكنه لا يعلم بأن عقلي متوقف عن العمل في هذه اللحظات، بل إنني أكثر من هذا، لا أريد أن أجتاز المسافات لكي أفهم ما تحت السطور و ما فوقها، ثم قلت له:

- و ما الفائدة من مثل هذه التضحية إن كنت سوف أغامر من أجل إنقاذك من الإعدام لأغرق فيه أنا؟ لا وجود للحب إن كان واحد من المحبين غير موجود، فالحب لا يتحقق بغير الحضور و مشاركة الآمال و الآلام، أكره الحب عندما يحكى عنه بأنه فقط بعد و عذاب.

- الفائدة أن تفهمي بأن الحب إحساس أولا، إحساس بأنك معي جسدا وروحا، بأنك فعلا راغبة أن تفديني بروحك حتى لو لم يكن هذا ممكنا، الحب، هو أن تحس حقا بأن حبيبك أعز إلى نفسك منك، حتى يكاد يصيبك الجنون عندما تنظر إلى نفسك في المرأة، فترى وجهه.

- لكن كيف تثبت لي بأن تفكيرك هذا ليس سوى رغبة في الهروب من السجن؟ فيصير زجك بي في الحبس مضربا للمثل في الكره المكين بدل الحب الدفين.

- الدليل سوف يأتي من تلقاء نفسه، لما تأنسين مني الوفاء لروحك و الحياة على ذكراك.

- و إذن، فبدل أن تحكي لي عن "لافايت" و "إيميلي"، كان عليك أن تحكي لي عن "أندريه" و "لوسي" في قصة "هدية موت" للكاتب الفرنسي "أناتول فرانس".

- و ما الفرق بينهما؟

- الفرق كبير و شاسع جدا، لأن "لوسي" كانت محكومة بالإعدام خلال الثورة الفرنسية، و بدل أن يخنق حبسها "أندريه" إلى المستحيل بالتفكير اللامجيدي في إخراجها من السجن، ذهب إلى الوكيل العام و طلب منه أن يجد له تهمة و يحبسه في مكان قريب منها ليلتحق بها، لقد غامر بحياته و بحريته من أجل السعادة، ربما هنا أجد تعريف الحب أجهل و أرقى.

كان زوجي حينها شارد العينين، كأنه يتساءل من أين لي بهذه المعرفة، لكنه نسي ربما بأننا كنا في نفس القسم، و أنه رسب، و أنني نجحت.

و عندما رجعت في المساء إلى المنزل، استلقيت في فراشي، و بدأت أستعيد كعادتي كل أحاديث النهار، و عاد إلى ذهني صوت امرأة غاضبة كانت تخاصم الركاب الموجودين في سيارة الأجرة قائلة : "لعن الله الرجال إلى يوم الدين".

فضحكوا كثيرا، حتى أغضبها ضحكهم، فلم تتوجه إلا إلى أصغرهم،
و هو طفل في سن المراهقة، فصرخت في وجهه : "لماذا تضحك أنت أيها
الغبي؟"

لم يجبها في الحين، لأنه كان منشغلا بالضحك، فلما انتهى و عاد إليه
عقله، قال لها متهكما : "و هل تستطيعين أن تعيشي بدون رجل؟"
فضحكوا أكثر، و كانت هي الأخرى تضحك معهم.

اقتل المراءك.

كل ما تقوم به في حياتك، أنت تتخيله خلال الفعل.
تتخيل نفسك و أنت تمشي، و أنت تتكلم، و أنت صامت، و أنت تحكي، و أنت
تشتغل، حتى و أنت تقتل، من منا لم يقتل في خياله مرات؟
إن اللغة التي نفكر بها، هي لغة الصور، و نحن فقط نترجمها إلى كلمات ثم نعبر
عنها، و عندما تبرز المفارقة بين ما نتخيله و ما نقوله، أو بين ما نفكر فيه و ما
نقوم به، يظهر أحد أمرين: الحس الساخر من الحياة، أو المرض النفسي، هذا إذا
لم نكن على علم أكيد بأن القصص المضحكة، هي في حقيقة الأمر مأس
وأحزان.

أبدا، لست أنسى ذلك الصباح الخريفي الندي، حين دخلنا إلى قسم
الأولى ثانوي للغة العربية.

لست أنسى أستاذ مادتنا الشاب "عبد القادر سعدان"، حين دخل إلى
الفصل متجهما كأنه فقد أحد أهله، ثم وقف مستقيما و نحن صامتون، و أعلن
قائلا: "بالأمس، مات المفكر الفرنسي الكبير (لوي ألتوسير)"، ثم حمل
الطبشور، و استدار نحو السبورة و كتب بالخط العريض "لوي ألتوسير".
توسد كفه بخده، و لم يتكلم لدقائق، كأنه ينتظرنا أن نفهم، ثم قام
ومسح السبورة، وبدأ الدرس.

لقد أدركت حينها، كيف عبر أستاذنا عن لحظة الحداد صوتا و صمتا.
كان علي أن أسجل هذا الاسم الرنان في مذكرتي، لكي ألقي نظرة على سيرة
الرجل الذي حزن عليه الأستاذ كثيرا: "لوي ألتوسير".

لم أتاخر في الحصول على معلومات أولية عن الرجل، إنه مفكر فرنسي
بنيوي كبير، خرج من الحرب العالمية الثانية بعاهة نفسية و عصبية كانت تعاوده
في كل حين.

إلا أنني في معرض البحث في سيرته، وجدت حدثا غريبا، جعلني أقف
مندهشا عاجزا أمام هذا الذي أرى، لقد قتل زوجته و شريكة عمره لقراءة
أربعين عاما، بدم بارد، كأنه كان يلعب بدمية.

لقد حكى كل الذي جرى في سيرته "المستقبل يدوم طويلا" :
"لأنني خنقت زوجتي التي كانت كل شيء بالنسبة لي في هذا العالم، في
خضم أزمة حادة و مفاجئة من الغموض الذهني، هي التي كانت تحبني إلى
درجة أنها أبت إلا أن تموت حين انعدمت قدرتها على الحياة، و بدون شك،
قدمت لها هذه الخدمة.

... فجأة، قمت من سريري و أنا أرتدي منامتي...

أمامي "هيلين"، نائمة على ظهرها، و ترتدي منامتها...

حوضها يرتاح على حافة السرير، ورجلاها ترتحيان فوق السجادة،
 جثوث بالقرب منها، وانحنيت على جسدها، وبدأت أمسد عنقها... ضغطت
 بإبهامي الاثني على الفجوات الموجودة بين أعلى عظام الصدر، وأنا أضغط،
 ذهبت ببطء بإبهام نحو اليمين و آخر نحو اليسار في خط مائل... كان وجه
 "هيلين" جامدا و صافيا، عيناها مفتوحتان تحدقان في السقف، وفجأة صعقتني
 الرعب... كان رأس لسانها يطل بغرابة و سكون، من بين شفتيها...

نهضت، و صرخت، لقد خنقت هيلين"

x x x

مسلسل قتل الأعزاء في حياة الإنسان طويل، و منهم من يستمتع
 بذلك و يتلذذ...

لكنني أريد أن أعرف فقط، كيف تنتهي الحياة بالقاتلين؟

ألا يندمون؟

ألا ينتحرون؟

ألا يتركون للعالم رسالة تخلدهم؟

ألا يدركون بأن الشجعان، هم أولئك الذين ماتوا و هم مبتسمون؟

يحكي "محمد شكري"، في سيرته "الخبز الحافي"، بأن أباه قد قتل أخاه

أمام عينيه بدم بارد، بلا رحمة و لا شفقة...

"أخي ييكي، يتلوى ألما، ييكي الخبز، يصغرني، أبكي معه، أراه يمشي إليه، الوحش يمشي إليه، الجنون في عينيه، يده إخطبوط، لا أحد يقدر أن يمنعه، أستغيث في خيالي.

وحش ! مجنون ! امنعوه ! يلوي اللعين عنقه بعنف، أخي يتلوى، الدم يتدفق من فمه..."

لقد قتله، قتله المجنون، و قتل فيه الرغبة الملحة في طلب كسرة من الخبز الحافي.

لقد قتل ابنه، فلذة كبده، هل يوجد في هذه الدنيا بشر أعز إلى الآباء من الأبناء؟

لكن قتل العزيز لم يتوقف عند هذا الحد، لقد صارت الذكرى المؤلمة ترجع إلى عقل "محمد" الطفل الصغير في كل حين، كانت تعذبه، كانت تريد أن تقول له ما لم يقله أخوه و هو يختنق تحت رحمة أبيه، ترددت الذكرى كثيرا، حتى صار "محمد" يتمنى قتل أبيه : "في الخيال، لا أذكر كم مرة قتلته، لم يبق لي إلا أن أقتله في الواقع..."

× × ×

" في الواقع، ذكرياتي الأولى مصبوغة بالخوف من الكوابيس، خفت من البقاء وحدي، خفت من الظلام، و خفت من الذهاب إلى النوم، لأنني دائما

حلمت برعب خارق كان على وشك أن يتحقق، كنت أخشى أن يأتي يوم، أستيقظ فيه ولا ينقطع الحلم.

أذكر أنني سمعت الخادمة يوما تتحدث عن الأفيون، و كيف أن تدخينه يسوق أحلاما لذيذة، فقلت (عندما أكبر، سأدخن الأفيون) "...

كانت هذه بعض اعترافات و أحلام الطفل البورجوازي المتمرد، "وليام بوروز"، فأدمن الأفيون، و أدمن أكثر من ذلك، اللعب بالمسدس، ربما لأنه حينها كان لا يدري، بأن اللعب بالمسدس، هو اللعب بالموت...

كان يروق له أن يضع كأس "الشامانيا" فوق رأس صديقه التي كانت ترافقه على طول رحلته، ثم يصبوب نحوه فيكسره، كانت لعبة تروق للناظرين فيدهشون تارة و يصفقون تارة.

و ذات ليلة، أفرط في الشرب و استعمال الحشيش، و بينما أراد أن يلعب معها نفس اللعبة، فجر جمجمتها و أرداها قتيلة.

ربما لم يقتل بعيدا عنه، لم يقتل أباه و أمه البورجوازيان، و لكن قتل أقرب الناس و أعزهم، قتل رفيقة دربه، قتل زوجته.

× × ×

هكذا أفلت الذين قتلوا أعزاءهم من العقاب...

"لوي ألتوسير"، حكم عليه بعدم المتابعة، لأن الجاني لم يكن في كامل قواه العقلية...

"محمد شكري"، كان شاهدا على الأب الذي قتل ابنه بيديه و دفنه بيديه، بعيدا عن عقاب السلطة، و بعيدا عن عذاب الضمير...

"ويليام بوروز"، فجر رأس زوجته، و أفلت من الحكم بفضل أموال عائلته البورجوازية، و فر إلى باريس ثم طنجة...

أما أنا، فلقد قتلت عزيزا على نفسي، لكنني لم أنج من العقاب، فلم يبق لي إلا أن أتخلص من نفسي، ربما أتوسم في هذا طوق النجاة، و تطهير قلبي من هذا العذاب...

المقالة.

لقد بدأت أشعر بأن عقلية زوجي و مزاجه صارا يتطوران و يتغيران بشكل رهيب داخل السجن، كنت أشعر بأنه يخفي خلف صمته المتواصل الكثير من الأشياء، و كنت أتمنى أن أسمعه يشكو و أراه يبكي و أحس به حين يئن، هذا أفضل بكثير من أن يكبت هذه الأحاسيس، فتنقلب إلى طبائع و أفعال تقسو عليه و تبدل نظرته للحياة.

كان يربكني عندما يكلمني في الهاتف ثم يبدأ بالتمني :

- أتمنى أن أكون معك الآن...
- أتمنى أن أعيش وحدي في كوخ بسيط في غابة بعيدة...
- أتمنى ألا أرى بشرا، فالإنسان علة الحياة...
- أتمنى أن أعيش بين البهائم و الوحوش و الطيور، فالبهائم أفضل لي لأنها لن تكرهني، و الوحوش أرحم بي لأنها لن تكيد لي، و الطيور أقرب لي كلما ابتعدت عني في السماء...

كنت لا أجد جوابا لمثل هذا الكلام الذي لا وجود فيه للماضي المفجع أو للحاضر المؤلم، ولكنه فقط ضرب من التأمل و الآمال و الأحلام و الأمنيات البعيدة كل البعد عن الحقيقة.

إنه كان يعرف ذنبه و يقر بالعقاب، لكنه كان يتوجس خيفة من حكم المحكمة الذي لم يكن بعد، و الذي يؤلمه كلما طال انتظاره، كان يقول لي : "إن يوم الحكم علي، سيعيدني إلى يوم الجريمة و يذكرني بكل الفجائع مرة أخرى، ولا يفجعني فيه عدد السنين و الأيام، لأنني أتوقع كل شيء."

كنت أفضل ألا أرد على مكالماته الكثيرة، كنت أعرف بأنه عندما يحدثني، يخرج في خياله من السجن، و يعيش حياة الحرية، يحلم و يصدق نفسه، و يتحدث عن بناء بيت جديد و عن تزويج بناته، و عن السفر إلى دول أخرى، و عن العمل الدؤوب و الكسب و الاجتهاد، و عن حياة الرفاهية والترف، فلما تنتهي من المكالمه، يرفض أن يعود إلى الواقع، و يؤثر أن يستمر في أحلامه و أوهامه، و بدل أن يخرج من وحدته إلى الواقع، يدخل بنفسه إلى الخيال.

هو : لماذا لا تردين على الهاتف إلا عندما تريدین؟

أنا : ليست الإرادة بيدي، أرد على الهاتف عندما لا يكون هناك مانع.

هو: و هل يمنعك شيء من الحديث مع زوجك؟

أنا : لم أعد أشتغل في المقهى، أشتغل الآن في دار "الحاج احمد"، و أنت

لا تعرف ما الذي أكون بصدد القيام به، و لا يمكنني أن أرد عليك حين أكون

معلقة في الحائط أنظف لوحات و صور المقاومة ضد المستعمر، ابنه هذا الذي يعيش في الضيعة لا يرحمنا، و يبدو من تصرفاته أنه مختل.

هو : المختلون هم أكثر من غير نظرنا إلى العالم، و فتحوا أعيننا على الحقيقة، ألم يكن "نيوتن" منعزلاً في غرفة لا يكلم أحداً حتى ظنوا بأنه مجنون؟ ألم يكن "ألبرت انشتاين" مصاباً بداء التوحد؟ ألم يكن "ستيفن هوكينغ" ككتلة من الأمراض العصبية و الجسدية؟

أنا : (ضحكت) إني رأيتك تدافع عن الجنون، لا أظنك مقبل على خطة في المستقبل.

هو : إنك كغيرك من الناس، مخطئة، لا يوجد شيء اسمه الجنون، وإلا ما كان المجانين هم من طوروا الإنسان.

أنا : لم تكن هذه الأفكار موجودة في عقلك سابقاً، ما الذي جعلك تكتشفها الآن؟

هو : فقدان الحرية، لأن الحرية هي الحياة، الحرية نمط تفكير، فأنت قد تعيش طول عمرك في العبودية دون أن تدري، لكن عندما يفرض عليك واقع ترفضه، فأنت تفكر في الحلول، و لكي تفكر في الحلول، عليك أن تتأمل.

أنا : لكل فعل رد فعل، و لكل جرم عقاب، و عقابك هو السجن، احمد الله أن العقاب لم يكن القتل، و السجن ليس نهاية الحياة.

هو : السجن ليس أسوارا تحيط بك، فهناك الكثير من الأحرار داخله،
السجن هو عندما تبني أسوار بداخلك، فتأسرك حتى إن كنت خارجه.

أنا : إني أخاف عليك من مثل هذا التفكير، قد يوصلك إلى الجنون.

هو : هل تريدني أن أقول لي، لا تفكر؟

أنا : إني أراك تأتيني كل يوم بفكرة جديدة، و أراك تأتيني مقتنعا بكل
ما تقول، أخاف أن تصل إلى اللاجدوى، لأنها موجودة في مكان ما في طريق
التفكير، و أخاف أكثر أن تقتنع بها.

هو : كل ما أفكر فيه أعيشه، لا يمكن للواقع أن يوصلك إلا إلى
النتيجة الصحيحة التي تعتبر الجزء الحقيقي لخلاصك، حتى إن كانت سيئة،
فالعالم ليس مركبا فقط من الأفكار الخيرة و الجميلة.

أنا : العالم هو الإنسان، هو الدنيا، هو هذه الأرض و السماء التي نراها
و نسمعها و نلمسها.

هو : العالم هو فقط مجموعة من الأفكار الموجودة في خيالك، تعيشينها
بواسطة التذكر، و لأن فهمك محدود، تفكرين في الملموس فقط، و لا تفكرين
في المحسوس.

أنا : ألا ترى بأن هذه الأفكار كانت سببا في اعتزالك لرفقائك في
السجن؟ و كانت ربما سببا في خصامك مع أكثرهم؟

هو : ذلك المعتوه، إنه كان يسخر مني، لأنني أعلنت عن حريتي، بينما كان يقول بأننا نحن السجناء لسنا أحرارا، إنه لا يعلم بأن السجن أسوار تنمو رويدا على جنبات القلب فتحجب عنه النور، لقد صفعته على خذه، و لولا تدخل الحراس لكنت الآن في زنزانة مظلمة، غدا سوف تبث المحكمة في قضيتي و يحكمون علي، إني مرتبك كثيرا، و أتمنى أن ينقلوني من هذا المكان، إني لست مرتاحا هنا.

أنا : و ما يربكك في المحكمة؟

أنت تعلم جيدا بأنهم قد ألغوا حكم "الإعدام"، و تعلم أننا قمنا بالإجراءات المناسبة لتخفيف الحكم عليك.

هو : الإعدام في الكثير من الحالات، يكون أرحم من العبودية، أتمنى أن أراك في المحكمة غدا، لقد بدأت أرتبك في الأيام الأخيرة.
أنا : سأكون هناك، سأراك من بعيد.

هو : اقتربي من المكان المخصص للمحكومين، لا تبقي بعيدا.

أنا : عندما أقرب، أحس بأن الجميع ينظر إلي، لأنني زوجة القاتل.

هو : صدقيني، هذا مجرد إحساس خاطئ، لأنه لا أحد يهتم لوجودك في هذا المكان، ربما لأنك آخر شيء قد يفكر الحاضرون أن ينشغلوا بالنظر إليه، هناك الكثير من الأمور البالغة الأهمية.

أنا : سوف أحاول، اطمئن، سأقترب منك أكثر، إلا إن لعب الشيطان بعقلي و منعني (ضحكت)

هو : الشيطان اسم مرادف للشر فقط، و لو سلمنا بوجوده، فاعلمي أنه لن يتدخل فيك ما لم تتحرري من نفسك أولاً، و أنت مغلوبة من نفسك، فماذا يفعل الشيطان بك؟

أنا : (ضاحكة) هل تريد القول بأنني أنا كذلك لست حرة؟

هو : لست أنا من يحدد ذلك، الحرية تتعلق "بأنا" الإنسان، و لا دخل للآخر في تحديدها أو الحكم عليها، فقد أسجنك، لكنني لا أستعبدك، و قد أوفر لك كل ظروف العيش الكريم، لكنني لا أحررك...

كنت قد وجدت نفسي حينها في الشارع المفضي إلى البيت، كان البقال منهمكا في ملئ خانات الكلمات المتقاطعة، نظرنا إلى بعضنا في نفس اللحظة، انقطع الاتصال مع زوجي، لم أعد أسمع شيئاً، ارتبكت خطواتي، بينما بادرنى البقال بالكلام كأنه يعرفني من زمان :

- سيدتي، أريد منك مساعدة بسيطة أرجوك، ماذا تعني لفظة "حبيب ليل"؟

لم أنظر إليه، لكنه تدارك قائلاً :

- لا... لا... إنها بسيطة جداً لقد عرفتها.

ثم انهمك في الكتابة و هو ينطقها حرفاً حرفاً:

- ا...ل...م...ج...ن...و...ن...

كنت قد فته حين تساءل : "و ماذا تعني لفظة "تراه مغمض العينين"؟
 إنها كلمة من ثلاثة حروف؟ وفي آخرها ميم...
 لم ألتفت إليه، لكنني كنت أحس بالرغبة في الرجوع لكي أقول له : لقد
 عرفتها، اكتب : (ح...ل...م...)، و سمعته يحدث نفسه بصوت مرتفع قائلاً:
 "لا يمكن أن ترى و أنت مغمض العينين، هناك خطأ في هذا اللغز".

الجزء الثالث

مجانين أم عقلاء

للجنون علامات.

كل الأحداث السابقة، و كل القرائن، كانت تشير إلى أن زوجي لم تكن حالته النفسية مستقرة، و أنها كانت تسوء مع مرور الأيام، و كنت حينها أحاول أن أفهم فقط: هل فعلا يسير نحو الجنون؟ أم أنه فقط يعتمد هذا لغرض أنا لا أعلمه؟ فإن وجدت الجواب على هذا السؤال، فإني سوف أرتاح، لأني حينها، سأكون قد وجدت الإجابة على الكثير من الأسئلة التي ترهقني بسبب ما ألاحظه عليه خلال الزيارة أو المكالمة، و كذلك من خلال ما بدأ يروج بين السجناء من أنه أصيب بمس من الجنون.

جلست مع نفسي و بدأت أستعيد ذكرياتي معه خلال حوالي عامين من السجن، لكن قبل ذلك كان لزاما علي أن أتساءل: هل للجنون علامات؟ هل الجنون درجات؟ هل الجنون أشكال؟

إني أعرف الكثير من الأشخاص المتشردين في الشوارع، و الذين يصفهم الناس بالحمقى و المجانين، لكني لم أر يوما هذا الجنون و هو يتشكل شيئا فشيئا حتى بلغ أشده، لم أعرف أعراضه عن قرب، فكيف أستطيع أن أميز ما بزوجي و أنا لا أراه إلا لحظات قليلة، و لا أسمعه إلا في المكالمات الهاتفية؟ إن الكثير ممن يصفهم الناس بالحمقى و المجانين، لا أرى أن بينهم وبين العاقلين فرقا كبيرا في الكلام و في السلوك، و لولا أن الناس اتفقوا على

ذلك و أعلنوا عنه، لما كنت عرفت بأنهم حقى، و لذلك ما كان مني إلا أني اتجهت إلى نبي هذا الزمان و طبيبه و عالمه الأكبر "غوغل"، و بحثت عن علامات الجنون، لعلني أأقارنها بتصرفاته و سلوكه و أرى هل فعلا كلامهم صحيح.

لا يتأخر "غوغل" أن يقترح عليك ربما ما تفكر فيه حتى إن كنت قد نسيت، كأنه يعلم حالتك، أو يعلم ما بنفسك، و الكثير من مستعمليه لا تثير انتباههم هذه الأمور لانشغالهم بالاستمتاع بالمعلومات التي يسديها لهم. كتبت في خانة البحث لفظة (جنون)، فوجدته يقترح علي ألفاظا أكثر دقة، أثار انتباهي من بينها: (علامات الجنون) و (علامات الجنون المفاجئ)، كان الاقتراح الأخير أكثر دقة و أجمل تعبيرا عما يروج بنفسه، ضغطت عليه فظهرت آلاف النتائج، و ذهبت لأفتح الرابط الأول لأنه في الغالب يكون الأكثر مصداقية، فقرأت أولا تعريف الجنون: (هو عدم القدرة على التحكم في العقل)، كان التعريف طويلا، لكنني فهمت المقصود و انتقلت إلى الفصل بعنوان: "علامات الجنون" فقرأت:

- الاكتئاب الشديد و الرغبة في الانعزال.

- حدوث اضطرابات في النوم.

- التغير المفاجئ في السلوك مع الآخرين.

- عدم القدرة على التركيز.
- التحرك بكثرة وبعشوائية.
- انعدام العلاقات الاجتماعية.
- التدين الكبير أو الكفر الشديد.
- النزعة العدائية تجاه الآخرين.
- التعبير عن الرغبة في الموت أو الانتحار.
- عدم الاهتمام بالنفس و بالنظافة.
- الأفكار الخارجة عن المألوف...

لم تتوقف لائحة الأعراض عند هذا الحد، فأعراض الجنون هي نفسها أعراض العقل مسبقة ب"لا"، و كلما فتحت رابطا آخر إلا وجدت أعراضا جديدة، و بينما فكرت في إغلاق الصفحة، وقعت عيني على العنوان التالي: "أسباب الجنون"، لم أكن مقتنعة بهذا العنوان، لأنني كنت دائما أعتقد أن الجنون اختيار شخصي، و نادرا ما تكون له أسباب خارجية، لكنني رغم ذلك قرأت، من أسباب الجنون:

- التعرض لأزمات نفسية خانقة.
- الوسواس و حديث النفس.
- الكحول و المخدرات - أسباب وراثية...

لكنني أريد أن أعرف فقط، أليس هناك أشخاص مصابين بالكثير من هذه الأعراض، لكنهم يعيشون بيننا بسلام و لا ننتعهم بالمجانين؟
أليس هناك أشخاص لا تبدو عليهم واحدة من هذه العلامات، لكنهم يرتكسون في حمأة الجنون الآسن؟

هل دائما نجد نفس الأعراض لنفس الأمراض؟

إني أرى بأن العقل و الجنون، كلاهما موجودان في نفس الإنسان، كل إنسان، و هو وحده من يملك أن يختار أيهما حقيقته، فالوهم نصف الداء كما قال "ابن سينا"، و لذلك أنت ترى في الكثير من الحالات مجانين ينطقون بحكم بليغة، و زوجي نفسه، أعرف أنه كان رجلا سويا غير مهتم بضرب الأمثلة أو التفكير في الحياة و الموت، لكنني لا أفهم كيف صار ينطق حكما بليغة، و من أين تتأتى له، كأن يقول لي في الزيارة الأخيرة بدم بارد و نظرة متشائمة: "إن الحياة معزوفة، لا تستوي إلا لمن يحسن الرقص على ألحانها".

لكن ما الذي لاحظته عليه زملاؤه السجناء، حتى اهتموه بالجنون واشتكوه لإدارة السجن؟ فالحمق كما يقول أسلافنا (تسع و تسعون نوعا، لا نعرف منها إلا من يرمي الناس بالحجر).

و لماذا أنا ممنوعة من زيارته على الأقل لكي أعرف أحواله؟

و لماذا رموه في زنزانة منفردة؟ و إلام سيستمر الوضع على هذه الحال؟

كل هذه الأسئلة، كنت أطمح أن أجد أجوبة مقنعة عليها خلال زيارتي لمدير السجن في مكتبه، كان هو من دعاني لذلك، كان لا بد له من استشارتي في الأمر، لأن الحال لا يتعلق بمرض عضوي، قد يذهب معه الطبيب إلى حد بتر العضو المصاب و يبقى الإنسان هو نفسه، ولكنه يتعلق بمرض نفسي و عقلي، يتبدل بسببه الإنسان و يصير شخصا آخر غير الذي نعرف حتى إن بقيت الأعضاء نفسها.

كان المدير قد أحضر الطبيب المسؤول عن تشخيص حالة زوجي منذ البداية حتى اليوم، كدليل يطعم به أقواله و قراراته.

رحب بي المدير و فسر لي السبب الذي استدعاني من أجله، و تحدث بإطناب عن الجانب الأدبي من حالة زوجي، بحيث انهمك في الحديث عن الأحداث و الأوصاف، انطلاقا من بعض ما حكا له السجناء قائلا:

- أول أمر يمكنني الإشارة إليه، هو أن حالة زوجك النفسية قد تغيرت، و انعكس هذا على الكثير من تصرفاته، يحكي زملاؤه في الغرفة بأنه كان اجتماعيا، و اليوم صار منعزلا لا يكلم أحدا و لو لأيام، أنت قادرة على ألا تكلمي أحدا خلال أيام؟ (سألني و لم ينتظر الجواب).

الأمر الثاني، هو أنه كان ميالا للدعابة و الضحك، و اليوم صار عابسا لا يتسم، و قد حكى زملاؤه بأنهم لم يروا ابتسامته لمدة طويلة، أنت قادرة على ألا تبسمي لأيام حتى مع الفجيرة و الألم؟ (سألني و لم ينتظر الإجابة).

الأمر الثالث، هو أنه كان مسالما ينزع في معظم حالاته إلى التفاهم، و اليوم صار عدوانيا قادرا على افتعال أكبر عدد من المشاجرات، و لا يهدأ له بال إلا برؤية الدم. (كان هذا الكلام بالنسبة لي ضربا من العبث الذي لا يمكن أن أصدقه).

كل هذه الأمور قد تبدو لك اختيارات شخصية و ميولا، لكن الأمر الرابع والذي ينفي هذا الاحتمال، هو أن زوجك كان مسلما، مؤمنا بالأركان الخمس كغيره من الزملاء، و أنه قد صام رمضان للسنة الماضية، و اليوم، اكتشفنا بأنه يفطر في رمضان علنا، و يدافع عن موقفه جهارا، و يقول بأنه لا يقتنع بفكرة الجوع من أجل إرضاء الله، و الأغرب من هذا، هو نزوعه في منتصف الليل إلى قراءة القرآن بصوت مرتفع فيزعج زملاءه النائمين، و لم نعجب كيف يؤمن بالقرآن و لا يؤمن بالصوم، لأنه أحق، و الأحق له تفسير خاص لكل شيء يمر أمام عينيه.

و لذلك اقتنعنا فعلا بأن الأمر ليس بسيطا، و أنه علينا التدخل من أجل إنقاذه، بحيث وضعناه أولا في زنزانة منفردة حماية له من نفسه و حماية للآخرين منه، لأنه قد يؤدي الآخرين و يؤدي نفسه، و في هذه الحالة قد نضطر إلى تقييد يديه

و رجليه أو حتى تزويده بحقن من أجل النوم و الاسترخاء، ثم جلبنا له الطبيب للإشراف على حالته و تحديد مستقبله، فإن تحسن و تماثل للشفاء، سنعيده إلى غرفته و زملائه، و إن استعصت حالته، سننقله إلى مستشفى الأمراض العصبية و النفسية.

- فهل بإمكانني أن أراه؟ أريد فقط أن أطمئن عليه، أن أنظر إليه.

وافق المدير، فذهبت برفقة الطبيب و أحد الحراس إلى زنزانتة الموجودة في جناح بعيد عن هذا المكان، لقد مشينا كثيرا، يبدو بأنهم خصصوا هذا الجناح للمجانين فقط، إنهم يوجدون في أطراف السجن، ربما لانعدام قيمة سجنهم، باعتبار فقدانهم لحاسة التمييز بين الحرية و الاستعباد، ثم لأنه لا يحسن وضع الحمقى إلى جانب العقلاء.

توغلنا في الزنازين الانفرادية، كنت لا أسمع أصواتا، لأن كل سجين هنا، وحده، فإن أراد أن يتكلم، فقد لا يحدث إلا نفسه، و ربما بهذا هو يزيد في جنونه فقط، إلا واحدة سمعنا فيها ضربا، ألقى الحارس إطلالة على السجين فوجده يضرب الحائط بشيء في يده، فابتسم و قال لنا لامباليا: "ربما هو الآن بصدد بناء قصر في خياله".

و بعد دقائق، فتح الحارس البوابة الصلبة، كنت خلفهم، دخلوا إلى الزنزانة الضيقة، ما أوحشها، إنها تتكون فقط من أربعة من الحيطان الباردة، و شباك

حديدي صغير كأنها قبر، أطللت عليه، أصبت بالذهول، كأنه ليس زوجي، كأنه رجل آخر، أثار انتباهي شعره الكثيف غير المرتب، لم أره في حياتي هكذا أبدا، لكن الملامح هي نفسها.

كان مرتخيا كأنه أفاق من غيبوبة، كأنه دمية، أطرافها يابسة و عيناها لا ترمش، كان ينظر إليهما كرضيع، لكنه لم ينظر إلي، كأنني لست موجودة، فلما اطمأنا خرجا و تركاني معه، و تركا الباب مفتوحا ترقبا لأي خطب، اقتربت منه قليلا، كان مستلقيا على ظهره، نظرت إلى عينيه، بينما ألقى علي نظرة فارغة، لا تقول شيئا، لا تعبر عن شيء، كأنه لم يعد إنسانا، فحتى الكلاب قد ترى في عينيها الغدر.. كنت يائسة من حاله، و علمت أنه لن يفهم ما أقوله له، لكنني جربت أن أسأله بصوت منخفض: "هل أنت بخير؟"

لم تبد عليه علامات التجاوب مع سؤالي، بدا كأنه لم يسمع، حاولت الاستفسار: "هل سمعتني؟"

لم يتحرك، و لم يتأثر، لامست يده، لكنه لم ينتبه إلي، إنه لا يشعر بما حوله، سحبني الحارس من ذراعي مواسيا: "احمدي الله أنك وجدته هكذا، إنه كان يزمجر كثور هائج."

عدت أدراجي و أنا أفكر، لقد جئت لكي أكتشف في زوجي علامات الجنون، فاكشفت فيه علامات الموت.

المجانين في نعيم

عدت من الزيارة شبه منهارة، كانت الأسئلة تنهشني كما تنهش الذئاب الفريسة، تمزقني أشلاء، لم أجد بدا من التفكير، فأنا لا أملك غيره، في كل واحد منا يسكن بعض من الجنون الذي بدأ يطفو على عقلي رغما عني، كنت أحدث نفسي في صمت ماشية، لكن بداخلي كانت الفوضى عارمة، كنت أنطق على لسان كل الذين يرتادون الحوار الذي في خيالي، و كنت أضغط على الكلمات حتى صارت تنفجر في لساني و أنطقها جهارا، فوجدت أني أكلم نفسي كالحمقاء، الحمد لله، لقد انتبهت حولي، و لم يكن بقربي أحد، لم يسمعي أحد، لم يرني أحد، ولكن، لماذا كل هذا الاهتمام بالآخرين من أجل إخفاء شيء موجود في صدور كل الناس؟

دخلت إلى غرفتي، وضعت كل ما بيدي، ثم استلقيت على ظهري، كان الإرهاق يأخذ مني كل مأخذ، لكنني رغم ذلك لم أجد بدا من الرد على كل استفسارات "حكيمه" و أمها، كانتا تريدان معرفة كل شيء عن زوجي، حتى أدق التفاصيل، كأنهما تكتشفانه من جديد، فهو اليوم بالنسبة للجميع، إنسان آخر.

الإنسان، ليس مجرد جسد فقط، ليس مجرد حدود تحتل المكان، ولكنه كذلك، وأكثر من ذلك، أفكار و ذكريات تدل عليه، و تشير إليه، فإن غابت الذكريات و الأفكار، لم يبق إلا الرسم بلا روح.

كانت أمه تريد أن تعرف كل شيء، كانت تسألني في لهفة:

- هل كلمك؟
- لا، لم يتكلم قط، أعطوه حقنة مهدئة، كان شبه غائب عن الوعي.
- وكيف هي حالته؟
- لم أنتبه لشيء، كنت أرى فقط خشبة أمامي، حتى أنه لم يتحرك قط من مكانه لأنظر تحته أو أعرف هل يؤلمه شيء أو يخصه شيء. (تلقفت "حكيمة" الكلام مني ثم حاولت أن تنقص من حدة الموقف)
- نعم إنهم يحقنهم لكي يحموهم من أنفسهم كذلك، فالإنسان في كل الحالات منتصر، إن انتصر على نفسه، منهزم، إن انهزم أمامها، مهتد، إن اهتدى إلى نفسه، تائه، إن تاه عنها، فقد يكون مصابا بهستيريا، و لا يتوقف عن الحركة والصراخ ليل نهار، و ربما لا ينام، حينها قد يزداد حاله سوءا. (بدأت أمها تذرف دموعا، هي نفسها الدموع التي رأيتها تذرف عندما مات زوجها، بادرته "حكيمة" بالكلام):

- يا أمي كفاك، إنه سيكون بخير، هذا يحصل لكل الناس، فيحملونهم إلى الطبيب و يتعافون، فكلنا فينا جزء من هذه الأمراض، نحن فقط لا نعرف ذلك. (كانت الأم تذرف الدموع بغزارة، حاولت "حكيمة" مواساتها)
- يا أمي كفى دموعا، فإنك تبكيه كأنه قد مات؟ (أجابت الأم و هي تمسح دمعها في درتها)
- و هل تظنين بأنه حي؟ إن الذي جن، مات.
- هل يعرفك؟ هل يتذكرك؟ هل يحن إليك؟ هل يعطف عليك؟
- إنه لا يدرك حتى قيمة المكان الذي هو فيه، و لو أدركها لاختنق من الضيق. (أجابت "حكيمة")
- الحمد لله أنه مازال حيا، نتذكره و نراه كلما اشتقنا إليه، ثم إنه قريبا سيتعافى و يعود إلى سابق عقله. (قالت الأم بحسرة)
- لا أريد صورة ابني يا بنيتي، ولكني أريد ابني، أريد الإنسان، بكل أحاسيسه ومشاعره.
- ران جو من الحزن على قلوبنا، و ساد الأسى، و لم نجد بدا من الاستسلام لهواجسنا، و انصرف كل إلى وكره، فوجدتني كعادي، وحيدة أشاهد التلفاز دون تركيز، كأنه هو من يشاهدني، كم يعجبني هذا الشريط العربي القديم الذي وقعت عليه عيناى الآن، إنه بعنوان "المجانين في نعيم"، و يمثل بطولته

رجل يتمتع بالبراءة الكافية لكي يقنعك بأنه مجنون، "اسماعيل يس"، نعم، سوف تصدقه عندما يمثل الطفل، و تصدقه عندما يمثل الأهل، و تصدقه عندما يمثل المظلوم، و تصدقه عندما يمثل العسكري الفاشل، لأنه لن يتعلم كيف يحمل سلاحاً من أجل إطلاق النار على الآخرين، جميل أن يكون الإنسان هو "اسماعيل يس".

أتذكر مونولوجاً جميلاً له مع الممثلة "سعاد مكاوي" عن معنى السعادة بعيداً عن المال، حين يقول لها: "أنا مروح"، فتقول له: "ما تروحشي"، فيلح عليها: "عاوز أروح"، فتلح عليه أكثر: "ما تروحشي"، فيصف لها مشاعره قائلاً:

"فين الفول فين الطعمية؟

فين الفجل فين الكرات؟

لو كان دي شرط البهوية

يحيى العدس عشر مرات

أكل دقة و أعيش متهنى

ولا أكلش كباب راح يقتلني

شوفي دراعي يا عيني يا دراعي

باخذ حقنة من غير داعي"

فتجيبه متأسفة:

"يا عيني يا دراعو

يا عيني يا دراعو"

فيقول لها: "لا أنا مروح"، فتقول له: "ما تروحشي"، فيلح عليها "عاوز أروح"، فتلح عليه أكثر: "ما تروحشي".

و أما الشريط الذي أشاهد الآن، فهو عن الرجل "قنديل" الذي عاش مدة عشر سنين في مستشفى المجانين، كان يبحث عن عمل، فيطلبون منه شهادة، فيخبرهم بكل شجاعة بأنه حاصل على الشهادة بأنه عاقل، و استغل بعض المال الذي تركه له أبوه قبل موته، ليفتح مكتبا لعلاج مشاكل الناس، و هو الأمر الذي ورطه مع الكثير من المحتالين، و بعد عدة محاولات، اقتنع "قنديل" بأن الحياة في مستشفى المجانين أفضل بكثير، وعاد بسرعة، و توسل إلى البواب، و أقنعه بأنه عندما أطل على عالم العقلاء، اكتشف بأن المجانين في نعيم.

و لم تمض إلا بعض أيام، حتى أخبرتنا إدارة السجن بأن زوجي قد هدا، و أنه لم يعد ثائرا كما كان، و أنه باستطاعتنا أن نزوره الآن، و ذلك الذي كان، فقد كنت متلهفة لرؤيته كأنني سألقى عائدا من الموت، و أعانقه بعد أن بكيت عليه، و أنظر إليه كأنني استخرجته من القبر، يا له من إحساس يجمع بين الألم

والاستمتاع، بين اليأس و الأمل، بين أن تفقد نفسك مستسلماً و أن تستعيدها متشياً.

و في الطريق إليه، عادت إلي ذكريات الزيارة الأولى، عاد إلى مهجتي التوجس و الخوف من القادم، كأني سأراه للمرة الأولى، أو كأني سأرى شخصاً آخر. و كالعادة اجتزت الإجراءات اللازمة لولوج قاعة الانتظار و أنا أتخيل في كل مرة سيناريو دخوله علي، لم يتأخر كثيراً هذه المرة، كأنه كان في الجوار، لم أتوقع ذلك، كنت أتمنى لو تأخر بعض الشيء حتى أستأنس بالمكان، ولكنه هنا الآن، بقربي، صافحني ثم جلس قبالي، كانت نظراته إلي تنضح باللامبالاة، كان لا يبتسم، لقد فهمت الكثير من الأشياء، لكنه لم يتكلم بعد، فالكلام وحده، يفصح عن حقيقة الإنسان بوضوح، حتى إن كان الإنسان لا يتكلم دائماً ليفصح، ولكنه كذلك يتكلم ليخفي.

حاولت أن أزج به في مسلسل اعتراف طويل، فربما أزعجه ما حصل له هذه الأيام، ولن يتخلص منه إلا بذرف دموع التظلم و الشكوى، فلو كنت مكانه، لما توقفت عن البكاء، هكذا كنت أفكر.

كنت أنظر إليه، بينما يخطف إلي بعض النظرات كأنه منشغل بالانتباه للناس حوله، كأني لم آت من أجله، و كأن الزيارة ليست مهمة بالنسبة إليه، و كأنه أتى إلى هنا، فقط لأنهم أمروه بذلك.

تأخرنا كثيرا قبل أن نبدأ بالكلام، لأنه لم يكن منتبها إلي، لكنني لم أتورع على مبادرته بالسؤال: "هل أنت بخير؟"

أوما بعينين ذابلتين ووجه شاحب موافقا، ولم يتنفس، ولم يتكلم.
دفعني هذا إلى محاولة التقدم قليلا في الكلام، فاقتربت منه أكثر، ووضعت يدي على يده المنكمشة، كنت لا أحس بالخفقان، كأنه لا يتنفس، فسألته بإلحاح: "ما بك؟ ماذا حصل لك هذه الأيام؟"

كان يتردد كأنه يريد أن يقرر بشأن الكلام أمرا، ثم قال بحزم: "ما حصل هو نفسه ما يحصل، الكثير، لكنه لاشيء".

حاولت أن أفهم، لكن بدون جدوى، حاولت أن أجمع هذه الكلمات و أخلص إلى نتيجة، لكن بدون جدوى، ثم قلت سأستدرجه أكثر، سأحاول فقط أن أفهم، لأنني لا يمكن أن أسأله الآن: هل أنت مجنون؟ سأكون غبية ومجنونة أنا الأخرى، فقلت له: "هل أنت محتاج إلى شيء أحضره لك؟"

هو: "اتركوني فقط، لا تسألوا عني، إني سأموت قريبا."

أنا: "الموت بيد الله".

هو: "لكنني أنا الذي أحس، أنا الذي أعرف، أنا الذي أعيش".

أنا: "الموت يأتي في أجل أنت نفسك لا تعرفه".

هو: "ولماذا يخفي الله عنا يوم موتنا؟ أليس من حقنا أن نعرفه؟"

أنا: لم نعرف يوم مجيئنا، إننا جئنا فقط، و ربما كنا قبل نأتي إلى هذه الحياة، وما نعيشه هنا ليس إلا مرحلة من مراحل تحولنا.

هو: و السجن، هل هذه مرحلة من مراحل تحوله؟ و الشجر؟ و الشمس؟ والقمر؟

أنا: كلها لا تحقق وجودها إلا في ذهن الإنسان، لا وجود لشيء خارجك إلا عندما تدركه، الإنسان هو الحقيقة و هو الوجود، و كل المخلوقات لا تتحقق إلا من خلاله.

هو: يقال بأن هناك في هذه الدنيا أناسا اكتشفوا سر الخلود و تناولوا إكسير الحياة، و هم يعيشون بيننا منذ قرون، و يتحولون من بلاد إلى أخرى، ويستمتعون بالتطور الذي نحققه، لكنهم لا يعلنون عن أنفسهم، و هم ليسوا أكثر من اثنين أو ثلاثة أشخاص.

لم أتحمل كلامه الحالم، و أعرف بأنه الآن لا يؤمن بشيء اسمه منطق، فحاولت أن أجاريه حتى حان موعد المغادرة، انصرف خطوات قليلة ثم عاد إلي مسرعا موصيا بإلحاح: "لقد أتعبتني الفئران في الزنزانة، إني وحدي، اجلبي لي الدواء لكي أقتلها..."

وافقته الكلام بسرعة، و حاولت أن أرضيه، و في الزيارة التالية حملت إليه دواء الفئران، ربما يرضى فيتقبل كلامي على الأقل، و يقبل أن أناقشه في بعض

الأفكار، لأنه تبدل، و صار شخصا آخر أنا لا أعرفه، كيف يعيش الإنسان دون أن يبتسم و لو للحظة؟

كيف يجزم الإنسان بأنه سيموت غدا؟

كيف يكره الإنسان كل من حوله؟

إن الذي لا يبتسم، ميت، و الذي لا يتألم، ميت، و الذي لا يفرح، ميت، و الذي لا يرضى، ميت.

أعطيته الدواء الذي طلب مني و انتظرت انفراجا و لو بسيطاً في أساريه لكي أسأله عن حاله، لكن هذا لم يحصل، كان وجهه مرسوماً هكذا، حزين، كئيب، غاضب من نفسه و من كل من حوله، كان ينظر إلي كأنه يأمرني بالابتعاد، لقد صارت نظراته تخيفني، لكن في نفسي عاطفة و حبا أقوى من الخوف.

ليت الدواء الذي بيده الآن، يقتل الأفكار التي ترهبنني و تحمله إلى أعالي الموج.

الرسالة

كتب الزوج رسالة إلى زوجته "شرقية"، ثم بعثها عن طريق الهاتف النقال، لكنه يعلم بأن الشبكة لا تشتغل في السجن إلا في ساعات محددة، و هو يعرف جيداً بأنه مهما حصل، فقد ذهبت الرسالة و حفظت، و ستسقط في علبتها حال عودة الشبكة، لذلك، فقد تأخرت ساعات قبل أن تصلها:

"زوجتي العزيزة..."

و بعدما اسودت الدنيا في وجهي، و أغلقت كل أبواب الحياة، وعجزت عن مقاومة الرغبة الملحة في الموت...

بعدما فكرت ملياً، و أعدت التفكير مرات...

بعدما اكتشفت بأن كل شيء في هذه الحياة مرتب سلفاً، و أنه لا يدي في خطوة أخطوها، منذ أفيق حتى أنام، بل حتى في النوم و الأحلام...

بعدما عرفت بأن نهاية الحياة هي نفسها : (الموت)، في كل مكان و في كل زمان و لكل المخلوقات...

بعدما أيقنت بأن الموت، مهما قيل مصيبة، هو أحسن خلاص من هذا السؤال الذي يلح علي في كل حين، لأنني كنت و لازلت دائماً أحس بأن هناك شيئاً ما أريد أن أعرفه قبل الأوان، لكنني لا أعرفه، و بأن هناك شيئاً ما، أريد أن أفعله، لكنني لا أستطيع، و بأن هناك فكرة قديمة في خيالي، لكنني لا أتذكرها...

بعدهما تعذر علي معرفة لماذا أخفى الله عنا المستقبل ؟ و أين يخفيه ؟ هذا
إن كان الله موجودا حقا...

بعد كل هذه الأفكار التي لا أدري، هل تطاردني وحدي ؟ أم أنها
تطارد أناسا آخرين مثلي ؟

بعد كل هذا، قررت أن أكتب وصيتي الأخيرة، لا يهمني أن يتحقق ما
فيها، ولكن يهمني فقط أن أعبر عن نفسي فأتحرك.
زوجتي العزيزة...

ربما أنت في هذه اللحظة، تنتظرين مني أن أدلك على المكان حيث
أدفن الكنز العظيم، الكنز الذي سينقلك، كما تقولين دائما، من الموت إلى الحياة،
لأن الفقر بالنسبة إليك، كان و لازال مرادفا للموت.

الكنز في هذه الحياة، هو الحرية، و الحرية، هي أن تقتنع بما تفكر فيه،
ولا تنقيد بسؤال ليس له جواب.

و ربما تنتظرين مني أن أوصيك ببناتي و بمستقبلهن، و بوالدتي
وممتلكاتي.

لا يملك الإنسان شيئا في هذه الحياة، و لو كان هذا غرضي، لكان
حافزا لي أن أفضل الحياة على الموت.
زوجتي العزيزة...

ها أنا ذا قد ظهرت نفسي و قتلت رغبتني في التخلص من اللا جدوى،
و ارتعيت بين ثنايا العدم الذي كنت أسمع عنه، لكنني لا أعرفه.

ها أنا ذا، في اللحظة التي تقرئين هذه السطور، قد وجدت الجواب
الذي طالما أرهقني، و علمت هل لفظة البعث حق أم أنها مجرد أوهام؟
كنت دائما أشكو إليك الهم الذي يثقل على مهجتي، و الذنب الذي
يؤنبني في كل حين، لكنك كنت لا تعيرين شكواي كبير اهتمام، و كنت
أحسدك على براءة عينيك و بعد مقالك على هول المقام.

و اسألي نفسك الآن و أنت تقرئين هذه السطور، هل كنت حقا
تشعرين بمأساتي؟

طبعاً جوابك هو جوابي : لقد كنت تفكرين بعيداً عما في نفسي.
كنت دائماً أقول لك، إني قاتل ظلماً، لقد قتلت أقرب صديق إلى نفسي،
لكنك كنت دائماً تعتبرين كلامي مجرد بوح من أجل التخفيف عن النفس.
نعم، كنت ألس في عينيك الكثير من التعاطف معي، لكنني كنت لا
أحس منك تأثيراً بما أكنه في صدري، كان يؤلمني هذا الإحساس كثيراً.
كم حاولت أن أقرأ في ملامحك إحساساً بحالي و حسرة على واقعي
واندماجا و تأثيراً، لكنني كنت أجدني أصغي لك و أنت تربتين على كنفى قائلة :
"اصبر، فلست وحدك القاتل في هذا الوجود".

نعم، لقد كنت، بهذا الكلام، تثبتين لي اعتقادك الجازم بأني قاتل
مذنب، وكنت أتألم.

كنت تعتقدين بأنك تواسيني و تؤنسني غربتي، بحيث تثبتين لي بأني
لست وحدي، و لكن في الدنيا، الكثير ممن هم مثلي و ربما أكثر مني، لكني
كنت أتألم.

زوجتي العزيزة...

أعرف بأنك إلى هذه اللحظة، لازلت لا تدركين ما هو مغزى هذه
الرسالة؟ و ماذا أريد أن أقوله لك؟ لكني أدعوك فقط لقراءتها حرفاً حرفاً،
ستعرفين كل شيء.

أريدك أن تفهمي، بأني مت مقتولا، و عما قليل، سأعلن لك عن اسم
قاتلي.

أريدك أن تفهمي بأني بهذه الرسالة، لم أنتقم من نفسي، و لم أنتقم
منك، ولكني، أريدك فقط أن تشعرني بما كنت أحسه منذ ذبحت صديقي
الإنسان من الوريد إلى الوريد.

أريدك أن تعرفي، بأن الظلم مهما كان، و بأن الخطأ مهما كان، لا
يتوجب أن تقتل من أجله الإنسان.

وا حسرتي...ليت لي عقل "اليزيد الأهل"، كنت بكيت، و ساحت،
و نسيت، و ربما في هذه اللحظة، كنت أضحك على اللاشيء.

زوجتي العزيزة...

أريدك أن تعرفي، بأنه ليس من حق الإنسان أن يقتل الإنسان، لأنك لا
تملك أن تكسر إلا الأشياء الني صنعتها بيديك، و عندما قتلت صاحبي
وندمت، قمت اليوم أبحث عنم يقتلني بدم بارد، فلم أجد إنسانا أعز إلي من
زوجتي الغالية.

أتذكرين يوم قلت لك اجلي لي بعض السم لكي أدسه للفران
الموجودة في زنراتي، لأنها تزعجني كثيرا خلال النوم؟
أتذكرين يوم قلت لي : أخاف أن أجلب لك السم فتقتل به نفسك أو
تقتل غيرك، فأكون أنا المذنب؟

و تذكرين طبعاً يوم قلت لي بأن السم محظور، و ليس من حقك
إدخاله إلى السجن.

و لكنك رغم كل هذه الإشارات، تحديث القانون و الأسوار
والحراس و كل المواثيق، و أدخلت إلي كمية وافرة من السم، كأنك تجهلين بأن
جرعة صغيرة منه، قادرة على قتل كل الفران الموجودة في عقلي.

الفران، يا زوجتي العزيزة، هي الوسوس التي ترهقني في كل ليلة،
والغرفة، يا زوجتي العزيزة، هو هذا الرأس المظلم ذو الأسوار المقفلة.

أريد أن أفهم فقط، كيف تجرئين على وضع السيف البتار في كف من
لا ساعد له؟ ماذا يفعل به إن لم يغرسه في صدره؟

لقد جلبت لي السم القاتل يا زوجتي العزيزة، ها هو الآن بين يدي،
وبعد قليل سأشربه، وأسقط صريعا، جثة هامدة.

أعرف بأنك الآن، في هذه اللحظة، تتمنين ألا أفعل، و تتوسلين إلي ألا
أفعل، لكن أقول لك اطمئني، لقد فعلت، ألا تذكرين بأنك قد دفتني
وبكيتني و عدت إلى البيت؟ لقد شربته يوم اقتنعت بأن أفضل الموت، هو أن
يقتلك أقرب الناس إلى قلبك.

زوجتي العزيزة...

ها أنت الآن مثلي قاتلة...

ها أنت الآن، سوف تشعرين بصدق ما كنت أحسه، و ما كنت أحكيه
لك.

لقد كان علي أن ألقنك هذا الدرس، حتى إن كان ثمنه حياتي، حتى إن
كان طعمه مرا على نفسي.

ها أنت الآن مثلي، قاتلة...

فابحثي لك عن حجة تخلصك من عقدة الذنب كما بحثت عليها أنا،
و كانت حجتي هي الاستسلام للاجدوى الحياة.
ابحثي لك عن ذريعة كما فعلت أنا، و كانت ذريعتي هي الكشف
المتسرع عن إجابات لهذه الأسئلة المبهمة في خلدي.
ابحثي لك عن مبرر يسعفك، و كان مبرري هو تطهير ضميري من
عقدة الذنب التي تلاحقني في كل حين.
كل الوسواس و الأوهام التي كانت تطاردني، أظنها سوف تموت
معي، و لكنها ستعود إليك في صيغة أخرى.
زوجتي العزيزة...

كلنا قاتلون، لكن الذي يختلف، هو فقط نظرنا إلى الجرم، و عذرنا في
القتل، فكم من رجل دنس يديه بدماء الأبرياء، لكنه يرى بأن فعله هذا هو
بمثابة تطهير لتلك الأرواح النجسة، أما أنا، فإني رأيتها خطيئة لا تغتفر.
إننا في الغالب، نقتنع بما لا نؤمن به، فنمارسه، و نخترنه في صدورنا
و أفعالنا، و ندافع عليه، لكننا نحاربه في معتقدات الآخرين و أفعالهم.

كم نحن متناقضون !!!

و الختام سلام..."

× × ×

عندما انتهت من قراءة الرسالة، كانت ملاحظتها قد تغيرت، كانت لا تفرز الأصوات التي تطرق مسمعها، كالذي خرج للتو من الضجيج. هرولت إلى الغرفة المجاورة و أخذت الهاتف و اتصلت بإدارة السجن، أخبرتهم بالأمر، كانت ملامح الرعب تبدو على محياها، و على محيا مدير السجن و هو يأمر الحراس بأن يركضوا نحو غرفته، ففتحوا الباب، ووجدوه جالسا و أمامه كأس من الماء الصافي، فارتقوا عليه، و جردوه من كل ما بيديه، و قيدوه، و حملوه إلى مكان آخر و هو يبتسم، ثم يضحك، ثم يقهقه بأعلى صوته كأنه انتصر أخيرا.

أما الزوجة، فقد كانت تضع كفها على خدها، و صارت تحملق رويدا في الظلام القادم من صلب النهار، كان صوت أذان المغرب قد هتف: "الله أكبر"...

كانت تدب بخطى متثاقلة قرب المسجد، و من فتحة الباب الكبير، تنظر إلى صف من المصلين يركعون و يسجدون كرجل واحد، كانت رائحة الصلاة تؤثث المكان و تنبعث من الجنبات، و أما "اليزيد الأهل"، فقد مر بجنبها و نده عليها قائلا: "شرقية، راجلك مات".

كان ينتظر أن تحييه بالإيجاب، لكنها لم تنتبه إليه، فصار يعيدها على مسمعها كأنه يلح عليها: "راجلك مات، راجلك مات، راجلك مات".

لم تلق بالا لصوته إلا بعد أن لامس كتفها بيمنه كأنه يعزيها، فلما نظرت إليه سأله بثبات، كأن عقله هب فجأة :

- شكون قتلو؟ (من قتله؟)

- لا أحد...

لكن عقله الصغير عاد فجأة، ثم ذهب و هو يبكي بكاء الأطفال

مرددا :

- لا، لقد قتله أحدهم، لا أحد يموت وحده.

كان كلام "اليزيد الأهل" كمثّل صفة جعلت "شرقية" تصحو على

خطى إمام المسجد مغادرا، فتقدمت نحوه منادية :

- سي الفقيه، سي الفقيه...

توقف الفقيه بجلابته البيضاء و هيئته المعتادة و قامت الطويلة، صار

ينظر إليها من أعلى متعجبا و يتفحصها و هي تحكي له قصتها مستفسرة عن

موت زوجها المنتحر.

كان يكلمها بشفتين باردتين و يدين تميلان ذات اليمين و ذات

الشمال، كأنه يفصل بين الكفر و الإيمان، ثم أشار إليها بأصبعه السبابة، كأنه

يغرس ذراعه في صدرها و يخرج مرّات، كنت أعرف بأنه يردد حينها بعنف :

أنت، أنت، أنت.

مرت اللحظات بطيئة، فاتصلت بها إدارة السجن، وأخبروها بأنهم قبضوا عليه متلبسا، ففرحت كثيرا، ليس لأنه سيخرج من السجن، ولكن لأنه مازال على قيد الحياة.
أوهام تتحقق.

هنا، في اللامكان، حيث الجو هادئ و السماء تغلفها صفحة زرقاء، استلقيت على ظهري غير آبهة بمن حولي، كانت السماء كمثل سبورة لا متناهية الأطراف.

لم تكن تلك النقط البيضاء المتحللة سحبا، كانت تشكل خطأ أبيض في صفحة زرقاء، لم تكن سوى بقايا دخان طائرة و هي تحلق بعيدا، كنت أراها تتحرك ببطء شديد، و الخط يتبعها و يطول، و هي تبدو كرأس ثعبان صامت، بينما تتناقص النقط الموجودة في ذيلها كلما ابتعدت الطائرة، و بعد لحظات، تذوب النقط في الفضاء، و تختفي.

ربما هكذا نأتي إلى الحياة، و هكذا نمضي، كنقطة بيضاء من دخان، في صفحة زرقاء لا متناهية، تبدو ناصعة في أول الأمر، ثم تتلاشى رويدا رويدا، و تتحلل في الفضاء، حتى تختفي عن الأنظار.

كان ذلك منذ عشرين عاما، كنت حينها في السابعة عشر من عمري، حين بادرني صديق كثير الاهتمام بالقراءة، بكتيب عجيب، لم أذكر عنوانه، هذا يؤسفني فعلا، و لم أذكر اسم كاتبه، و لكن ما أتذكره، هو أنه كان كتيبا من الحجم المتوسط، كان لون غلافه أخضرا، و كانت أوراقه متناثرة، تكاد لا تعرف تركيبها إلا بأرقام الصفحات، و منذ أخذته في يدي، كنت أعرف بأنه كتاب سيضيع لا محالة.

هذا الكلام ليس خيالا، و ليس رواية أدبية، و لكنه حقيقة عشتها ورأيته و مازالت ذكرها محفورة في صدري، إلا أن الأمر الذي جعلها كالوشم الراسخ، هو أن هذا الصديق الطيب قد مات على إثر ذبحة صدرية، كنت حينها مستلقية في فراشي، و ذلك حين وصلتني رسالة نصية من إحدى الصديقات المقربات مكتوب فيها : "صديقك فلان قد مات قبل قليل، رحمة الله عليه".

كان خبرا مفاجعا، كاد قلبي يتوقف عن الخفقان، حتى بكيت طويلا، طويلا، و لما مد لي الكتاب، كأنه يعرف حاجتي إليه، أو كأنه يعرف مدى ما سوف يصيبني بسببه قال لي:

- اقرئي هذا الكتاب، سيعجبك كثيرا.

تلقفته من يده البيضاء، و ملمت أوراقه المتناثرة، ثم حاولت أن أستفسره علني أشفي فضولي متسائلة :

- عن ماذا يتحدث؟

لم يجبني عن سؤالي، و لم يبال بكلامي، لكنه انشغل عني، و في لحظة قال لي مستطردا:

- اقرئيه فقط، لا تسألني، اقرئيه أولا !!!

و أعرف أنه ما كان ليفعل هذا لولا علمه بما في الكتاب من أفكار، وبما بي من هواجس القراءة.

لا أتذكر فصول الكتاب كثيرا، و لكنني أتذكر جيدا، بأن الفكرة الأساسية التي يعالجها، هي تحليل و دراسة سلوكيات الإنسان و موقعه في هذه الحياة، و حتى لغته كانت بسيطة و مفهومة، بعيدة عن تعقيدات اللغة السيكلولوجية المتعالية، تدفعك دفعا إلى استيعاب أفكاره ببساطة، و قلب الصفحات بسلاسة و شغف.

كان الكتاب يتحدث كأنه معي، و كان يقحميني أنا كذلك في استنباط المفاهيم و المعلومات، و كان يضرب لي أمثلة أعيشها في كل يوم، و أعرفها جيدا، لكنني كنت لا أقف عندها أبدا، و لا أتساءل عنها، لاعتقادي بأنها

ليست مسألة طبيعية أن أستفهم بشأنها، ثم أنها ضرب من الأسئلة العبيثة، تماما كما كنت أعتقد بالنسبة لاختبار فيس بوك...

كان الكاتب يتكلم بثقة زائدة عن طبيعة الإنسان، و يقول بأن طبيعة الإنسان، هي تماما كمثل طبيعة الجن، يغلب عليها الشر، و أما الخير الذي نتعامل به و نعيشه، فما هو إلا شيء مكتسب بحكم التعايش بين الإنسان و (أخيه) الإنسان، (الأقواس التي وضعت على (أخيه)، كان يضعها صاحب الكتاب كلما ذكر هذه اللفظة، في إشارة إلى أن الإنسان يفكر بالفطرة بأن الإنسان عدوه و ليس صديقه، و قد أشار إلى ذلك الكثير من المفكرين، أهمهم "جان بول سارتر" الذي قال: (الجحيم هم الآخرون).

كان الكاتب يردد عبر الصفحات، بأننا نخجل فقط أن نردد قول "الإنسان و عدوه الإنسان"، حتى إن كانت هذه الحقيقة الثابتة التي ندرکها ونعرفها و نعيشها، و نعجز عن البوح بها.

كان الكاتب يردد على مدى الصفحات، بأن الإنسان ليس عدوا للإنسان فقط، و لكنه عدو كذلك لنفسه، و يتمنى لو أنه يتخلص منها في كل حين عن طريق الانتحار.

لقد تفنن كثيرا في ضرب الأمثلة التي تدفعني دفعا إلى الاقتناع به، مع العلم أنه ربما لا يدري أن كل من يقتنع به، ستكون لحظة فارقة في حياته، و ربما سيحصل له ما حصل لي.

كان يقول : "أنت أيها الذي تقرأ هذه الكلمات الآن،

تعال معي نفكر سويا في صمت،

تعال معي و لا تتردد،

فكل ما سنقوله الآن، سيبقى بيننا و لن يعرفه إلا نحن الاثنين،

و أنت تعلم تمام العلم أن كتابا مثلي لا يمكن أن يفشي أسرارك حتى إن فشلت و انهزمت، أنا مجرد سطور لا وجود لها إلا في عقلك، لكنني لست سطورا جامدة، أنا قد أغير الكثير فيك، و قد أنقذك من حال إلى حال، و قد أنقذك من الغرق و قد أدفعك إليه، لذلك أوصيك بالحدز، الكثير من الحدز مني و من كلماتي.

أنا كتاب، مجرد كلمات مسطورة في أوراق، قد أتخيل عليك بعنوان جميل و صورة مثيرة و عنوان شيق و ألوان متميزة، فقط لكي أجعلك تثق بي، وتضع رجلك الأولى داخل عتبتي فأخذك إلى سمائي إن كنت دهرا، و إلى أعماقي إن كنت بحرا، و إلى أجدائي إن كنت قبرا.

إني مجرد كلمات مشدودة إلى معان قد تتغير كلما تغيرت أنت، فكل ما
آمله هو أن أفنحك، بأن آتيك بكل ما تصبو إليه نفسك، و كل ما يحتاج إليه
عقلك حتى تطمئن إلي، فأخذك إلى حيث أريد.

أخبرني من فضلك، و لا تفكر كثيرا، و لا تراوغ في الجواب،
عندما تطل من شرفة بيتك و أنت في الطابق الخامس، فيتراءى لك
الناس وحجمهم أصغر مما تعرف، و تنظر إلى شكلهم غير الجميل و أنت
تراهم كأعواد الثقاب، ثم تحول نظرك إلى الأشياء، إلى الطريق الصلب
والسيارات تعبره بسرعة، فتقول في نفسك:

ماذا يحصل لو رميت حجرا كبيرا على رأس ذلك الرجل؟
ماذا يحصل لو كان رأسي موضوعا في المكان الذي مرت منه عجلة
تلك الشاحنة الكبيرة؟

ماذا يحصل لو قفزت من هذه النافذة الآن؟
ثم تتخيل أنك رميت الحجر على رأس ذلك الشخص فسقط صريعا،
و تتخيل أن رأسك كان موضوعا في المكان الذي مرت منه عجلة
الشاحنة الكبيرة فانفجر حتى لطمتك دماؤه.

و تتخيل أنك قفزت من الشرفة فانكسرت أضلاعك و اصطدم رأسك مع
الأرض فصرت جثة هامدة.

ألا يحصل لك هذا؟ لكن دعنا منه الآن، و تخيل معي أمراً آخر.

تخيل معي لو أنك في نفس الشرفة، لكنك هذه المرة تحمل بين ذراعيك طفلاً صغيراً، لا يدرك معنى للموت و لا للحياة و لا للعلو و لا للخطر، تحسه يندفع من بين يديك إلى الخارج بلا اكتراث، كأنه يريد أن يتحرر مبتسماً، ألا يقول لك صوت ما بداخلك، ما الذي سيحصل لو أنني رميت هذا الطفل من هذا المكان؟

ثم يحببه صوت آخر بداخلك موقناً: سيموت بالطبع، هل أنت أحمق؟ كيف تفكر في هذا الأمر؟

فيبدأ الأول بشحذ الأوهام من أجل الدفاع عن نفسه قائلاً: لكن احداً لم يجرب هذا لكي نعرف؟ ربما تحميه الملائكة؟ أليس الأطفال الصغار ملائكة؟

فتجد نفسك بين شخصين أو أكثر يتجادبون أطراف الحديث بداخلك، و أما أنت فلا تعرف من أنت من بينهم، و ربما تعتقد بأنك شخص آخر غيرهم.

قل لي إذن، ألم يحصل لك مثل هذا؟

أنا سأجيبك، بل سوف أجيب في مكانك، بأن هذا الأمر قد حصل لك مرات كثيرة، و حصل لك في أمور أخرى أنت تتذكرها الآن، و تريد أن تخبرني بها، و أنا أطمئنك بأني أحصيتها جميعا و أعرفها جميعا.

و أبشرك، بأنه إن كان قد حصل لك هذا، فأنت إنسان سوي، هذا ما سوف يخبرك به كل علماء النفس، لكن اعلم شيئا سوف أخبرك به أنا، و هو أن الإنسان السوي، هو فعلا من يفكر في رمي طفل صغير من الطابق الخامس، وهو الذي عندما يحمل سكيناً ليقطع به الخبز، يقول في نفسه : ماذا سوف يحصل إن غرسته في بطني؟ و ماذا يحصل إن ذبحت به فلانا أو فلانة؟

النتيجة أيها القارئ العزيز، هي أن طبيعة الشر مستفحلة فيك، لكنك تلجمها بالآيات و الأعراف و القوانين و الأخلاق، فلما يحصل انفلات أو فقدان للتوازن في لحظة ما، فإنك تطلق لها العنان، فتقع في أحد أمرين، أن تقتل غيرك، أو أن تنتحر".

هكذا أوصلني الكاتب إلى هذه النتيجة التي رأيت زوجي يعيشها بشقيها الاثنين، يقتل، ثم يفكر أن ينتحر، و من يقتل الآخر، فهو يوما ما سيقتل نفسه، لأن الفكرة هي نفسها.

ماذا كان يريدني أن أفهم؟

هل كان يريدني أنا كذلك أن أنتحر؟

هل كان يريد أن يوقظ غريزة الشر القابعة في أحشاء كل إنسان؟

و منذ ذلك الوقت، قرأت الكتاب و أرجعته إلى صديقي، و ندمت على قراءته لأنه جعلني أطرح أسئلة ليس بداخلي أجوبة عليها، و كان ذلك هو الكتاب الذي بقي عالقا في ذهني إلى اليوم، لقد كان كتابا غير حياتي و تفكيري و نظرتي للإنسان، و عرفني أني، كمثّل غيري، أصارع الجهل بالمصير و بالمستقبل، لأنه يراني من حيث لا أراه.

لا شيء في هذه الحياة يأتي صدفة، كل الذي نعيشه مدروس و مبرمج و منظم، فقد قرأت الكتاب الأخضر، و اقتنعت به فكرا، و لقنه لي زوجي في الواقع، ثم ها أنا ذا أجد نفسي أدور في دوامة "نيتشه" و في دائرة "العود الأبدي" للأحداث في هذه الحياة، و العود الأبدي للأرواح بداخل الإنسان. سأذهب الآن إلى غرفة نومي، و أفعل كما فعل "تولستوي"، إنه كان مهووسا بالانتحار، لكنه لم ينتحر، لقد تخلص من كل الأدوات التي قد تساعد على قتل نفسه خلال النوم، و أدخل الغرفة منه، و نام مرتاحا.

عدت إلى البيت منهكة، لم أفعل شيئا على غير عادتي، استلقيت على ظهري في الفراش، كانت ابنتي الصغيرة جالسة بجنبي، كان الصمت يلفنا في تلايب الموت، وصوت التلفاز خافت، و بداخلي كل أشكال الضجيج، و من تحت أنقاضه نضج لحن بريء يقول لي:

- متى سيعود أبي يا أمي؟ (لم أجد حرجا في الإجابة هذه المرة، لأنني لن أكذب، فقلت لها وأنا أدور برأسي إلى الجهة الأخرى):
- أبوك لن يعود يا بنيتي، لن يعود، بل إننا نحن من سيذهب إليه.
- و متى نذهب إليه يا أمي؟
- قريبا يا بنيتي، قريبا.

سيرة مجنون.

ربما يرى الجميع، وأنت من بينهم، بأن المجنون ليس من حقه أن يحكي مآسيه و يصف أحزانه لأنه لا يصف أفراحه، ليس من حقه أن يقول: لا، وربما لا يهتمك حتى أن يوافق بنعم، لأنه لا يهتم بما لا يقال، ولا يبالي بضرب المثل، ولا يحكم إلا على ظاهر الأشياء، وربما عندما يصفك، فهو لا ينتبه إلى تفاصيلك، و لا يعبر عما تحسه أنت، لأنك في عرف المجانين، أنت جسد فقط.

لكنني اليوم سأحكي، و رغم أنني اخترت الجنون بديلا عن هذا العقل البائس، فإني سأحكي.

أخذوني إلى الطبيب في السجن، جس نبضي و ضغطتي، و أخذ مصباحا دقيقا و صوبه نحو بؤبؤ عيني، و ركز طويلا كأنه ينظر من خلاله إلى عقلي، كنت أفكر حينها: هل بإمكانه أن يقرأ بهذه الوسائل أفكارني؟ هل بإمكانه أن يعرف أنني أتحايل فقط للخروج من السجن و لو إلى سجن آخر أكثر رحمة بي؟ هل تملك وسائل التشخيص أن تكتشف حقيقتي؟

كنت هادئا، لكنني كنت مستعدا للإعلان عن جنوني متى دعا الأمر إلى ذلك، و أما الطبيب، فإنه تارة يفحصني و تارة ينظر إلى أوراق جنوني الجديدة الموضوعة أمامه، كأنه يبحث لي عن سبب لما أنا فيه، و سألني كأنني عاقل، عن حياتي و أسرتي و عملي، و عن الأعراض و مدتها و عن النوم و الأكل، و عن

الجنون في أجدادي، وقد أخبرته بأني لا أذكر، ولكن ربما كان جدي الرابع أو الخامس مجنوناً ونحن لا نعرف ذلك، لأن الأسلاف في الغالب يخفون الحقيقة عن الأَخلاف.

كنت أعرف بأنه استفسر عني زوجتي، لذلك رأيت بأنه من التعقل أن أخبره بنفس الكلام وأنا مجنون.

و نظر إلى ملابسي المهترئة، و سألني عن الانتحار فأكدت له ذلك، ونظرت إليه كأنني أتمناه، و هو لا يدري بأني أحرص الناس على الحياة، و أني من أجلها أفعل كل هذا.

ثم أخذ القلم، و انهمك في تدوين تقريره الأخير، كنت أعرف بأنه الأخير من خلال حركات الطيب، لقد قرر بأن يتم نقلي إلى مستشفى الأمراض النفسية و العصبية في أقرب وقت، و قد رأيت ورقة الإحالة بأم عيني، و قرأتها و فهمتها و هو لا يدري، حتى إن كانت مكتوبة باللغة الفرنسية، فهي لغة أجهلها كمعظم الذين أعرفهم، لكننا لا نعرف منها إلا العناوين، و فرحت كثيراً، لكنني لا يمكن أن أبدو مبتسماً فرحاً، فالمجانين لا يفرحون.

كانوا يضعون الأصفاد في يدي و يسوقونني كهيمة إلى السيارة المخصصة لنقل الأموات، لم تكن في السجن سيارة غيرها، كان أحد الحراس

يقول لصاحبه و هو يعلم بأني أحق و لا أفهم معاني الكلام: "إن نصف السجناء هنا حمقى، و الإدارة تعرف ذلك، هل نسيت يوم ارتقى أحدهم من فوق السور فسقط صريعاً؟"، سكت الآخر لحظات ثم أجاب: "لكن حالة هذا السجين تستدعي نقله إلى المستشفى تحت الحراسة".

لقد تضاعفت علي الخطوب، لقد صرت سجيناً و مجنوناً، و الحمد لله أنني لا أدرك هذا، لأنني أحق.

أنزلوني داخل المستشفى، ألقيت عليه نظرة عاقل من الداخل، فالمجنون لا يلتفت حوله ليحفظ المكان أو ليستكشفه، رأيت تمثالا لعالم عربي تبدو عليه علامات الوقار مكتوب عليه "أبو بكر الرازي"، كنت أسمع هذا الاسم كثيرا خلال دراستي، لكنني ما كنت أعرف أن له علاقة بعالم المجانين. ثم رفعت رأسي و أعدت النظر إلى التمثال، حاولت أن أكتشف في ملامحه بعض صفات الجنون، لكنني لم أحقق ذلك، ففهمت بأن أكبر العققلين هم أكبر المجانين.

بعض المرضى يتحركون ببطء في الحديقة المجاورة، كأن الزمن هنا بطيء كما أرى، و بعضهم ينام ملأ الجفون على الكراسي تحت الأشجار. ها أنا ذا قد خرجت من السجن، ولكنني أفكر هل لهذه المغامرة من ثمن؟ فأنا تحت المراقبة المستمرة، و أنا اليوم مجنون و مسجون.

كان علي أن أطرق طرفي و أعدل عن التفكير و الاستكشاف، لأنني مجنون، ثم سحبني الحارس إلى داخل المستشفى، وضعوني في غرفة ريثما ينتهون من الإجراءات الإدارية، الغرف هنا أقل رهبة من التي في السجن، فهنا يفكرون فقط في شل حركتك، و لا يفكرون في معاقبتك على جناية أو جرم.

الأسوار هنا أقل هيبة و أكثر جمالا، ربما يختارون اللون الأبيض لكل الحيطان بشكل مقصود، فالأبيض لون الأمل، و حتى النوافذ كبيرة قد تبدو من خلالها صفحة شاسعة من زرقة السماء، و تأتي السحب ثم تمضي، كما تمضي سحب الحياة، و يتعافى كل مصاب من وعكته، يكفي أن يمد عينيه إلى الفضاء، فالنوافذ مفتوحة.

أقمت في غرفة شاسعة مع العشرات من الأشخاص، بدأت أتفحص الوجوه، لا أحد يهتم لوجودي في هذا المكان، كل واحد منشغل بنفسه، ومعظمهم يرقع ثوبا أو يطرد ذبابة أو يكلم عصاه ثم يضعها على كتفه وينسحب. هل كل هؤلاء الذين يقيمون هنا مجانين؟

هناك رائحة ليست جميلة تعطر المكان، هي خليط من رائحة مواد التنظيف القوية و رائحة الأجسام، لم يسبق أن شممتها قبل اليوم، لكن سبق لي أن شممت أسوأ منها.

صعب عليك أن تتقرب من مجنون و أنت لست في كامل جنونك،
 لأنك لن تتصرف على طبيعته، لكن من السهل عليه أن يهاجمك، لا يسألك
 عن تهمة جنونك كما كانوا يسألونك عن تهمة سجنك، ولكن لأن حاسة
 الجنون هي ما يدفعه لذلك، فأنت هنا، قد تفعل الكثير من أجل استخراج
 الشهادة بأنك عاقل، لكنك لن تستطيع.

زيارة غير معتادة.

نعم، هذه المرأة تتبني كأنها مجرورة من شعرها، إنها لم تتخل عني و لم تتركني حتى إن كانت تملك أقوى الأسباب من أجل ذلك، ربما هذا أمر وارد وصحيح و لا غبار عليه، ولكن فقط حين يتعلق الأمر بامرأة، فخصال المرأة في الصدق أقوى، و في الوفاء أقوى، و في الحب أقوى.

ما أن أدخلوني إلى المستشفى، وحملت لقب "مجنون"، حتى باغتتني الزيارة الأولى، ماذا تراها يا نفسي تحمل إلي من خبر فتؤمن بأنني سأفهمهم و أصدقهم؟ و ماذا تراها تحكي عني للسائلين عندما تعود؟
ليتي أعرف فقط ما هي أعذارها أمام الآخرين لما سمعوا بأنني أصبت بالجنون؟ أمام العجائز اللواتي تتجرأن بلا رحمة على طرح السؤال الأخير في أول المحادثة؟

و ماذا أقول لها أنا؟ كأنني سأراها للمرة الأولى.
هل أكشف لها منذ الأول بأنني لست مجنونا، و بأن ما قمت به هو مجرد تمثيلية أقحمتها هي الأخرى فيها لكي أخلص نفسي من السجن؟
إني أعتقد بأن هذا الاعتراف سيجعلها تفرح كثيرا من أجلي، إنه سيشكل حدثا كبيرا في علاقتي بزوجتي و بالآخرين، و لذلك لن أبوح به

الآن، فالأشياء المهمة في الحياة لا تأتي بهذه البساطة، سأحتفظ به إلى اللحظة المناسبة.

هل أعترف لها بالحقيقة؟ أم أتركها تكتشفها من تلقاء نفسها؟
و ماذا تكتشف؟ هل أخفي شيئاً؟ أم أن حقيقتي هي ما أعيشه الآن، و
مكاني هو الذي أنا فيه الآن؟ فكل الموجودين هنا يظنون بأنهم ليسوا في المكان
الصحيح، لأنهم ليسوا مجانين، و هذا هو نفس إحساسي، فبم أختلف عنهم
إذن؟

لقد صارت الحكاية أكبر مني، فالقصص التي ننسجها حولنا، نحن
من يتولى أمر شخوصها و وقائعها في الأول، و أمر أمزجتها و علاقاتها، فما أن
نجد لنفوسنا مكانا فيها، حتى يجرفنا تيار أحداثها إلى قدره المحتوم، لأن
الحكاية المنسوجة لها هي كذلك قدر و قضاء، لا نملك أن نغيره مهما كنا نحن
الكاتبين، و لا نملك أن نحبي و نميت مهما كنا نحن الآلهة، و إن كل كذبة
لفقناها في الواقع و صدقناها في الحكاية، ستصير حقيقة أكبر منا و علينا
تصديقها و التأقلم معها، و ربما تلبسنا و نلبسها و نكون بسببها أناسا آخرين.

و لهذا، أنت ربما تجد رجلا يكذب و يصدق نفسه مهما علم بأن
الآخرين يكذبونه، و تجد آخر يدعي و يصدق نفسه مهما علم بأن الآخرين
يعرفونه، و لا يستطيع الخروج من الشخص الذي رسم لنفسه لأنه نسج له

عالمًا بخصوصيات، لكن الآخرين يلومونه، لأنهم لا يعرفون هذا، أنت هنا، تضع بين حقيقتك، وبين ما رسمته لنفسك، وما يراك عليه الآخرون. إنني هنا أرى نفسي الوحيد الذي تضرب عليه الحراسة، لأنني بالنسبة للمؤسسة، سجين، حتى تنقضي المدة التي حكموا علي بها، لم تضق نفسي بالجنون، ولكنها ضاقت بالحراسة المضروبة علي، فإن قلبي يجزع كلما رأيت الحراس، وهذا الجزع، هو الدليل الوحيد الذي أحتفظ به لنفسي، والذي يثبت لي بأني عاقل، و أني لست مجنوناً، لأن المجانين لا تجزع قلوبهم لخطب، وحين تتساوى الأمور عندي، و أرى بأن الحارس مجرد علامة، سأدرك حينها بأني قد جنت.

حان موعد الزيارة، لقد وصلت زوجتي، أخبرني الحارس بذلك، ولعلها الآن تنتظري في الغرفة المخصصة لزيارة مجنون سجين، فالعقاب يتبع المذنب في كل مكان، إنهم يضعون على كتفي علامة تميزني عن باقي المجانين، وتعني بأني قادم إلى هذا المكان من السجن، و أنني أخضع للعديد من الظروف الخاصة، لا يلاحظ المجانين هذا، فهم يحسبونها فقط من زينة اللباس، لكن العاقلين يسألونني عن تلك العلامة فلا أجيبهم.

لن أغسل وجهي إذن، ولن أصفف شعري، ولن أزيل العمش من عيني، ولن أغير ثيابي، ولن أبتسم، سأبقى هكذا، ثابتا كصنم، حتى إن كنت أجهل رجلا وصف صنما يوما ما بالمجنون.

لم يكن الممر طويلا لكي يخول لي الفرصة اللازمة لاستعادة نفسي، انعطفت يمينا فخطفت نظرة سريعة إليها، كان هذا ما أستطيعه الآن، ثم غضضت طرفي و توجهت نحوها، كانت تبدو كلوحة باهتة مرسومة على قماش قليل السواد، تنظر إلي بعينين غامضتين و تدور بجسدها عني ذات اليمين كأنها خائفة، أو كأنها تستعد للذهاب.

لم أصدق أنني وصلت إليها، وأنها ارتمت علي و عانقتني كعازل، لكني الآن لست عاقلا، لم أحرك يدي، فقط عنقي كانت تحاصره بذراعيها الهزيلتين، أحسست بحشرة عميقة تغتال أنفاسها، كانت تبكي، كانت تذرف دموعا غالية، و لست أدري هل هي دموع الفراق أم عبرات العاقل على المجنون.

ثم أطلقت سراحي ببطء شديد، لم أشبع من حنانها لأنني لم أبادها العناق، أحسست بأن كل شيء هان، ثم جلست و جلست بجانبها، كانت تحمل معها إلي بعض الثياب و الغطاء و الطعام، و حملت معها الكثير من الحنان، لمحت في مآقيها دمعات تتساقط كالبحر، لكنني لم أسألها لماذا تبكي، وسألني بصوت خافت و هي تنظر إلي باحتشام: "كيف حالك؟"

"حالي؟"، و درت بعيني عنها ثم نظرت إلى الأسفل كأنني أفكر،
وربما تعرف أني لا أفكر لأنني مجنون، كم كنت قاس عليها حين أخفيت كل
الأشواق التي تعصف بي.

"ألست بخير؟ كيف يعاملونك هنا؟"، (قالت و رنة صوتها لا تحمل
معنى أنزعج من أجله، وليتها فعلت، لأنني لا أملك أن أحدثها عن نفسي، و لا
أملك إلا أن أبدو منزعجا لأكمل خطتي بسلام).

"بخير..."، (أجبتها بصوت خافت يكاد لا يسمع، كأنني أقول لها أني
لست بخير، و قد فهمت قصدي ثم أجابت): "الحمد لله، كل شيء مصيره
للزوال."

كانت تسترق إلي بعض النظرات، و ترثي لحالي الكئيب و منظري
الأعبر و ثيابي الرثة، لكنني كنت رغم ذلك أحب نظراتها، لأنها لا تحمل من
الشهامة معنى واحدا، و أحب لمسها و هي تزيل بعض الغبار العالق في جبهتي
كأنني طفل.

كنت أعرف بأن السر إذا خرج من جوف صاحبه لم يعد سرا مهما
أوصيت بالكتمان، لكنني رغم ذلك أحس بالرغبة في الاعتراف لها، فإما أن
أعترف، و إما أن أنفجر، لذلك فضلت الاعتراف، و كنت أدرك أني بهذا
سأحمل إليها خبرا صادما قد يدوم مفعوله طويلا، كنت أحس بأننا في هذه

اللحظة التي أعترف فيها سنكون شخصين آخرين، فقلت لها بعد الكثير من التوصيات: "كل هذا الذي يحصل مجرد تمثيل." (ثم انتظرت أن تنفجر فرحا في صمت و تبسم بلا شفيتين عريضاً).

بدأت عليها علامات الدهشة، و تسمرت في مكانها تحملق في عيني بإمعان كأنها تستنكر هذا الكلام ثم قالت:

- "هل تتكلم بجد؟"
- "نعم..." (أرخت ابتسامة ساخرة كأنها تستهزئ من كلامي ثم أضافت)
- "آه، جميل ما تقول، ولكن ربما كان عليك أن تمثل البريء، أو تمثل العاقل، أو تمثل الجميل، لماذا تمثل الأحمق؟" (كنت أنتظر بفارغ الصبر أن تصدقني بسرعة و تفرح من أجلي و تقوم فتعانقني بعنف، لكنها لم تفعل بعد، حاولت أن أقنعها أكثر، لكنني لم أستطع، اختنقت أنفاسي و أنا أحاول).
- "البراءة و التعقل و الجمال، هم لا تملك أن تخرجني من السجن أو ترميني في أي مكان آخر، و ربما تملك فقط أن تجلب لي الشاء من الآخرين".
- "أنت تريد أن تدري أنك تهمة المرض النفسي فقط، و لذلك تقول هذا، سيعرفون هذا الأمر أو يسمعون هذا الكلام فيعيدونك إلى السجن بحجة أنك تعافيت، و لذلك، ارض بقضاء الله، و ابق هنا في المستشفى حتى تكون بخير، و عندما يحصل هذا، فاعلم أنهم سيعرفونه، و سيعيدونك إلى السجن، هناك

أطباء يراقبونك، ويفحصونك، وهم من سيحددون هل شفيت أم لا، واعلم أن كل هؤلاء الموجودين معك في هذا المكان، يقولون نفس الكلام لأهلهم، وربما أكثر، فنفسنا دائما تهفو إلى عكس ما تكون عليه."

لم أكن أتوقع هذا الجواب، فهو أسوأ احتمال كان بإمكانني أن أفكر فيه، ولذلك أنا لم أفكر فيه، فهي الآن تعتبرني مريضا، ومهما قلت لها، ومهما اعترفت، فإنها ستظن بأن الجنون هو الذي يملئ علي ذلك.

إني الآن مجنون بالطابع، ولن أتخلص من هذه التهمة بمثل السهولة التي رميت نفسي فيها، فالعقل كنز، ومهما حصل، يستمع الآخرون إلى خطابه فيصدقونك، لكن الجنون بهذا المعنى، سجن، فالمجنون مجنون وإن ادعى العقل، وإن تعقل، ولن تعطى لكلامه قيمة أو أهمية مهما حصل، إن وجودك لا يمكن أن يتحقق دون أن يصدقك الآخرون، فكل العقول الأخرى بالنسبة لك أوطان تأوي إليها عندما تحدثهم فيفهمونك، وعندما تنقل إليهم أحاسيسك فيقبلونها.

- "كنت أظن بأنني قد ضحكت على الجميع، وأني لعبت دور المجنون لكي أخرج من السجن إلى مستشفى الأمراض النفسية، لأنني كنت أرى بأن أي مكان هو أرحم من الحكم بالمؤبد، لكنني وقعت في مصيبة أكبر، وهو ألا يصدقني أحد،

رغم أنني لا أريد أن يصدقني أحد غيرك، لأن الاعتراف للآخرين خطيئة." (أجبتها وهي تحدجني بنظرات رثاء و تارة بعطف).

أدركت حينها أن السجن مهما كان قاسيا، يضمن لك أن تفر منه في خيالك أو من خلال حديثك مع الآخرين، لكن الجنون سجن آخر، تتغير معه حتى نظرة الناس إليك، ويصعب عليك التواصل معهم، أنا إذن مجنون، لا مفر من هذا، فقد اخترت هذا القلب بنفسني.

كانت زوجتي تنظر إلي بعطف، و كنت لا أدرك قبل هذه اللحظة بأنني أنا نفسي، بطريقتي في الهروب من العقل للظهور بمظهر المجنون، كنت ألوي حبل المشنقة حول عنقي، و أضع نفسي في الموقع الذي يليق بي، حينها سألت نفسي، كيف لي ألا أسألها عن أمي و عن بناتي و عن الكثير ممن أعرفهم؟ كيف لي ألا أتعامل كإنسان عاقل على الأقل خلال حديثي معها؟ ما الذي دفعني إلى هذا الفعل؟

هل أنا مجنون حقا؟

ماذا أفعل الآن لكي أثبت لها بأني غير مجنون؟

و بدل أن أخبرها بأنني كنت فقط أمثل عليهم، كان علي أن أثبتها لها

بتصرفاتي، و ربما هي نفسها ستبادرني بالملاحظة: "ها أنت عاقل أيها الرجل."

حاولت أن أتناول الأمر، فسألته عن بناتي، قالت بأن "البوشتاوية"
تشتغل في شركة للورود بأجر زهيد، كان هذا فقط جوابها، وانتظرت التهمة
لكنها لم تأت، فهي تحكي الزبور لأحمق.

أحسست بأن عقلي قد توقف عن التفكير، وذهبت و تركتني لا كما
وجدتني أوقن بتعقلي، تركتني أتساءل قافلا إلى فراشي: هل أنا حقا غير مجنون؟

خطيب المجانين.

عندما كنت في السجن، ظننت أن كل السجناء مجانين، و عندما جئت إلى المستشفى، أحسست بأن كل المجانين عقلاء، كأننا نتوجس خيفة مما من شأنه أن يفضحنا، أو كأننا نبحث في غيرنا عما ليس فينا، أو عما لا نحبه فيهم، لأنني هنا، لا أتمنى أن يكون هؤلاء المرضى إلا مجانين، و العقلاء منهم يشكلون خطرا علي، كما كان المجانين في السجن يشكلون خطرا علي، فالإنسان تتغير قيمته بتغييره للمكان، على حسب دوره فيه.

هادئون، لكنهم كالأموات، لا يفكرون، و لا يمكنك أن تقرر الاقتراب من أحدهم، لأنه سيتقرب منك عندما يرى فيك الجنون علامة، وأرى من بينهم من يتحدث بتعقل و يتصرف بتعقل لحد أنه يبدو مخيفا، لا أدري لماذا شبهته في خيالي بنفسي عندما كنت صغيرا أذهب مع أمي إلى الحمام، و كنت ذات وقت قد ملكت حاسة الإدراك و التمييز أستمتع باستراق النظر إلى عورات النساء.

مهما كان الضجيج يملأ المكان، إلا أنه ليس ضجيجا منظما، معظمهم يصرخ من أجل غرض غير موجود، أو يخاطب اللاشيء، أو حتى يستوي جالسا على الكرسي و يقوم بتقليد خطباء البرلمان، كان رجلا معتدلا أبيض بلحية سوداء يغتالها الشيب من كل الجنبات، يحمل في يده قنينة بلاستيك

ويستعملها كمكبر الصوت، كأنه يخطب في البرلمان، و يستعمل الإشارات بإتقان، و يتحكم في صوته خفضا و رفعا، و ينطق بكلمات مستقاة من معجم السياسة، فقط لكي يطعم بها خطابه و يكسبه بعض المصداقية و يجلب إليه الأنظار، كان يوجه الخطاب إلى لا أحد، و لا أحد كان يستمع إليه، لكنه لا يكل و لا يمل، سكرر الخطاب مرات، لأنه يحفظه بأخطائه، و لا ينتبه إليها، ولأنها هكذا، تزين الخطاب، فإن أصلحها سيفسد المشهد الجميل، كنت أميز من كلامه جملة يكررها في كل مرة قائلا:

"سيدي مدير المستشفى، يا أكبر المجانين..."

السادة الحراس غير المحترمين...

الأطباء الذين يستعينون على حقننا، بالمرضين الملاعين...

لعنكم الله جميعا إلى يوم الدين...

أريد أن أعرف أمرا واحدا فقط، لماذا أنا هنا؟ ولماذا أنتم هنا؟

ألاجل أن نحارب الجنون؟ فكلنا حمقى، و نحن على العهد باقون...

ولماذا تضعوننا داخل الأسوار و يبقى الآخرون؟

هل ترون بأننا لا نعرف الحياة إلا بداخل السجون؟

إن مطالبنا في البرلمان، هي أن تغيروا السجن، أو تحملونا إلى سجن في غير هذا المكان، ثم اسجنونا بحنان، و اضربونا بحنان، و احقنونا بحنان، فنحن معشر المجانين، نحس بأننا تحت رحمة عصيكم المقدسة، نعيش في أمان.

و أخيرا، سيدي مدير المستشفى، يا أكبر المجانين...

السادة الحراس غير المحترمين...

الأطباء الذين يستعينون على حقننا، بالمرضين الملاعين...

لعنكم الله جميعا إلى يوم الدين..."

ثم عندما انتهى من خطابه، بدأ بالتصفيق و التصفير كأنه جيش من المشجعين، و يحث المجانين بجنبه أن يفعلوا مثله، و منهم من فعل دون تفكير، كان أحدهم يستوي جالسا على الكرسي المقابل، ينظر إليه ضاحكا و مصفقا، و كان هو ينحني للجمهور إجلالا و يأمرهم بالصمت حتى مع عدم وجودهم. كان خطيبا فصيحاً، و أغلب الظن أنه رجل مثقف و ذو علم عظيم، كان يحفظ الإشهارات التلفزيونية و يغنيها، و يقلد أصوات المذيعين و المعلقين، كان لا يفتر عن القيام بهذا حتى و هو يخاطبك في أمر جاد، آه، لقد نسيت، فأنا مجنون، و ليس هناك أمر جاد في هذا المكان.

كان يقول لك مثلا للتعبير عن فوضى في داخل المستشفى: (حذار من

الانزلاق في الطريق، السماء غائمة، و الأمطار غزيرة، هناك برق و رعد).

بدأت أتعجب كيف يدخل رجل مثل هذا إلى مستشفى المجانين، بينما يتسكع الحمقى خارجه، و منهم من يتبوأ مراكز القرار، آه، لقد نسيت أني مجرد مجنون، فكيف أفكر في هذه الأشياء المحرمة، علي أن أبقى بريئا و لا أفسد دخولي إلى الجنة بالتفكير بسوء النية في المسؤولين المساكين.

و عندما تقترب منه و تكلمه، فأنت تجد نفسك أمام رجل متعلم ضابط للغة ممسك بناصيتها، و لا يحدثك إلا بالكلام الفصيح كأنه في القسم، و كأن كل الموجودين هنا تلامذته، و ما أجمل تلك العصا التي يلوح بها في يمينه لكل من لا يفهم الدروس، و أجمل منها أنه لا ينطق حكمة حتى يعطيها عنوانا مناسباً، كأنه يدفعك دفعا إلى الإنصات إليه، ثم عندما تصيبه نوبة الكلام، تجده يصف الأحوال مستهزئا، بصوت رنان، و في كل مرة يوجه الكلام لنزير أو ممرض أو حارس أو حتى طبيب: "النشرة الأخلاقية: هنا السماء غائمة، و سحب الاكتئاب كثيفة، يعم برد السكينة عندما تهطل أمطار الحقن المهدئة، فما أن يزول مفعولها و ترعد السماء و يعم الفيضان، حتى يتدخل رجال الإسعاف، عفوا، حراس الإسعاف، فيجرفون الكل إلى المجاري، إلى المجاري، إلى المجاري." (كان ينطقها و هو يمثلها بيديه بطريقة ساخرة، و يضحك بصوت هستيري مرتفع).

و في كل مرة، ترى المرضى يركضون نحو نزيل خرج عن طوعه، وصار يصرخ بأعلى صوته، أو يسب و يلعن و قد يؤدي الآخريين، فيستسلم لهم، لأنه ألف هذه الحالة، فيحقنونه، فيرتخي، ثم ينام، أما معظم الباقين، و أنا منهم، فإن المهدئات و المسكنات و الحقن، يأكلونها في الطعام، و يشربونها في الماء، فهم طول الوقت هادئون، ساكنون، صامتون، مبتسمون، راضون، ليس لأن السعادة توجد في واقعهم، ولكن لأنها توجد و هما في عقولهم.

يعود المرضى من مهمتهم الناجحة في مشهد مثير للانتباه بالنسبة للعاقليين، أما نحن فإننا مجانين، ثم يجد الخطيب فصلا من الكلام المعبر عن هذه الحالة قائلا بلهجة فقيه في المسجد: "إن الحمد لله أحمده و أشكره، و أستهديه و أستغفره، و أعوذ بالله منكم و من أعمالكم، أما بعد، معشر الكافرين.

أستهترون بالدين، و تأكلون أموال المساكين، و تستولون على حقوق المستضعفين، ثم تريدون الجنة؟

تعيشون على الفتات، و تقبلون بالسيئات، و لا تذكرون الذي فات،

كأنكم في هذه الحياة أموات، ثم تريدون الجنة؟

لا تحسنون الصمت و لا تحسنون الكلام،

لا تحسنون الفوضى و لا تحسنون النظام،

لا ترومون الحلال و لا تتركون الحرام،

لا تعيشون الواقع و لا تعيشون الأوهام،

و تحيون في هذه الدنيا كأنكم ركام،

ثم تريدون الجنة؟

تبا لكم إلى يوم الدين، الجنة لا تفتح الأبواب للقوم الخاسرين..."

ثم ضحك و هو يشير بإبهامه إلى المرضين المارين بزيهم الرسمي.

كانت ساعة الخروج إلى الحديقة قد حانت، فدفعه المريض مرددا:

(قم يا سيدي الفقيه، حان موعد الخروج من جهنم).

كنا في الغالب ننتظر هذه اللحظة، لحظة الخروج إلى الحديقة، و قليلا

ما تجد واحدا منا بلغ به الحمق درجة عدم الانتباه إلى مفعول حفيف الأشجار

على نفسه، أو أقعده الاشتغال بنفسه عن الحياة، كأنه طفل يكتشفها من جديد.

كان الخطيب يمشي بجنبي، فاتبته إلي، كان يريد أن يتكلم معي، لكن

أحدهم مر بيننا فانقطع الاتصال، ثم عاد ليقرب مني، و قال مستتجا كأنه

عاقل: "في هذه الحياة، أحمد الله على أمر واحد، أنني لم أصب بالجنون".

"الحاج الموساوي"

و بينما نحن خارجون إلى الساحة الكبرى أفواجا كأننا نتسابق نحو الكراسي التي تحتل المواقع الرئيسية، لمحت عيناى رجلا يتكى على كتف امرأة هزيلة، كان يمشي ببطء شديد، عرفت بأنه يعاني من مرض، و عندما اقتربت منه، لمحت في وجهه حجم المعاناة و الألم، كانت ملامحه كثيبة، كانت عيناه غائرتان، و لونه يكتسي صفرة الموت، كان يحدثها بصوت خافت كأنه عاقل، و على وجهه ابتسامة بريئة لم أعرف لها سببا، و كل ما فيه ينذر بفصل الدموع، كأنه لا يدرك حجم مأساته.

جلست قبلته أتفكر و أتأمل، و قليلا ما كنت أفعل هذا، لأنني مجنون، و لأنني ارتحت للطريقة التي يعتبرني بها المجتمع هنا، غير مسؤول على نفسي و على غيري و على كل ما يحصل حولي، أنا لا يمكن أن ألام على شيء حصل حتى و إن كنت سببا فيه، فالذي يلام، هو الذي يعتبر نفسه مسؤولا علي و على كل تصرفاتي.

كان المسكين يبدو مريضا، كان يبدو على حافة الموت، لكن الابتسامة لا تفارق شفثيه، ليس لشجاعة فيه، ولكن ربما لجهله بالمصير.

كانت تحدّثه كأنها توصيه أو كأنها تحاول أن ترضيه، و كنت أرى بأنها لا تحتاج إلى جهد كبير، لأنه كان يبدو راضيا بالحياة التي يعيشها هنا، و لا يحتاج إلى وصية.

لكن الأخبار قد تأتيك من تلقاء نفسها تباعا، فإن المرضى القدماء هنا، يعرفون قصص بعضهم، و يبدأون بالسؤال عما و من حولهم فور عودة الوعي المؤقت إليهم، كأنهم يستيقظون من سبات عميق، يسألون عنها و يعرفونها و يحتفظون بها كحكايات، لكن الفرق بينهم و بين العقلاء، هو أنهم لا يضحكون على آلام غيرهم، و لا يتسلون بها، ولكن قد يسردونها لغرض ليس بالسيء، و لا يعرفه إلا المجانين فقط.

لقد علمت بعد ذلك، بأن هذا الرجل، هو "الحاج الموساوي"، و هو رجل غني و ذو مال كثير، و له زوجة و أولاد، كان يعيش حياة مستقرة مع أسرته، حتى وقع في حب امرأة جميلة مقيمة في "فرنسا"، و لأن الحب يزعزع الاستقرار، صار "الموساوي" يسافر شهورا إلى حبيبته، حتى علمت زوجته بالأمر، فحاولت أن تمنعه بشتى الطرق، لكنه كان مصرا على الزواج من المرأة التي استأثرت بكيانه و بدلتة و أعادت إليه الشباب بعدما كان يظن بأنه قد شاخ، هكذا كان يحكي بنفسه للآخرين، لكن زوجته لم تطق هذا الكلام، و لم تطق أمر تبذيره الكثير للمال من أجل امرأة أخرى، و لم تطقه و هو يتركها

ويترك أولاده من أجل حياة جديدة، فما كان منها إلا أن توجهت إلى الفقيه المشعوذ منقذ بعض النساء المستسلمات لنفوسهن. يقال بأن هذا هو السبب في فقدان "الموساوي" لعقله و الله أعلم.

و أما المرأة الهزيلة التي تبدو نتوءات عظامها، فهي الخادمة التي يقال بأنها كانت قد ساعدته على كتمان أمر علاقته بالمرأة الأخرى، فلما أصيب بالجنون و رمته زوجته في المستشفى بحجة التداوي، طردت معه الخادمة التي كانت على علم بأنها رمته رمي الكلاب، و أنها لن تزوره مرة أخرى، و أنها قد تخلصت منه و استأثرت بثروته.

تبعته الخادمة إلى المستشفى، و سألت عن حاله مرات، فعلمت بأن أسرته قد تركته و تخلت عنه نهائياً، فتكفلت بزيارته و بكل مصاريفه، لا طمعا في شيء، فهو رجل لا عقل له، و لا مال له، و لا صحة له، بل إنه رجل على حافة الموت، نذرت نفسها أن تكون له سنداً مهما كانت النتيجة، ما أجل وفاء هذه المرأة و إخلاصها، إذ ليس وراءه مغنم، ما أجل أن تكون إنساناً كاملاً.

الخدائب (الإشارة، فكل كلامه كذب)

كان يقيم بجانب رجل لا تفارق الابتسامة وجهه، لكن الغريب في أحاديثه أنه يحب أن ينسج الأحداث من خياله ويحكيها على أنها حقيقة، ويحلف بالله أنه لا يكذب، بل إنه قد ينادي مجنوناً آخر ليشهد على صحة كلامه حتى إن كنت لا أعترض على حرف مما يقول، ولم يشهد مرة واحد بأنه يكذب، حتى إن كانوا يعرفون ذلك.

ما أجمل أن تكون مجنوناً و كذاباً، و هما شرطان متلازمان، ما زال أحدهما إلا انتفت معه صفة الجمال و بقيت الخصلة السيئة، فالكذب بدون جنون كبيرة تفضي إلى النار، و الجنون بدون كذب يحول الإنسان إلى خشبة متحركة، و الكذاب الحقيقي، لا يسوق إليك الخبر عارياً، ولكنه ينسج القصة و يدمجها في الأحداث المحيطة به زماناً و مكاناً، حتى تصدق، أو ربما لا تصدق.

كان يحكي لي إحدى حكاياته و هو ينتبه حواليه من أجل جلب زبناء جدد ليستمعوا إلى ما يقوله، أما أنا فكنت أصغي بانتباه كأنني عاقل، كأنني أريد أن أستفيد، و كنت أنتبه إليه على الطريقة التي يريد، أن أنصت و لا أسأل، قال:

"كان ابن عمي يبصر الأشياء فوق العادة، كانت عيناه ترى جيدا كأن فيها مجهرًا، لكنه كان يرى كل شيء أمامه أكبر بكثير من حجمه الحقيقي، ويرى كل الناس أضخم منه و أكبر و أعظم، كان يحس بأنه حقير و قصير و ضعيف أمام الآخرين.

هل تصدق بأنه خلال مسيره في الشارع العام، يتفادى الأحجار الصغيرة لأنه يراها في حجم الجبال؟ (فصدقت)

هل تصدق بأنه كان يرى اللقمة أكبر بكثير من فمه، فلا يستطيع أن يلمسها لأن النظرة تغلبه، و لا يستطيع أن يأكلها فيبقى جائعًا؟ (فصدقت)

هل تصدق بأنه كان يرى كل الناس أكبر منه؟ ويرى نفسه نملة و يرى الناس فيلة؟ (فصدقت)

أتعلم بأنه عندما ذهب إلى الطبيب، لم يصف له نظارات للزيادة في النظر؟ ولكن وصف له نظارات للنقص من النظر، حتى يتمكن من رؤية الأشياء على حقيقتها؟

إنك لكي تكون أفضل من الناس، يجب أن تنافسهم بما يملكونه ويستطيعونه، وإلا فإنك ستبدو غريبا عجيبا، و ينقلب الأمر عليك."

كان ينتبه حواليه تارة، و يرفع صوته تارة، كأنه ينطق بعلم الحياة، كان ينتشي بحكاياته العجيبة، حتى بدأ الزبناء المستمعون يهلون عليه، و هو ما كان

يصبو إليه، فما كان منه إلا الاستمرار في افتعاله للكلام و إتيانه بخبر جديد قائلاً:

"هل تعرف القبيلة التي كانت لا تشيد عمرانها فوق الأرض، ولكن كانت تبنيه تحت الأرض؟" (لوحت برأسي نافيا، لأنني أعرف كم من النشوة يحس عندما يعرف بأنك تجهل ما يريد أن يقوله، فأردف بسرعة)

"لقد رأيتها بأمر عيني، كانوا يحفرون أنفاقهم و يبنون عماراتهم ويتفتنون فيها تحت الأرض، و حصل ذات يوم أن التقى بعض بنائهم بالشیطان خلال عملية الحفر، (ثم نظر إلي كأنه ينبئني بما لا أعرفه و أردف) لأن الشيطان يسكن تحت الأرض، و شيدوا بيوتهم قرب بيته، و جاوروه طويلا، كانوا في الأول يرفضون مجالسته و الحديث معه لأن أهلهم فوق الأرض يقولون بأنه يوسوس لهم و يغريهم بالشور، و مع مرور الأيام تعرفوا عليه، وكان لطيفا معهم، و لم يوسوس لهم إلا بحب الخير و التفاهم و العمران و البناء، بل إنه صار يساعدهم في كسر الأحجار القوية و تجاوز العقبات المستعصية، و تعلموا منه الكثير من الخصال الحميدة، كالمصلحة الفردية و حب النفس و الأنانية و تقديس الحياة، وكان يقول لهم: (إننا نحن الشياطين أعطينا أننا نرى و لا نرى، و أننا نرى تحت الثرى، و أن شيخنا يرد صبيا).

أعجبته تلك الخصال و الصفات، فطلبوا منه أن يلقتها لهم، فوعدهم بذلك شريطة أن يكونوا مثله شياطين، فقبلوا. و كان يقول لهم (لا تفكروا في الحب حتى تبنوا المدن حيث يسكن، فالحب لا يأتي من قلب فرد، ولكن يأتي من قلب الجماعة).

فحمدوا الله على نعمه، و هم الآن يصلون لله شكرا، لكنهم يحبون الشيطان، لأنه كان يلي كل رغباتهم، و إن سكان هذه القبيلة إلى اليوم، لديهم معابد لعبادة الله و أخرى للتغني بحب الشيطان".

كنا ننظر إليه و نصدقه، و هو لا يتوقف عن حكاياته العجيبة، كنت لا أستطيع أن أدرك كيف له أن يملك كل هذا الخيال الخلاق، و الحنكة في ربط الأحداث ببعضها و بالشخصيات، و كنت أتساءل هل صحيح أن الإنسان يعيش هذه الحكايات بشكل من الأشكال؟

ثم اجتمع علينا الكثير من الزوار المستمعين، فما كان منه إلا أن يستمر في مسلسل الحكى الممتع، بحيث نظر إلي متسائلا: "هل تعرف القوم الذين توقف عندهم الزمن؟"، لوحى برأسي نافيا، لا يمكنني أن أفسر أو أتساءل، لأنني مجرد مجنون لا يفهم ما لا يقوله الآخر، أفهم فقط ما يقال، ثم أردف قائلا: "هناك قوم في الأدغال، كانوا سابقين إلى الحياة، و سابقين في الزمن، لكن في غفلة منهم، اكتشفوا بأن الزمن قد توقف في بلادهم، كانوا في الأول

فرحين مسرورين، لأنهم لن يمرضوا و لن يموتوا و لن تتغير أحوالهم، و من كان على حال فقد بقي عليه، جسده، عمره، ملامحه، علاقاته، حياته، خصاله و كل شيء فيه، فتبدد الخوف و اختفت معه الكثير من الأحاسيس.

و في كل مرة يسافر أحدهم إلى إحدى البلدان المجاورة لكي يعرف إلى أين وصل الزمان، فيجد بأنها قد مرت عشرات السنين، و أن الكثير من الناس قد ماتوا و آخرون ولدوا، و أن العالم قد عرف حروبا و عرف أحداثا، و ظهرت اكتشافات جديدة، و تطور العمران و تقدمت العلوم و تعددت المظاهر، فلما يحكي ذلك لقومه، يشعرون بالحسرة أنهم لا يملكون مستقبلا ينتظرونه، و ليس لهم حلم يحلمونه، أو خبر جميل ينتظرونه، فعاد إليهم الخوف في حلة جديدة، فهم لا يعرفون عن مصائرهم شيئا، و أما الآخرون، فهم على الأقل سيذهبون إلى المصير الذي يؤمنون به، و بدأوا يتساءلون:

أعيدوا إلينا و لو القليل من الطموح نعيش به...

أعطونا فكرة عن التاريخ، عن الحياة، عن المصير...

لقد كنا مصدر الكشوفات و العلوم، و كنا نصدرها لغيرنا، فكيف يتقدمون علينا و يسبقوننا بعشرات و ربما مئات السنين، بينما نقف نحن في نفس المكان و نفس الزمان مستسلمين راضين، فقط لأننا اتقينا الموت والمرضى؟

إن وقوف عجلة الزمن هو موت كذلك، و ليس بأرحم من موت الجسم و الأعضاء.

و بعثوا أحدهم مرة أخرى لكي يستطلع الأمر، فلما عاد أخبرهم بأن مئات السنين قد انقضت، و أن العالم قد تطور كثيرا، و أن الإنسان كذلك لم يعد هو نفسه هذا القديم مثلنا، لكن الحضارات قد بنيت على الإنسان الذي بعضه احترق و بعه حارب و بعضه أفنى حياته في العلوم أو في البناء و التشييد. لقد أخبرهم بأن الحياة تتطور، لكن بشرط، أن يفنى الإنسان.

لقد أخبرهم بالمدن الجديدة و الحياة الجديدة، فتشكلت حركة الهجرة، لكن الحكام رفضوا الخروج من الوطن، و اعتبروه خيانة للمبادئ، و شددوا المراقبة على الحدود، و قليلا ما كان ينسل الواحد منهم إلى العالم الجديد، فيفر حواله و يتمنوا أن ينالوا مثل مصيره.

ثم تطورت هذه الاحتجاجات على الحكومة، و ظهرت في البلاد حركة احتجاجية، و صارت لها بنود و مطالب و فصول محددة، و وضعوا عريضة تقول: نريد أن نعرف المستقبل ما دمنا محرومين من الوصول إليه.

أليس هناك غد؟

أليس هناك فرح نجتمع عليه فنضحك، أو حزن نلتقي عليه فنبكي؟

نريد أن تقوم الحكومة باتخاذ التدابير اللازمة لإخبارنا بالمستقبل أو لتحريك دواليب الزمن و تتركنا نعاني من ظلمه و ظلماته، فهي مهما حصل، خير من ظلمات الجمود القاتل.

لا نريد أن نعيش في نفس الزمان و نفس المكان و نرى نفس الأحداث.

و لم تستجب الحكومة، و جردت جيشها للوقوف في وجه المتظاهرين، و ظهرت في بلدهم حركة تحررية، اسمها (حركة المستقبل)، كان هدفها أن تحرك دواليب الزمن، لكن الحكومة كانت ترفض، و كانت تبذع آداباً تثبت من خلالها أن ما يعيشونه هو قدر الله، و هو خير من افتعال قدر غير مكتوب، و أن الخير فيما اختاره الله، و ابتذع المستقبليون هم كذلك علوماً و فلسفات يثبتون من خلالها صحة أفكارهم، و شكلوا بعثة استكشافية من بعض العارفين، لكي تهجر عبر المكان و تحاول أن تجد طريقة لتحريك دواليب الزمن، و ذلك بعدما عرفوا بأن الأمم الأخرى قد فاتتهم بمئات السنين.

و تحرك المواطنون، و انضم بعضهم إلى رأي الحكومة، و البعض الآخر إلى المستقبلين، و كثرت الاحتجاجات، و هرب الكثير من المواطنين إلى الخارج احتجاجاً على الوضع، و تأجج الصراع، و ظهرت أفكار جديدة، و تزاخم الناس، و اختلطوا و اختلفوا، و تشاجروا، و هاجموا بعضهم

بالأسلحة، و انتهت المعارك الضارية التي راح ضحيتها الآلاف من القتلى، ففرحوا و استبشروا، لقد مات الناس و قتلوا، و ظهر مصيرهم، إنه الموت، و اكتشفوا أن عجلة الزمن قد تحركت، و الدليل القاطع هو هذه الدماء المهرقة، و كتب فلاسفتهم عن توقف الزمن و أسبابه، إن الزمن لم يتوقف، ولكن نحن من كنا لا نتحرك، و عندما تحركنا، اندفعت عجلة الزمان بطيئة، و قال فلاسفة آخرون، إن الزمن يتوقف عندما نتوقف نحن، و قال آخرون إننا لا يمكن أن ندرك الوقت إلا بالتدافع و الصراع و الحركة.

و من أكبر المغالطات، أن تجد الكثير من الناس مازالوا يعتقدون الأفكار القديمة التي كانت تدافع عن الخمول و الجهل و الركود، لا لممارستها ولكن لمجرد ممارسة فعل الكلام مع المستقبلين.

لكن علي أن أخبركم بأن هؤلاء القوم، يدفعون اليوم ثمن تأخيرهم، فهم الآن عبيد للأقوام التي كانت تتطور بينما هم واقفون، لأنهم كانوا يفكرون فقط في البقاء على قيد الحياة و التخلص من الموت، بينما ضحى الآخرون وتطوروا."

كل حكايات هذا الرجل عجيبة و غريبة مهما كانت بحسب رأينا هراء و كذبا و كلاما لا أساس له من الصحة، لكنني كنت أراه مبدعا، و أراه أفضل مني، لأنني لا أستطيع أن أبلغ من الخيال ما يبلغه، و أنتج صورا تتعدى الإبداع،

و ما أجمل كذبه التي كان قد حكاها لي ذات يوم بثقة و إصرار و ثبات، حين قال لي متسائلا كعادته:

"أتعرف أني رأيت بأم عيني بقرة تدخل إلى المسجد و تصلي؟"
(لوحث برأسي نافيا، ثم أردف)

"نعم، لقد رأيته و هي تتوضأ ثم تدخل إلى المسجد لكي تصلي مع الناس، لم أستسغ الأمر في البداية، و انطلقت دمدما و همهمات من هنا و هناك، و كثر الحديث و اللغو، و علت بعض الأصوات بالاستنكار، أنا نفسي استنكرت هذا، لكننا كنا لا نستطيع أن نطردها لأنها كانت تتقن فروض الصلاة، و هل من الشرط أن تكون إنسانا فنقبلك حتى إن كنت لا تتقن الصلاة؟"

فتدخل رجل يبدو أنه من أكثر الذين يرتادون المسجد فدافع عنها، وقال في الأخير: (و ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها)، و استدل على ذلك بأن كل المخلوقات تسبح بحمد الله و تسجد له، لكننا فقط لا نفقه تسبيحهم.

و قال آخر بأن هذا الأمر ليس غريبا، نحن فقط لا نعرف ذلك، وأقسم بأنه رأى بأم عينيه الأبقار تصلي مرات، و لا فرق بين صلاتها و صلاتنا. "(سكت لحظة ليستجمع الكلام ثم قال مستنجا)

"الكثير من المناطق اليوم، تصلي فيها الأبقار إلى جنب الداخلين إلى المسجد، بل لقد تأثروا بها وبلغتها، و صار بعضهم يعتبر الزواك نداء، و يعتبر الخوار تهديدا، و قد تعجب إن قلت لك بأن هذه البقرة صارت صلي بالناس في الأيام الأخيرة".

ثم نظر حواليه كأنه يبحث عن شيء ضائع، حتى ظننت أنه انتهى من هذا الكلام، لكنه رفع رأسه بثقل و قل لي:

"هل تعرف بأني كنت أشتغل طبيا نفسيا؟"

لوحث برأسي نافيا، لم أنطق حرفا، لأنني أعرف بأن نبرة صوتي أرق من نبرته الفخمة، و بذلك سيظهر الفرق بيننا و يتبهون إلى قلتي مقارنة معه، ثم استطرذ قائلا، و قد أحسست بأنه أعفاني من الجواب:

"جاءني ذات يوم رجل مذعورا وقال لي: إني أحس بأني خروف، أفعل مثله في كل شيء، إني أتمنى حياة الخرفان، و لا أرى نفسي إلا خروفا، حتى إن كان الآخرون يستهزؤون مني، لأنني لا أرى لي حقيقة غير هذا، أريدك أن تدلني على طريقة لعيش حياة الخرفان بسلام، و لا تقل كما الآخرون، بأنك ستدلني على طريقة تخلصني مما أنا فيه، لا أريد أن أخلص من السعادة التي تعمري و أنا خروف، لقد حاولوا قبلك لكنهم لم يفلحوا، و أعطيتهم فرصا كثيرة، فهل لك أن تنال هذا الشرف و تجزى عليه؟"

قلت له: نعم، أنا سأفتح لك باب الخرفان على مصراعيه، لكن من سيؤدي لي الثمن بعد نجاح العملية؟

أجابني: أنا من سيؤديها لك، لأنني سأكون خروفا من نوع خاص، خروفا إنسانيا.

ثم قلت له: منذ الآن أنت خروف، و سأعاملك معاملة الإنسان للخروف، فاذهب إذن و لا تفكر فالخروف لا يفكر، و لا تعبر فالخروف لا يعبر.

قبل شروطي، و صار يرتادني مرة في كل أسبوع، و كان يقول لي بأنه وجد طريقتي مقنعة في التعامل مع حالته، حتى إني صرت أسقيه الماء في السطل و أعطيه التبن و أشده من القرن الموجود في رأسه، كان مرتاحا لما كنت أفعله تجاهه، و ذات يوم قلت له:

- أيها الخروف.
- نعم أيها الإنسان.
- أتعلم أي أحبك؟ و أي ألفتك؟
- و أنا كذلك.
- إن عيد الأضحى قد وصل أوانه، و إن الله تعالى يدعونا إلى بذل أجمل ما عندنا و أحب الأشياء إلى قلوبنا من اجله، و بما أنك الأحب إلي من بين خرفان

الذنيا،فإني فكرت طويلا، بين أن أبيعك أو أذبحك، فهلا ساعدتني في هذه المشكلة؟

امتقع وجهه فجأة و قفز من مكانه صارخا:

ماذا؟ تذبحني؟ هل أنت أحمق؟

فأجبتة: ولكن الخروف لا يفكر في هذا، فكر كخروف و ليس كإنسان.

استمر ثائرا يصرخ: هل أنت جاد في قولك؟ هل أنت أحمق؟ جئتك لكي تعالجني فأردت أن تذبحني؟

فأجبتة: إنك تقول بأنك لست مريضا، و ماذا تريدني أن أفعل بخروف؟ أجبني بربك؟ هل سأناقشه؟ هل سأعاقبه؟ هل سأتزوج به؟ الخروف لا يصلح إلا للبيع أو للذبح.

فقفز من مكانه، و عاد إنسانا، ثم نسي أمر خرفانيته و هو يتكلم على طريقة إنسان نذل: "يا لك من جبان، تذبحني و تترك الخرفان."

و عندما رأيت المكر في كلامه و في عينيه، عرفت بأنه عاد إنسانا حقيقيا، إني كنت أعرف أن كل واحد منا يسكنه خروف، فإذا أردت أن يقفز الإنسان بداخله، فهده الموت".

كانت إحدى الممرضات تجالسه كثيرا، كان يروق لها هذا الكلام وهذا الخيال، بل إنها كانت في الكثير من المرات تحاول أن تستفزه ببعض أسئلتها لكي يبدأ بالكلام، و ذات مرة ضحكت كثيرا لإحدى حكاياته حتى بكت عيناها، فنظر إلى دموعها ثم قال لها:

"إنك غبية، لأنك لا تعرفين الكثير من الأشياء فيك، و في نفسك و أحاسيسك، أريد أن أسألك: هل سبق لك أن حققت النوم يوما؟"

أجابت بأنها تنام في كل يوم، فقاطعتها:

"أنا لم أسألك هل تنامين؟ ولكن هل حققت النوم؟ لأنك لا تحققينه أبدا، و لا يحققه إلا الطفل و الأحمق و المؤمن."

فنظر إليها و هي تمسح دموعها مبتسمة ثم سألها:

"كيف كان سيعيش الإنسان بغير الدموع؟"

إنك تفرح فتبكي فرحا فترتاح، و تحزن فتبكي حزنا فترتاح، و لولا الدموع ما وجدت إلى الراحة سبيلا، و رغم ذلك فأنت تكرهها و تلعنها، نعم، مرة أخرى نكتشف أننا نكره أحد أجمل أسلحتنا لمحاربة زحام المشاعر المتضاربة.

هل تعرفين بأن الدموع تحمل كل الشفرات الموجودة في الجسم؟ من حزن و فرح و غيرهما؟ و لذلك عمل بعض العلماء على اختراع آلة قادرة على

فك كل تلك الشفرات عن طريق تحليل الدمعة، و عندما بدأوا بتجريب تلك الآلة، ذهبوا إلى جنازة رجل، فقاموا بإجراء التحليل لدموع زوجته، فاكتشفوا بأنها ليست دموع الفراق."

نظرت إليه الممرضة و تساءلت: "دموع ماذا إذن؟" فأجابها:
 "لقد وجدوا بأنها دموع فرح، و عندما قاموا بالبحث، اكتشفوا بأن الرجل كان يعتدي على زوجته، و أنها تمنت موته مرات."
 فانفجرت الممرضة ضاحكة من جديد فقال لها:
 "و لو كانت الآلة بحوزتي الآن لعرفت هل هذه دموع استمتاع أم دموع سخرية."

فضحكت أكثر...

كنت أتعجب كثيرا، عندما أرى ذلك الرجل المريض "الموساوي" وهو ينصت بانتباه إلى هذه الحكايات الغريبة، فربما يوما ما يحكي عنه، عن قصته التي يندى لها الجبين، عن الرجل الذي كان يظن بأنه يملك الدنيا بماله، فلما فقد عقله، سقط كل شيء، و سقط هو من كل شيء، ولم تتمسك به إلا هذه المرأة الهزيلة التي لا تملك أن تساعد إلا بإدراكها و تعقلها، الخادمة التي كانت تشتغل في بيته، كانت تعرفه جيدا، و تعرف خصاله، و تعرف أسرارها، و كانت هي الوحيدة التي سهرت على كل أموره، بحيث تزوره بانتظام، و تفعل من

أجله الكثير، حتى أن شبه العاقلين هنا كانوا يظنون بأنها زوجته، لكن الأخبار الجميلة تأتي تباعا، فقد تسربت ربما من الحراس و الإداريين إلى الزوار والمرضى، ولأن هذه الحكاية تحمل في طياتها إمتاعا، كتب لها أن تكون حديثا ذا شجون، وحكاية يحق لها أن تروى، ليس من أجل مصير "المساوي"، ولكن ربما من أجل توضحية الخادمة التي لا ترى عينها في الحياة إلا هذا الرجل المريض، رغم ضعفها و قلة ذات يدها، و كم كنا نسترق النظر إليها و هي تسنده بذراعها، و تجعل جسمها مخدة له، ربما لأن كل واحد منا، كان يتمنى مثلها في حياته.

أتدري؟

ستكون رجلا سعيدا إذا سخر لك الله امرأة وفيه لا ترى إلا أنت في هذه الحياة، و تظل تعشقك حتى يموت كل الرجال.

أتدري؟

ستكون أحسن رجل في الدنيا عندما يحسدك الآخرون على امرأة جميلة، و ستكون أفضل بكثير، بكثير، عندما يحسدونك على امرأة هزيلة، امرأة تجلس تحت رأسك على السرير الذي تنام عليه و أنت عليل، و لسان حالها يردد أغنية طالما لهت بها و هي راجعة في كل صباح إليك:

"ياك أجرحي، جريت و جاريت

حتى شيء ما عزيتو فيك

واسيت، وعالجت، وداويت

وترجيت الله، الله يشافيك..."

كنت أتمنى أن أستزيد من حكايا هذا الحكيم الذي ينعتونه هنا
بالكذاب، لكنني لا أبدي رغبتني في ذلك، و لا أبدي اهتمامي بها و إدراكي
لجمالها، لأنني مجنون، و المجنون لا يدرك الجمال في الحياة، و إنني هنا، قد لا
يضحكني شيء، و قد يضحكني لاشيء.

"أبو نواس".

ثم جاء الحراس ليخرجونا إلى الساحة كالعادة، علينا أن نسرع لأن العاملات تغتصن الفرصة من أجل تنظيف المكان من الأوساخ، دخل الحارس بيننا كأننا لم نكن نتحدث، ثم قذف بي نحو الباب، وليس علي أن أجيب لأنني مجنون، لا يكثر للإهانة، ولا يكثر ولو كان في أعلى مكانة...

هل الجنون هو رجوع إلى الطفولة؟ إلى ما قبل التفكير في الزمن؟
لماذا يعاملني الحراس هكذا؟ لماذا لا يأخذون كلامي على محمل الجد
وإن كان صواباً؟ هل الجنون هو أن تكون مخطئاً دائماً؟

لماذا يعاملونني هنا كمخلوق مرفوع عليه القلم؟ كأقل من طفل
عابث، كأحمق، كحيوان ربا؟ هل فقدت إنسانيتي يوم ادعيت أنني فقدت حاسة
التمييز وسميت مجنوناً؟

خرجنا إلى الحديقة، حيث يثير انتباهي منظر ذلك الشاعر المجنون،
والذي أجده كأكبر عاقل هنا، فمظهره بلحية بيضاء طويلة و شعر متطاير
وملامح غجرية و لباس رث و مشية متثاقلة و وردة حمراء ذابلة ملصقة
بأسفله، تجعله يبدو كأحد الشعراء الحقيقيين، الشعراء القدامى، يلقبونه هنا
ب"أبي نواس"، لكن اللقب، أعلم ذلك، ليس لخمرياته، ولكن لأن الذي
أطلق عليه اللقب في المرة الأولى كان لا يعرف إلا هذا الشاعر العملاق، ولو

اقترب منه أكثر و لاحظ أشعاره و قارن و فكر، لوجده أكثر شبها بـ "جميل بن معمر" أو بـ "ابن العتاهية"، لأن معظم ارتجاله، هو عبارة عن غزل عفيف بحبيبة لا يعرفها أحد، لكن الجميع عرف ملاحظها و أدرك حسننها و دلالها من خلال أوصافه و أشعاره، و صار حقا لها أن تسمى "بثينة".

كان يروي أشعاره عن حبيبة اسمها "ليلي"، لا أحد يعرف هل هو اسمها الحقيقي أم أنه استعاره من أشعار معشوقة "المجنون قيس"، و ربما لإيمانه بأنه قاتل الغرام.

كان يقرأ قصائده كأنه في حفل، بصوته الرخيم و نبرته الجميلة:

"رفقا بي يا ليلي،

رفقا...

أهكذا يهون قلبي عليك،

فتقتليني عشقا،

وترميني أسيرا،

في زمرة الحمقى؟

رفقا بي، رفقا...

كفاني من الهم ما لقيت يا ليلي

و ما ألقى...

كفاني أني في كل ساعة

أموت حبا

وأموت بعدا

وأموت شوقا...

رفقا بي، رفقا...

كان يرتجل الكثير من الأشعار، ويدرّج اسم "ليلي" فيها جميعا، وتارة يبدأ بترديد لحن جميل لأغنية على طريقته، كانت طريقته في الألفاظ تنطوي على الكثير من أسرار الجمال، لكن لا أحد هنا ينتبه لهذا، حتى هو نفسه.

جلست بجانبه، حاولت أن أبقى صامتا لكي يطمئن إلي، لكنني لاحظت بأنه لم ينتبه لما أفعل، تذكرت بأن ما قمت به لا يصلح للمجانين، فالواحد هنا إما أن يقبلك أو لا يقبلك، لا مجال للمقدمات، سألته:

"كيف حالك يا أبا نواس؟"

انتبه إلي ببطء شديد، كأنني غير موجود، ثم دار عني بوجهه وقال:

لم يبق في نفسي ما يعجب الزمنا إن كان من في هذه الثياب أنا

لم يبق في قلبي حب بلوعته أحيى الذي قد مات، أو ململ الوثنا

إياك، لا ثقة، إياك لا تأمن فإن من يأمن، تجرع المحنا

كأنه بطل رمى بعسكره في قعر غاشية، وأحرق السفنا

يا لابسا ثوبا، كأنه كفن لا تنس يوم غد، ستلبس الكفنا

و راجيا دوما بأن لعل له ألا تقل يوما بأن لعل لنا؟

ثم سكت، و رفع رأسه إلى السماء، يتأمل الأشجار و ينظر بتركيز إلى أغصانها المترامية كأنه اكتشف أمرا غريبا، لم أقل شيئا، حاولت ألا أقطع تفكيره، ثم رفعت رأسي أنا الآخر أفعل مثله، فلما انتبه إلى ما أقوم به قال:

"كل المخلوقات في هذه الحياة هي بمثابة قصائد شعرية، هذه الشجرة أجهل قصيدة، فهي تمثل الحياة، و تمثل الموت، و تمثل الإنسان، و تمثل المرأة بجملها و دلالها و قدرتها على منح الظل للرجل، و منح الثمار للإنسان، الشجرة أصل، جذر، و جدع، تعطي كثيرا، و تأخذ قليلا."

كنت لا أذوق الشعر قبله بهذا الشكل، و بعد هذا الجنون، صرت أذوق كل شيء، قام من مكانه و تحرك قليلا، كنت أحس بالرغبة في البكاء مما أنا فيه، لكنني لا أستطيع، فالمجانين لا يبكون و لا يتألمون، لأنهم لا يحسون بالألم النفسي، و لا يشعرون بالألم الجسدي، فإذا أردت أن تستعبد غيرك، فما عليك إلا أن تصيبه بالجنون، حينها لن يتألم، و لن يفكر، و لن يتنفض.

إني أحمد الله، أني بدأت أرتوي من نبع الجنون، و صرت مثلهم هنا، قليلا ما أتعجب، قليلا ما أندesh، قليلا ما أتساءل، و ربما عندما يحدث انفجار بجاني، لا أنتبه إليه إلا متأخرا.

قمت من مكاني و تحركت نحوه، كان يردد: "عبيون نحن..."،
اقتربت منه رويدا، قال أبياتا من الشعر لم أفهمها، ثم سمعت:

"ولأن رسول الموت لم يهتد إلينا،

لازلنا نمضي،

لازلنا نبتسم...

عبيون نحن،

كنا ولا نزال،

نحتفي بهسيس الموتى

ونحيب الرياح الآتية من شرق الغياب،

أسمعونا يا ترى لو صرخنا

أنا مثلهم، موتى فوق التراب؟

أيصدقونا لو قلنا بأن الشمس

لا زالت تختفي خلف السحاب؟

وأن الأرض منذ رحيلهم

عجاج أحلك من ضباب؟

أتذكر؟

حيث كان الليل ثقيل الخطى يدنو؟

حيث كانت القصيدة تتربع،

أسيرة العينين؟

أتذكر؟

كم كان سرب الأمانى يبدو قريباً؟

وكم عبثت بأعيننا خطى الأحلام؟

خذ بيدي،

لنغري الموت بجمال الرحيل...

خذ بيدي،

فما أريد لقصيدي الخضراء أن تأفل،

وبجوفها سلة ذكريات ونبض الحنين،

لا أريد لهذه الصرخة أن تنتهي،

ولا أريد لهذا الفجر أن تتسلل إليه

خيوط الدمع الحزين...

عشيون نحن..."

كان الصمت الذي تلا هذه الكلمات كمثل الصمت الذي يعقب

صوت الرعد، يتسلقه الوجل ويلبسه الخوف و ينتهي على حافة الاكتئاب.

أعرف أن لدى الشاعر قصيدة جميلة عن "ليلي و الشجرة"، و كل الموجودين في هذا المكان يعرفونها، و منهم من يحفظ بعض أبياتها، لكن أبا نواس، هو وحده يقرؤها بطريقة تجعلك تندمج معها، و تعيش أبياتها، و من قال؟ لعله استلهمها من قصة هذا الرجل المريض "الموساوي" مع الخادمة المخلصة، فإن "ليلي" عنوان للحب الذي قد تفقد معه نفسك، الحب الذي تطعمه أنت و تسقيه أنت، و لا يموت مع أول امتحان تخوضه أنت، و الشجرة هي المرأة و الحبيبة التي تظلك دون أن تطلب منك المقابل، و دون أن تنتظره في سرها، و ربما لا أحد هنا يدرك من هي ليلي و من هي الشجرة، ولكن الكل يجمع على أن الأمر يتعلق بقصة حب موجعة بين قلب من لحم و قلب من ذكريات.

"بعد اليوم،

ما عاد يوجعني الحنين،

ما عاد يجذبني الشباب،

كل الذين أعرفهم ماتوا،

أوهمت قلبي بأنهم رحلوا خلف الضباب،

تعال خذني إليك،

فأنا هنا ركام من وجع الغياب،

تعال خذني إليك،

واسقني ما تيسر من عذاب،

تعال فالذكريات نسلي،

ولغيرها لا أحسن الانتساب...

وقصة الإنسان في هذه الحياة مختصرة،

تمثلها في خريف العمر، ليلي والشجرة..."

كانت تلك المرأة الهزيلة، و التي يزداد هزالها في كل يوم، كأنها تقاوم الألم بهدايا الجسد، تلازم "الموساوي" كظله، خصوصا في هذه الأيام الأخيرة، بحيث يبدو بأن المرض قد نال منه و انتصر عليه، و صار يبدو كهيكل من عظام، ملازم للفراش ينتظر يوم الرحيل.

هذا ألاحظه أنا فقط، لأنني كنت أتخلص مرات من الجنون الموجود في نفسي، لكنني كنت أراه يرخي ابتسامته البريئة كعادته، كان يبدو كطفل غير آبه، و كان هذا هو أعظم انتصار على الموت في نظري.

و لم تمض إلا بعض أيام، حتى رأينا الممرضين يلفونه في ثوب أبيض ناصع، و يحملونه إلى غرفة الأموات، ليمضي سريعا، غير آبه بمن حوله، لم يطلب عفوا و لم ينل أجرا و لم ييكه نزيل هنا، لأنهم مثله، أموات، لكنهم يتنفسون.

أما الخادمة الهزيلة، فقد صارت تبدو من بعيد كشبح، صارت تبدو من دون استناده المعتاد عليها، غريبة، حزينة و كئيبة، وبعد موته، اختفت سريعا من هذا المكان، فما عاد يربطها به سبب أكثر حزنا و أشد وجعا، فالوجع عميق و مثمر، و لحظاته تحسب بالثواني، أما الفرح، فسطحي و عقيم، ولحظاته تمضي سريعا.

الجزء الرابع

"المصير"

الوطء.

في هذه اللحظة بالذات، أريدك أن تكون أنا، أريدك أن تفهم علاقة الإنسان بالزمن بالشكل الذي فهمته أنا، أريدك أن تفكر بعقلي و تنظر إلى الحياة بعيني، حتى إن كنت أدرك بأننا لن نتوصل إلى نفس النتيجة، لأن الأعين و إن تشابهت، و إن الأفكار و إن تطابقت، فإن الزوايا التي بداخلنا تختلف اختلافاً، أتحدث عن الزوايا التي نحددها بأنفسنا و ننظر من خلالها إلى الحياة.

لكن إذا أحسست في نفسك رغبة في ذلك، فتعال معي نتخيل أننا نسافر في حافلة تسير بسرعة محددة، فنجلس، و نتوقف عن الحركة، ولكن الحافلة تسير، و ذلك هو الزمن، لا يتوقف عندما نتوقف نحن، و لا يزيد في سرعته، و لا ينقص منها، إن هي إلا أحاسيس تغتالنا طبقاً لظروف معينة.

عندما تعدل أنت عن الحركة، أو تعدل عن التفكير، فإن الزمن لا يفكر فيك، ولكنه رغم ذلك يسير، و يصير مصيرك اثنين، أحدهما يتحدد من خلال حركتك في الحافلة، و الآخر يتحدد من خلال حركة الحافلة في الطريق. إنني أحس بأن هذا الذي قلته الآن، كلام خارج عن نطاق الحكي، لكنني لن أحذفه، فربما يجعلك تعرف أنت كذلك ما أفكر فيه الآن، و ربما فقدت نفسي عندما انسلخت من شخصياتي، و ذهبت إلى أبعد نقطة عني لمعالجة الموضوع القريب.

أتذكر أنني أغرقت في التفكير أياماً، و غرقت في الكتابة أياماً، و في كل مرة تبعث إلي حبيتي رسالة في الهاتف تخبرني بأن الحب اهتمام، و أن الحب احتضان، أن أتذكرك و أنت غائب عني، و كلما ابتعدت عن عيني اقتربت من قلبي، لا أن تأخذك مني شخصيات نسجتها في خيالك، و دسست في بعض نسائها خصالاً أجمل مني فأحببتها و تركتني، و اعلم أنك يوماً ما ستفقد من حلمك، و تنتهي من نسج أحداثك، ثم تجد نفسك وحيداً فتتذكرني، و ترغب في الرجوع إلي، فتكتشف بأنك قد فقدتني، و أنك قد ابتعدت عني كثيراً، وابتعدت عنك أكثر.

قالت كلامها هذا منذ يومين، لكنني نسيته، و لم أعره اهتماماً، كنت حينها أفكر في مصائر شخصياتي بعد سنين من العمر، كنت سأكلمها بعد حين، لكنني نسيته، نعم نسيته، و الآن تذكرت، و سأبعث إليها رسالة حب واعتذار، و أصلحها، فإني بعد يومين من الغياب، سأثبت لها بأني أنا الذي تذكرتها هذه المرة، فحملت هاتفي متسرعاً بعد بضع أيام، و فتحت قفل الشاشة، كانت أصابعي ترتعش، و قبل أن أبدأ بالكتابة، وصلتني رسالتها كأنها كانت تنظر إلي:

"ما كنت أعرف بأن الحب عندك هو ما رأيت منك، الوداع..."

نظرت إلى هذه الرسالة، قرأتها مرات، وكرهتها، كرهتها كثيرا، ليس لأنها تحمل بين طياتها غربة الفراق، ولكن لأنها تحمل بين طياتها معنى عميقا للزمن، لأنها كانت أسرع مني فقط بثواني، ليتني أسرع ثوان قليلة، كانت هذه الرسالة حينها ستبدو مجرد عبث، مجرد كلام بلا قيمة.

و الآن، من يثبت لحبيبي بأني كنت سأكتب لها في اللحظة التي كتبت إلي؟ من يثبت لها بأنها تسرعت بثواني؟ أم تراني أنا الذي كنت بطيئا، بطيئا جدا، وأنها انتظرتني كثيرا، لكنني تأخرت.

لهذا قلت لك، بأن كل واحد منا ينظر إلى الفكرة نفسها من زاوية مختلفة عن الآخر، وأن المصير كما قلت لك سابقا، لا يتعلق بسرعة الحافلة في الطريق فقط، ولكن بسرعتك أنت كذلك داخل الحافلة.

الرسو على المحيطان.

مرت الأيام سريعا، أتذكرها كأنها لحظة فقط، أستجمعها في خيالي و أنتقي الذكريات الطافحة، نعم عرفت لماذا يعيش الواحد منا أن يشاهد تلك الرسوم المتحركة، عرفت الآن فقط، أحسست شيئا عندما لمحت عيني صورة لسلسلة "توم و جيري" على شاشة موجودة في قاعة الانتظار، لقد شاهدتها منذ عشرين عاما و لازالت لم تتغير ملامح شخصياتها الحيوانية، إنها هي نفسها، لا تكبر، لا تتقدم في العمر، لا تمرض و لا تموت، إنها تصمد أمام الزمن و تغلبه بينما تتغير نحن.

كان القط "توم" كعاداته يركض خلف الفأر "جيري"، لكنه لم يتمكن من افتراسه و لو لمرة واحدة، بل إنها قد يتحدان في الكثير من الحالات ضد قط دخيل أو فأر عدو أو كلب غريب، فما أن يقضيان عليه و يتخلصان منه حتى يعودان أعداء كما في السابق.

وبعد سنين، انتبهت لحالي، و بعد عناء، بدأت أفكر، لكنني وردت من حوض الجنون، لأني لم أعد قادرا على معايشة العقلاء، إنهم لا ينسون، إنهم ينتبهون إلى أتفه الأشياء، إنهم يفكرون بما في أيدي غيرهم، لكنني لم أعد مثلهم. إنني الآن لا أفزع لانفجار قريب. لا يعجبني كلام المجنون الكذاب.

لا أستمتع بالقول الجميل أو الغناء، و إن كتب أن رأيتني أرقص،
فاعلم أن الأمر يتعلق بضربة جنون فقط.

لا أنتبه للوافد الجديد.

لا أريد أن أفهم شيئاً كنت لا أفهمه من قبل.

لا أفكر في المستقبل.

لا أنظر خلفي و لا أنتبه للقادم من بعيد.

لا أحد هنا يصدق كلامي أو يأخذه على محمل الجد، حتى إن جلسنا
كعاقلين و تحدثنا في شتى المواضيع كعاقلين.

لم أكن أعير اهتماماً للزمن قبل دخولي إلى السجن، كنت أعيش بالأيام
و أفكر بالأسابيع و أحصد بالأعوام، حتى وجدتني أحسب الوقت المتبقي
بالساعات، فقد لبثت في السجن عامين و خمسة أشهر و اثنين و عشرين يوماً،
و أمضيت الباقي في مستشفى الأمراض العصبية و النفسية.

بعد خمسة عشر عاماً و ستة أشهر و ثلاثة أيام، تم نقلي من مستشفى
الأمراض العصبية و النفسية إلى السجن استعداداً لإطلاق سراحى في الشهر
المقبل، نعم، كنت أحسبها هكذا، بالساعات، لأننا في السجن، لا نجد شيئاً
نفعله، فتتسلى بحساب العمر الذي قضيناه هنا و الذي تبقى لنا، و نفرح للأيام
التي انقضت حتى دون أن نعرف أسماءها، كأنها تساعدنا على التخلص مما

نحن فيه، أسوار خارجنا و أخرى بداخلنا، و زمن يتباطأ كأنه ينتقم منا، بينما كان سريعا قبل أن نأتي إلى هذا المكان.

مرات كثيرة، كنت أتمنى أن أغيب عن الوعي أو أنام طويلا، فلا أفيق إلا على أعتاب الرحيل، حتى إن كانت الساعات الأخيرة قبل الوداع، تتباطأ أكثر، أكثر، أكثر، و حتى إن كانت الخطوات التي سوف ترميني خارج الأسوار، في الغالب تتعثر.

بعد خمسة عشر عاما و ستة أشهر و ثلاثة أيام، خرجت من المستشفى إلى السجن، كأني خرجت من نفسي فاغتربت، و قد كنت أحس بأني بداخله غريب.

كانت زوجتي تنتظرني في البوابة الكبرى و ليس برفقتها أحد، أنا كذلك لم أحمل معي شيئا إلى هذا المكان، فليست لي هنا أغراض إلا ملابسي، و قليل من الأشياء التي كنت ألفتها داخل الأسوار، و كانت تساعدني على مواجهة الحياة القاسية ببعض الشجاعة:

"(راديو ترانزيستور) جميل، أهده لي (الحاج) قبل موته، و قد حكى لي بأنه اشتراه خلال إحدى رحلاته إلى باريس، لونه أسود تتخلله بقع حمراء، وفيه الكثير من الدبابيس التي قد تحول لي البحث عن قنوات إذاعية خارج تراب الوطن، من بينها إذاعة كانت تنهمك في سب النظام المغربي و حكامه في معظم

الأوقات، و قنوات تتحدث الإسبانية، كنت أذوق الاستماع إليها حتى دون أن أفهم ما تقول، بل لقد حفظت بسببها الكثير من المصطلحات الإسبانية الأكثر استعمالاً خلال الكلام، وبدأت أركب جملاً قادرة على تبليغ رسالة.

"وسادة" مربعة أنيقة و مزوقة مصنوعة من ثوب قوي اسمه "الخرقة"، كانت قد نسجتها لي أُمي هدية للزواج، قالت بأنها قد اشتغلت عليها في "المنجج (المنسج)" الأصيل، و أنها منسوجة بما يسمى قديماً طريقة (الحساب)، في جنباتها خطوط حمراء على شكل معمار، و في الوسط ورود خضراء كأنها نبتة (بلعمان) الغابوية، بسيقانها الطويلة و عروشها الصغيرة، كانت قد جلبتها لي زوجتي عند دخولي إلى السجن.

ساعة (دوغما) المائية القديمة التي أهداها لي سائح سويسري أشقر قبل الحادثة، كان يرتاد الغابات المجاورة لمنزلي من أجل الصيد، و كنت أساعده كثيراً، كنت أراه، كأنه واحد من الممثلين الذين نشاهدهم في التلفاز، أخبرني حينها بأن هذه الساعة تحفة نادرة، و أنه اشتراها بثمن غال جداً، عاشت معي كل الأحداث التي مررت منها هنا في السجن، رغم أي كنت لا أنظر إليها إلا لمعرفة اليوم و الشهر و السنة، و بداخلها دائرة صغيرة توجد تحت مركز العقربين الموجودين في فضاء يميل إلى الصفرة، و فوقها بالأحمر مكتوب بالخط الفرنسي الكبير: ANTIMAGNETIC، و بداخلها عقرب واحد يتحرك

ببطء شديد، و في أعلى الدائرة الداخلية مكتوب: DOGMA، و تحتها: PRIMA ANCRE IS RUBIS، و أما الأرقام، فمكتوبة فيها فقط الأعداد الزوجية، و أما في مكان الفردية كلها كتب الرقم ثمانية العربي، كأن صانعها يفرض عليك الإلمام بأوقات الدائرة مسبقا، أو النظر قبل الساعة الفردية و بعدها من أجل معرفتها، و تحت الدائرة، و على طرفي الرقم ستة مكتوب SWISS MADE، بينما كانت نقط الدقائق واضحة، و أوضحها الخامسة بعد كل أربعة.

أودعوني في زنزانة غير التي كنت فيها، و جناحا غير الذي كنت فيه، كأني لم أعد قاتلا، كان الجناح هو الأقرب إلى البوابة الكبرى و إلى إدارة السجن، و كانت الزنزانة كبيرة و عدد السجناء فيها قرابة الخمسين، أفكار متنافرة و طرق متعددة في التعامل مع الحياة هنا، السجناء المحكومون بأقل من سنة، بل ببعض شهور فقط، كأنهم من الشباب الذين خرجوا للتو من سن المراهقة، و الذين ولدوا بعد دخولي إلى السجن أول الأمر، كما أنك تجدهم يسجنون من أجل تهم بسيطة و غير مقنعة، فبعضهم حاول السرقة أو سرق شيئا بسيطا، و بعضهم اعتدى خطأ، و بعضهم استعمل المخدرات أو باعها أياما من أجل دراهم معدودة، و كل تهمهم لو جمعتها لا تساوي سببا واحدا في الدخول إلى زنزانة شهورا، لا تساوي سببا واحدا يجعلك تتجرع عناء المبيت في

العراء و التعرض لسوء المعاملة و تمهيد الطريق للأمراض، و الاعتياد على كلام السجن و حياة السجن و معاملة السجن و معجم السجن الذي لا ينضح إلا بمرادفات الانحراف و التخلف و الشذوذ و الانكسار و الفشل، فتراهم يقولون للأم (الحنانة)، ليس حبا فيها، ولكن لأن الأم هي الوحيدة التي تتحمل تفاهاتهم و تتبعهم و تلبى رغباتهم مهما أكثروا حتى تخلى عنهم كل أقاربهم.

و يقولون للسرير (الشواية)، كناية على أن السجنين ينام على صفيح من نار، جماره الكوابيس المرعبة و النوم غير الهنيء و انتظار يوم الخروج، و على أنك على هذا السرير تطبخ لكي يأكلك الآخرون.

و يقولون للزنزانة المخصصة لعقاب السجناء الذين يرتكبون بعض الحماقات "الحديقة"، للتخفيف من حدة لفظ العقوبة، و كأن السجنين ذاهب ليتفسح بين الأشجار و الورود و الأزهار.

و يقولون للذي ينقب عن القمل الأبيض السجني في جسده: هل تقرأ الجورنال؟ أي هل تقرأ الجريدة؟

و يقولون "الكرية" للزنزانة و "الصونطور" للمغلاة و أكثر.

و ربما تراهم قد غيروا كل كلامهم و استبدلوه بآخر ملائم للحالة الحسبية التي هم فيها، و الملاحظ أن معظم هذه الكلمات مستقاة من معجم الخدمة العسكرية، ربما في محاولة للإعلاء من شأن السجين.

و عندما يخرجون من السجن، فهم لا يتركونه خلفهم، لا يتخلون عن تركته الخاسرة، ولكنهم يحملون معهم سجنهم، بزناناته و ظروفه و كلامه ومعاملاته إلى الحياة العامة، و بدل أن يكون السجن قد لعب دورا في نبذ الأخلاق السيئة من نفوسهم، تجده صار يكرس ثقافة سجنية تعيش بسلام داخل المجتمع، وتنتشر كلما أتيحت لها الظروف المناسبة رويدا رويدا، و هكذا ما عاد السجن يمثل استعبادا و عقابا للمتهم، بقدر ما صار يمثل استهلاكاً للأعمار فقط.

فلما حان موعد الخروج، و أخبرني الحارس المسؤول بذلك قبل أيام، عاج كل من في الزنزانة من أجل تهنّتي فرحين، تماما كما يفرحون لكل من تم تبشيره بالخبر الجميل.

إنهم هنا يحتاطون مني، لأنني قادم إليهم من مستشفى الأمراض العصبية و النفسية، لكنني بكل وضوح، لا أرى فرقا بينهم و بين المجانين.

أثار انتباهي هذا الكم الهائل من الإبداع على الحيطان، ربما مر من هنا الكثير من المبدعين و الملهمين و الفنانين، و الذين يتركون بصمتهم في شكل لوحات فنية منحوتة، رغم الحرمان و انعدام الوسائل و قلة ذات اليد.

الرسم على الحيطان أو "الجدارية"، صار اليوم فنا معترفا به، و يمارسه فنانون كبار، لأنك عندما ترسم لوحة على الحائط الموجود في الحارة، فأنت تدرك مسبقا بأنك قد استهدفت أكبر شريحة في المجتمع، فكل من مر من هناك سيشاهدها حتى إن كان لا يهتم بالتشكيل، بل قد يقف أمامها طويلا و يقرأها طويلا، و كلما مر و رآها، فهو سوف يعيد قراءتها من جديد.

الرسم على الحيطان، هو شكل من الهجرة نحو المتلقي، و فرض المنتج عليه، و جعله على الأقل، يذعن لرغبة المبدع، بأن يقف أمام اللوحة ويشاهدها و ينتبه إليها.

الأسماء المكتوبة تحت بعض الجداريات هنا كثيرة، فهناك من السجناء من يحاولون إضافة بعض الخطوط عليها ثم يكتبون أسماءهم غير خجلين، تلك الإضافة قد تزيد اللوحة جمالا، و قد تفقدها كل جمالها كما أرى في التي أمامي الآن، رسم كبير لتفاحة "ماكنطوش" المعضوض، وفوقه عنوان (ثمرة المعرفة)، و كتب اسمه تحتها، فجاء أحدهم بعده، و حاول أن يملأ الجزء المعضوض، و كتب عنوان: (تفاحة آدم قبل الخطيئة)، و كتب اسمه تحت اسم

الأول، و جاء الثالث فرسم جذعا و غصونا لشجرة و ألحقهم بالتفاحة و كتب عنوان: (تفاحة نيوتن)، ثم كتب اسمه تحتها.

و في الجهة المقابلة، أثار انتباهي رسم جميل لشيخ طاعن في السن جالس تحت شجرة، تبدو عليه ملامح البؤس، بحيث يضع خذه على كفه و ينظر إلى الأرض، و مكتوب فوق الرسم: (الحقيقة أن الحياة ضحكت علينا).

قبور تمشي.

عندما كنا نخرج إلى الساحة مرة في كل اليوم، التقيت بالسجين القديم "كونار" وهو يستعد للخروج مثلي في الأيام القليلة القادمة، لقد عرفته بسرعة و عرفني رغم طول الأمد، بعض الناس لا تتغير ملامحهم كثيرا مهما تقدموا في السن، وبعضهم يتغيرون بسرعة.

كان يعف عن السؤال عن حالتي احتراماً لمشاعري، لأنه يرى بأنه من العيب أن تسأل أحدهم: "هل أنت مجنون؟"

كنا نجلس معاً، و نتحدث بشغف عن أصدقائنا القدماء، إنه يعرف كل أخبارهم، و قد حكى لي عنهم الكثير، كما كنت لا أتردد في استفساره عن كل كبيرة وصغيرة.

قال لي بأن "الأستاذ" قد أصيب بوعكة صحية قبل مغادرته للسجن بقليل، كادت تودي بحياته، وأنه قد لازم المستشفى على إثرها شهوراً، وأنه كان حزينا لأن زوجته و أبناءه لم يأتوا لزيارته أبداً، كان يلقي كل اللوم على زوجته، لأنها هي القادرة بحكاياتها أن تزرع في قلوبهم حبه أو كرهه أو لومه أو التماس ألف عذر له، كان عليها أن لا تعاقبه بالقطيعة النفسية و قطيعة أبنائه وربما تأليب نفوسهم عليه، و أن تدرك بأن الذي وقع له، قد وقع قبله للكثير، فمهما كانت الظروف، فهو زوجها، و هو أبو أبنائها، و إن حصل أن مات حقاً،

فمن واجب المحبة التي كانت، أن تشيعه، و تدفنه، و تذرف عليه دموعات صادقات، أو أن تسأل عنه و تعرف مصيره حتى إن كان هو الجحيم في هذه الحياة.

قال لي بأن "الأستاذ" قد فرح كثيرا عندما علم بأنه سيخرج بالعفو الملكي، وذلك من أجل التزامه و حسن أخلاقه داخل السجن، حتى إن كان قد قضى المدة معظمها، و لم يبق له إلا القليل منها، كان حزينا لأن العفو جاء متأخرا.

و بعد خروجه من السجن، كرس كل وقته للبحث عن أسرته، و لمصالحة زوجته و أبنائه بعد تدخل الأهل و الجيران، لقد كان "الأستاذ" مصدوما و هو يجد نفسه غريبا بين أهله و أبنائه، و كان مصدوما أكثر عندما وجد بأن ابنه قد صار مديرا لنفس المدرسة التي كان يدرس فيها، و بأنه قد صار جدا، فقد تزوجت ابنته و أنجبت ولدا، وكان له خير أنيس.

كل الوجوه التي يعرفها قد تغيرت، الكثير منها غزاها الشيب و اغتالها التجاعيد، و كم من الوجوه البيضاء اسودت، و كم من الوجوه الجميلة ألبسها من القبح الزمان.

لا أنكر بأن "الأستاذ" هو الوحيد الذي لم ينس الذي كان بيننا سنين مضت، حتى إن كان الذي بيننا هو الحبس و الضيق و الاستعباد و العقاب

والذنب، لقد جاء لزيارتي هنا في السجن، كما زار الكثير من أصدقائه القدامى، وبكى كثيرا بين يدي، هو نفسه كان لا يعرف لماذا يبكي، لأني حينها كنت أولى منه بالدموع.

لقد حكى لي بأنه الآن يعيش بين المنزل و المسجد، و أنه يعاني من القصور الكلوي و ضعف القلب، و أن أكثر من يفهمه في هذه الحياة هو حفيده الصغير، و قال لي: "إن الحياة ليل تتابنا فيه كوابيس متعددة، هكذا أحس، وهكذا فهمت، من قال لك بأنك ستصبح حيا؟ جدي كان يقول لنا دائما، ما نحن إلا قبور تمشي، لا نعيش حياتنا كما نريد، و حتى إن كان ما نريده أمانا، فإننا نعيش غيره و نشكوه للأيام، و لا نشكو لكي يتغير الحال، ولكن فقط لكي نهون الخطب على أنفسنا".

كنت أنصت إلى "كونار" و هو يحكي لي هذا الكلام، كنت أحس كأن الوقت لا يكفي لمعرفة كل ما ترغب فيه، و لا يكفي أن تعيش كما تريد، وعرفت كم من الوقت أهدرت هنا في هذا المكان، كان علي أن أعيش الحياة كما يعيشها الآخرون، و أن أحاول استكشاف ما لا أعرفه فهو أكبر من عمري و من كل وقتي.

أخطاء الآخرين.

لقد حكى لي "كونار" بأن صديقنا "العربي" كان ينال العفو الملكي في كل مرة لكنه يرفضه، لأنه كان ينشد البراءة، لا أحد كان يشاطره الرأي، لأن كل من دخل إلى السجن كان يفكر في الخروج و لو هاربا.

و بعدما قضى مدته السجنية كاملة و خرج، بعث "العربي" العديد من الرسائل إلى المدير و إلى الوزير و حتى إلى الديوان الملكي بشأن حالته، لكن لا أحد كان يجيبه أو يبالي بشكواه، بل إن الجميع يعتبرونه هنا معتوها يقبل الحياة في السجن ظلما من أجل تحقيق المعاني السامية.

لكن الأكثر مرارة من ذلك كله، هو أن أباه الذي يشهد بكل الذي حصل قد مات، و قد أخبروه بأنه قد ندم كثيرا على ما فعل، كان على ابنه المذنب أن ينال العقاب الذي يستحق، لا أحد ملزم بتحمل أخطاء الآخرين.

لقد أخبروه بأن أخاه القاتل الحقيقي، و الذي من أجله قاموا بكل هذه التضحيات، كان عاقا لأبيه، و كان ينهره و يعامله في أيامه الأخيرة بجفاء، لم يتردد "العربي" في مساءلة أخيه عن هذا، فنشب بينهما عراك كاد ينتهي بجريمة أخرى، لقد اكتشف "العربي" بأنه قد قضى عن أخيه المدة السجنية، لكنه لم يقض عنه الإحساس بالذنب، الذنب الذي عاش مع أخيه و كبر في نفسه وبدله من إنسان بريء إلى مذنب هارب من عدالة الأرض لا السماء، كان عليه

أن يقضي عن نفسه ضريبة لا يمكن لغيره أن يقضيها عنه، و ربما ذلك هو السبب في نفوره من أبيه الذي حرمه من التخلص من الخطيئة الكبرى، من الكابوس المرعب.

حكى له أحدهم بأن أخاه القاتل كان يعنف أباه، و ربما كان يضربه، لكن الأب كان يحاول أن يداري عن ابنه، ولكن أمام نفاذ صبر أمه، بدأت تتحرك لإنقاذ زوجها من التعنيف و هو رجل طاعن في السن، و إنقاذ ابنها من العقوق و هو في مقتبل العمر، وقد تدخل في الأمر الكثير من الجيران، لكن الأب كان ينكر هذا، و كان رغم ذلك، يثني على ابنه أمام الناس، ربما خوفا من الانتقام، و ربما أملا في اهتداء ابنه إلى الطريق الصحيح.

لقد ندم الأب كثيرا أنه دفع ابنه "العربي" إلى التهلكة من أجل التكفير عن ذنب أخيه، ندم كثيرا عندما طال الزمان و اكتشف أنه ارتكب أفظع خطيئة، بأن استغل سلطة الأبوة و إحساسها و فرض واقعا غير الذي يجب أن يكون، و عرف بأنه بهذا الذي يحصل له مع ابنه الأصغر، يؤدي ثمن الخطيئة التي لا يملك أن يصححها و لا يملك أن يكفر عنها.

إنه لم يفكر حينها في أحفاده الذين سيعيشون محرومين من حنان الأب و طلته و طلته عليهم، و أنه لن يستطيع تعويض هذا الحنان مهما تحمل نفقاتهم و مصاريفهم في الحياة.

لم يفكر في تربيتهم، وهل هي كذلك سيتحملها؟ وأن الأب أب، وأن الجد جد، وأن الأم أم، وأن الحياة التي نعيشها، هي هبة الله إلينا، لن ندرك قيمتها إلا حين نفقدها.

لم يحك الأب لابنه هذا الكلام خلال الزيارة، ولا الأم كذلك ولا غيرهما، كانت الوصية ألا يشغلوا بال "العربي" عن أبويه، وقد تحسر كثيرا عندما سمع هذا الكلام، وفهم لماذا هاجرت زوجته منذ سنين صعبة أبنائها لتعيش مع أبويها بعيدا عن مشاكل أخيه.

لم تعد حياة "العربي" كما كانت، ولم يجد أهله كما كانوا، فقد كبر الأولاد لامبالين به، ووجد نفسه مع هذا، رجلا على هامش الحياة، لا يريد أن يصدق بأنهم قد أمروه بالراحة والنوم والأكل، كأنهم ينتظرون موته في القريب، فلا حياة لمن لا غاية له، والزمن الذي نلعه، هو أجمل محرك للرغبات فينا.

رفض "العربي" الحياة التي سطرها له أبنائه، وقام يشغل بجده، كأنه يبحث في نفسه عن حياة أخرى أكثر إثارة للرغبة في تحقيق الأهداف، لأن الحياة بدون هدف، موت، فإنه ليس المهم أن تمشي بسرعة أو ببطء، ولكن هو أن تعرف إلى أين تمشي، ما أتعب من يمشي بلا غاية في هذه الحياة.

كان "العربي" يمشي قبالة باب البيت بعد صلاة العشاء، كأنه يتأقلم مع الواقع الجديد، كأنه يدرب رجله على خطوات الحرية، و فجأة داهمه أحد المارين مسلماً كأنه يعرفه:

- أهلاً "العربي"، كيف أحوالك؟ هل عرفني؟
- نعم عرفتك، أنت "سعيد" ابن خالتي منانة.
- رحمها الله.
- هل ماتت؟
- نعم، منذ زمان.
- وأنت، ماذا تفعل؟
- لا شيء، إني أركض في الدنيا بدون هدف محدد، (فهم بالانصراف ثم قال للعربي متوسلاً): أعطني درهما أرجوك، إني أريد أن أذهب. (مد إليه العربي درهما و سأله)
- إلى أين؟ (فأجاب متلعثماً)
- بصراحة، لا أدري، ولكنني سأذهب.

كان يحبها بجنون.

و أما الذي اعتبره "كونار" الأوفر حظا من بيننا، حتى إن لم يكن في السجن رجل محظوظ، فهو الشاب "أنور"، بحيث أنه لازال في مقتبل العمر، كما أن أسرته صرفت الكثير من الأموال من أجل استئناف الحكم و تعديل مدته السجنية، و قد تحقق لهم ذلك، و كان أول من غادر من بين أصدقائنا.

لقد كبرت ابنته و كانت تزوره هنا بشكل منتظم، كان يحبها بجنون، كانت ترتقي في حضنه خلال كل زيارة و تبكي لفراقه، كلنا كنا نعرفها، كانت كوردة تعيش معنا آمالنا و آلامنا، كانت بتنا لنا كلنا.

كان "أنور" يتحسر كثيرا عندما يراها، فهي صورة طبق الأصل لأُمها، و كنا نفهم من كلامه أن قتله لزوجته كان فقط خطأ، و أنه يكن لها كل الحب، و ماذا يفعل إن كانت صغيرته تذكره بزوجته، بالذكرى المؤلمة التي غيرت مجرى حياته؟

و هل يقتل الإنسان من يجب؟

كان يقول بأنه لم يكتشف حبه الكبير لزوجته إلا بعدما أفاق من صدمته، و ذلك بعد شهور من السجن، و قد اختلط هذا الحب بندم أكبر عندما كبرت ابنته و كانت صورة لزوجته، كان يحب في ابنته ابنته و زوجته.

عندما خرج "أنور" من السجن، ذهب إلى قبر أمه التي ماتت بحسرتها عليه، وأصابها داء السكري بسبب ما حصل له، وكانت لا تستطيع زيارته خوفاً من موتها بين يديه، "و ليتها فعلت، ليتها ماتت بين يدي، كنت شفيت قلبي من هذه الجراح التي تؤلمني اليوم".

ذهب "أنور" إلى قبر أمه، وعانقه، عانقه طويلاً، وبكى عليه، ولم يبرحه رغم توسلات ابنته وبعض أهله الذين وقفوا ينظرون إليه مندهشين، ومنهم من شاطره الدموع.

كان يقول لنا دائماً بأن ابنته هي مستقبله، وهي حياته، وهي كل ما تبقى له في هذه الدنيا، لكننا علمنا بأنه عندما خرج، قضى مدة يسيرة ثم تزوج وأنجب أولاداً، وهو الآن يعيش حياة غير التي كان يسطر في خياله قبل الخروج.. إن ما نفكر فيه ونحن مهزومون، قد يتغير بنسب مختلفة عندما نمارسه، وقد يكون العكس تماماً عندما نتصر على أول عقبة في نفوسنا، وأما ما نفكر فيه ونحن منتصرون أو منتشون، فهو أبعد ما يكون عن الصواب.

و بعد أيام، تزوجت ابنته، وكان فرحاً بها، كان ينظر إلى زوجها وهو لا يتوانى في تقديم أجمل الورود لها، كان يبتسم له وهو يبتسم لها، كان يفكر في أمر لا يفكر فيه غيره، ربما كان حلماً، وربما كابوساً سينجلي بعد هذا العرس المهيّب.

نوبة قاتلة.

كان "كونار" يحكي تجارب أصدقائنا بإحساس صادق، إلا أن ما كان يفسد هذا الإحساس مرات، هو استعماله لكلمات تنبعث من صميم المعجم السجني المتشبع بالهزيمة والاغتراب.

كنت أدرك بأنه لم يحدثني عن السجين "عبد الكريم"، والذي كانت لي معه قصص خاصة، لأنه كان ينام في السرير الموجود فوق سريري، وأنه كان أكثرنا تكتما على ذكر أخباره و سيرته، و حتى عندما كان يزوره أبوه، كان لا يحكي لنا عنه شيئا، بل إنه كان غريب الأطوار، و قليل الحديث، لكنه كثيرا ما يصاب بنوبات الصرع التي حفظناها و حفظنا توقيتها و درجاتها و مراحلها، بحيث يكون الرجل عاديا في الأول، ثم نلاحظ بأن ملامح وجهه بدأت تتغير، كأن يبدأ بعض شفثيه أو يحرك عينيه يمينا و شمالا، أو يلوي عنقه للجهتين، حينها يكون قد وصل إلى درجة عدم التجاوب، فأنت مهما سألته فهو لن يرد عليك، ثم يبدأ بالتوتر الشديد الذي يتطور سريعا، و يفقد وعيه، ثم تبدأ عضلاته بالانقباض، فيسقط، و يرتعش، و تبدو أطرافه متشنجة و غير قابلة للالتواء، و ربما يعوج فمه و تنقلب عيناه، و ربما يصرخ، و ربما يتبول في ملابسه.

عندما تنتهي نوبة الصرع، تبدو عليه علامات العياء الشديد، و ينام طويلا، فنحاول أن نضعه في وضع مريح لكي لا يتضرر أو يختنق، كما أنه لا ينطق بكلمة مهما كان السؤال، و مهما كانت الأحوال.

سألناه مرات عن هذه الحالة التي كانت غريبة علينا، لأننا مهما كنا على علم بوجودها فنحن لم نعاينها من قبل، و لم نشهدها من البداية حتى النهاية، فكان لا يخبينا إلا ببعض ما قاله له الطبيب خلال عيادته المتكررة، بأنه يعاني من ورم في المخ.

كان يقول هذا الكلام بلامبالاة، بينما كنا نراه كلاما خطيرا يتطلب تدخلا فوريا من أجل العلاج، و العلاج هنا عملية جراحية عاجلة، لأن الأمر قد يتطور إلى ما لا تحمد عقباه.

و كنا نشك جميعنا في أن هذا الصرع، إن لم يكن سببا في تورطه في القتل، فهو لا شك نتيجة له، فالضرب للرأس هو كذلك سبب مباشر في تعرض خلاياه للتلف.

نظر إلي "كونار" نظرة استغراب ثم قال:

- كنت أظن بأنك تعرف الخبر، لقد مات "عبد الكريم" منذ سنين، وجدناه في الصباح و قد سقط من السرير، كنا نعلم بأنه أصيب بنوبة صرع خلال النوم، فسقط على رأسه و ارتج مخه، و ربما اختنق و مات، هذا هو كلام الطبيب بعد

التشريح، وقد جاء بنفسه وأخبرنا به، "عبد الكريم" لم يكن مكانه في السجن، كان عليهم أن يحملوه إلى المستشفى من أجل العلاج.

كان "كونار" يبدو حزيناً من أجل موت السجين، ومن أجل الكثير من الأشياء التي وقعت داخل السجن وخارجه، كان يحكي عنهم بإحساس إنسان، يا إلهي لقد كنت مخطئاً في حقّه، عندما رأيته أول مرة كرهته، وقلت في نفسي كيف سأعيش مدة طويلة برفقة هذا الرجل، وعندما بدأت أسمع أول كلماته وألاحظ بعض تصرفاته كرهته أكثر، وتمنيت لو أنهم خيروني أن أنتقل من هذه الزنزانة، كنت اخترت أي زنزانة أخرى فقط لكي لا أكون معه، كنت حينها سأرتكب خطأ كبيراً في حياتي، لأنني كنت أجهل بأن خلف كل تلك المظاهر هناك إنسان آخر مختلف تماماً عما أدركته أنا.

يا إلهي كم نضيع من الأحاسيس في أحكام متسارعة على الآخرين، ألا نتمهل؟ ألا نفكر قليلاً؟ ألا ننظر إلى الحياة بحياد؟

إن معظم الآراء التي نكونها عن الآخرين لا تكون صحيحة، وبدل أن نعيد النظر إليها، نجعلها عماد حكمنا على الحياة فننحرف عن حقيقتنا، ربما هذا هو الأمر الوحيد الذي قد يتغير به القدر الذي نعيش عليه.

أنتما أختي.

نم يا من قلبه هاني
 واغرق في منامك واشبع
 حاولت قبلك أن أنام
 لكن النوم تمنعا
 وما تفرق في حياتي
 من الأحزان تجمعنا

بكيت، فلم ينفعني البكاء
 حزنت، فلم يسعفني الحزن
 لبست، كأني بلا رداء
 وعشت كأني بلا بدن
 عقل وقلب ولا حياة
 جسم وروح ولا وطن

أحببت "كونار" كثيرا، ووددت لو أنه أخي، و سألته عن نفسه، فهو لا يتردد أن يبوح بكل شيء، لذلك يكون حديثه ممتعا، و لا أكثر جفافا من الكلام الذي يأتيه الحذر من بين يديه و من خلفه.

قال لي "كونار":

- "أعرف أني سأخرج من السجن كأني لازلت فيه، فإني لن أجد أحدا بانتظاري فرحا مسرورا بإطلاق سراحي، لأن أبي قد مات و هو لا يهتم لحالي، و أما أمي فقد أودى المرض بعمرها، ففقدتها و فقدت معها نفسي، لأنها الوحيدة التي كانت تتعقبني و تسأل عني و تصبر لحماقتي و كل تفاهاتي، رحم الله (الحنانة). سأذهب للبحث عن أختي، كانت أمي تحدثني عنها كثيرا خلال الزيارة، أخبرتني بأنها متزوجة برجل يشتغل في دار المخزن، و هو مسؤول كبير في دائرة الأمن، لذلك كانت أمي لا تستطيع أن تخبرهما بأمرى، فربما تنزعج أختي أو ترفض هذا الكلام احتراما لموقف زوجها أو حتى خوفا منه، أمي المسكينة كانت تعرف كل شيء، لكنها كانت عاجزة عن الكلام.

أخبرتني بأن أختي قد ولدت توأما ذكرا جميلا، و بأنهما يتابعان دراستهما في أكبر المدارس العليا، و أنها تعيش مع زوجها حياة الطمأنينة و السعادة، لذلك أخاف أن يكون مجرد إخبارها بأني أخوها صدمة كبيرة لها، و أكون سببا في تغير حالها مع زوجها أو مع أولادها، أخاف ألا ترحب بي، ليس لأنها لا تريد ذلك،

ولكن لأنني لا أشرفها، فحياتي أبعد ما تكون عن حياتها، و حتى شكلي المقرف هو كذلك سيكون مصدرا كبيرا لإزعاجها، لوني الأسود و ملاحي الزنجية والوشام الذي يغطي جلدي و أمور أخرى، فالناظر إلينا يجزم بأننا لسنا أخوين، حتى إن كنا قد خرجنا من نفس الرحم، إن الله قدر أن يحمل كل واحد منا ملامح أبيه.

لقد أخبرتني أمي بكل شيء عن أختي، عن أولادها و مسكنها، و وصفتها لي طويلا حتى رسمتها في خيالي و أعدت رسمها مرات، إن الصورة التي في ذهني هي نفسها صورة أختي حتى إن كنت لم أرها بعد، كانت أمي تخبرني كأنها توصيني بأن لا أتسرع في تعاملي مع هذا الموضوع، لأنها كانت ستتكفل بالأمر كله بطريقة صحيحة، لكن الموت غدرها و غدرني.

كانت أمي تنتظر خروجي من السجن فتعرفنا على بعضنا و تصلح بيننا و تنسج لنا علاقة مناسبة، لم تكن تحسب للموت حسابا، كانت تنساه لكثرة همومها، لكنني سأخرج، و أبحث عن أختي، و أجدها، و سأرتقي تحت قدميها و أبكي طويلا، سأبكي طويلا، و أتوسل إليها أن تعرف فقط بأني أخوها، و أتي جئت من نفس الرحم الذي جاءت منه، و سأعترف لها بأني سأختفي من حياتها إن كان منظري يزعجها و يزعج أبناءها، لكن منظري، لست أنا من صنعه."

و جاء موعد الخروج من السجن، و ودع "كونار" أصدقاءه كأنه يودع أهله، و فارق الزنانة كأنه يفارق بيته، ااااا، أترى هل يأخذك الحنين إلى مكان كنت مستعبدا فيه؟ هل يأخذك الحنين إلى مكان كنت فيه من أجل العقاب على جرم أنت ارتكبته؟ هل يأخذك الحنين إلى مكان ضيق كنت لا تعرف فيه حتى نفسك و حقيقة مجيئك و مغادرتك؟ يا لحمق هذا الإنسان، تارة يهرب به العقل من الإحساس بالحياة من أجل فكرة، و تارة يتيه به القلب في حب العذاب من أجل إحساس.

خرج "كونار" من الباب الكبير وحيدا يحمل حقييته المملوءة، تقدم خطوات قليلة إلى الأمام، توقف كأنه يريد الرجوع، ذرف دموعات غزيرة، كانت أمه ستفرح كثيرا في هذه اللحظات، لم يلتفت إلى الوراء، لكي لا يعود إلى هذا المكان، هكذا كان يعتقد كغيره من السجناء، و قصد منزله بإحساس لا يوصف، إحساس لا تطاله لغة و لا ترسمه كلمات، كان يفكر في الدرب والجيران، وكيف سيدخل إلى المنزل و لا يجد أمه هناك، كانت الهواجس والوساوس تغتال عقله و قلبه، لكنه كان لا يبالي بمن حوله، حتى أطل على باب بيته:

"كعادتني،

عندما أقترب من باب بيتي،

أحس السماء فوقني،
 فأسترجع الأرض تحتي،
 ولا أفكر بعدها، أكان يومي خميسا،
 أم كان ضربا من السبت؟
 كعادتي،
 سحبت المفاتيح من جيبتي،
 وفتحت بابي،
 فخلف بابي أستتر عيبي،
 فارتمتي على الصمت،
 وأرختي الظلام سدوله،
 فضمني ضمة القلب للقلب،
 حتى اضطربت على غير عادتي،
 وبت منتكسا من الكرب،
 ثم قلت لنفسني، وقد صدقتها من قبل أمس: (الدار فارغة)،
 وإلا كان طيفي استقبلني ضاحكا مبتهجا،
 ثم رمى بجسمه عليا،
 طفولة وبسمة وبراءة تنبع من حشيا،

فأخذني من يديا،
فحملته فخدش عينا،
و سرت حيث أشار إليها،
ثم ولجنا بيتنا،
فوجدنا أُمي هناك، و وجدنا أُمه هنا،
فوضعتة بيننا عله يراها فينساني،
و أُمي تقول: دع بنيا،
ثم رماني بالأواني،
ربما يصيبني إصابة بالغة،
ولا أجيبه إلا بالتكاسل والهوان،
فانهال علي بضربه، ضربا من الحنان،
أثار انتباهي،
و دار بوجهه عني، كأنه لا يراني،
فربما أمد يدي، فأصير لقمة سائغة،
ضحكت من أمره،
حتى ارتد صوتي على مدى الحيطان،
فقلت، وقد أكثر حولي اللغاغة:

يا طيفي اهدأ،

ودعني من الترهات الفارغه،

يا طيفي اهدأ،

فعقلك و عقل صاحبك في حجمهما سيان،

فغضب، وقهقهت

وهو يرمي علي الأسلحة الدامغه،

وفجأة...

ألجمت فمي،

وأخذت أحلق حولي،

حتى استحييت من نفسي،

فلقد نسيت بأن الدار فارغه..."

كل الأركان هنا يغتهاها الظلام،

كل الأشياء هنا تغيرت و ران على صدرها غبار الأيام،

هذه الدار ما باتت تعرفني،

تلك الغرفة التي كنت فيها أنام،

ولي فيها ذكريات عميقة، فراش و غطاء و كوابيس و أحلام،

تلك الوسادة التي يعرفها خذي،

تلك الأوراق المرمية في الزوايا بالية، تلك الأوهام،

هذه الدار ما باتت تعرفني،

خرجت منها بشرا سويا،

و عدت إليها مزيجا من بعض الأشلاء و بعض الحطام،

إن التجاعيد التي أنفت لأنها غيرت ملاحني،

أذهلني اليوم بأنها تغير وجه الكلام،

هذه الدار ما باتت تعرفني،

لم أنم هنيئا، ولكنني أغمضت عيني و فتحتها كثيرا خلال الليل، كنت
أنتظر أن يطلع النهار، كنت مستعجلا، في كل استفاقة ألقى نظرة من شقوق
النافذة لعلني أرى ضوء الصباح، حتى لاح لي ذات لحظة، فجزعت من فراشي
وغسلت وجهي و أطرافي كأني غسلت وجه الحياة و ابتدأت باكرا...

لم أتأخر كثيرا قبل الذهاب إلى الحي الراقي حيث تسكن أختي، كنت
أتجول متخفيا، فكلما رأيت سيارة خارجة إلا قلت هذه هي الدار، و كلما رأيت
امرأة شقراء إلا قلت هذه هي أختي، كنت أخفي ملاحني حتى لا يشك
الحراس الموجودون أمام الفيلات في وجودي، و كنت لا أحمل من العلامات
إلا اسمها "أمينة"، و أن لها توأما ذكرا، و أنها امرأة متوسطة القد بيضاء،
أعرف بأنها ليست معلومات كافية لإدراك معرفة، لكنني تمسكت بها لأنها كل

ما عندي، و كنت كلما سألت حارسا هنا إلا أضفت بأن زوجها رجل أمن، كان بعض الحراس يتعففون على تزويدي بأية معلومة لأنهم يشكون في من خلال مظهري، و منهم من سألني عن السبب، لكنني كنت لا أخبرهم بذلك. كنت أذهب في كل يوم، مرة في الصباح و مرة في المساء و مرة في الليل، و بعد أيام، بدأ أحد الحراس يتعاطف معي، لأننا أطلنا في الحديث، ولأنه استأنس بي، فقد رأي مرات كثيرة هنا، فوجدت بأنه ينتمي إلى نفس الحي الذي أسكن فيه، و هو ما جعلني أعترف له بالحقيقة، فصار يسأل و ينتبه ويبحث، و في كل مرة يمدني بمعلومة جديدة، حتى اهتدى إلى الدار حيث يسكن التوأم، فلما أخبرني بما عرفه عنهم، اهتز قلبي وجلا و صفق تصفيقا كأنه وجد الحقيقة التي لا يريد أن يعيش بعدها أبدا.

توجهت نحو حارس الفيلا و سألته، فكانت كل المعلومات صحيحة و مطابقة، بل لقد زودني بأكثر منها بحكم معرفته بهم عن قرب، فهو حارسهم، لكنه لا يعرف شيئا عن أخوتنا أو عن أمنا، هو يعرف فقط بأن أبويها ميتان...

كان الخوف قد نال مني كثيرا، لم أكن خائفا يوما كما أنا اليوم، حتى عندما كنت أقتحم السيوف و الأسلحة اليدوية خلال الاقتتال بين تجار المخدرات، كنت أرفع عيني و أنظر إلى الفيلا من بعيد فأشعر بالرهبة، لكنني

كنت مصمما على هدي، و اتفقت مع الحارس بأن يخبرها بأن رجلا ما يريد أن يراها، فأمرته بأن يدخلني إلى غرفة الانتظار الموجودة في المدخل، كانت الغرفة باردة، و كانت الأشجار تبدو مخضرة في الحديقة الموجودة خلف النافذة العريضة، أما قلبي، فكان ينبض بشدة، و عيني مشدودة إلى الباب المطل على وسط الدار، و في كل لحظة يطلع في خيالي طيف امرأة فأطرده، لأن الحقيقة الآن بقربي، إني أتخيلها تنزل الدرج بسرعة، ثم تقطع المسافة القصيرة بين نهاية الدرج و باب غرفة الانتظار، ثم تطل علي فأفزع، فأكتشف بأني كنت أتخيل، و أعود إلى وحدتي أنتظرها بفارغ الصبر، و من قال؟ لعلها تجلس الآن قبالة التلفاز لامبالية بي و بأحاسيسي و بفزعي المتكرر.

تأخرت كثيرا، حتى استوت دقائق قلبي و صرت أفهم بأن تلك المرأة اللابسة البياض، و التي تخطر أمام ناظري في كل لحظة، ليست سوى الخادمة، فما بات يفزعني منظرها بعد الآن.

و حانت لحظة اللقاء، إني أسمع صوت خطواتها تقترب من الباب، كيف كنت لا أدرك هذا من قبل؟ إنها تقترب، ليتها تتوقف لحظة واحدة، لكنها دخلت علي فقامت بسرعة من مكاني، اقتربت، مددت إليها يدي فسلمت علي و أمرتني بالجلوس، قدمت نفسي لكنها لم تفعل، لم تنتبه إلى اسم أمي الذي

ذكرته أمامها، ثم بدأت أحكي لها من الأول، كنت أستعجل الأحداث قليلا لكي أصل إلى الفكرة التي تنتظرها هي الأخرى:

"لقد أخبرتني أُمي قبل أن تموت بأن لي أختا، و أخبرتني باسمها وأوصافها و الحي الذي تسكن فيه، و أنها تنتظر خروجي من السجن لكي تعرفنا على بعضنا، و كانت دائما تقول لي بأن الولد مولود و أن الزوج موجود و أن الأخ مفقود، فابحث عن أخيك و أحسن معاملته، فلما خرجت، آليت إلا أن أبحث عن أختي و أقدم لها نفسي و أنصرف إلى حال سبيلي، هكذا أكون قد أرضيت الإنسان الذي بداخلي، و ها أنا ذا قد فعلت..."

كانت تنظر إلي ذاهلة، و تنتظر أن أكمل حديثي، لكنني سكنت، لا أستطيع الآن أن أقول لها "أنت أختي"، فهمت ذلك ثم سألتني غير مستعجلة: "و أين هي أختك؟"

و جاءت اللحظة التي كنت أنتظرها عشرات السنين، فأجبتها: "أنت أختي."

ابتسمت قليلا و سحبت كفها على وجهها ثم دارت إلى الخلف ونظرت إلي ثم تساءلت: "من قال لك هذا؟ هل أنت متأكد من الخبر؟ و أين هي أمك؟"

كنت أعرف أنها تريد دلائل و براهين، فالأمر ليس بالهين، فما كان مني إلا أن انهمكت في وصف أمي، فهي الدليل الوحيد عندي، حينها صارت تبدو عليها علامات الارتياح، ليس لأنني أخوها، ولكن لأنها بدأت تفهم.

كنت أنتظر أن تقوم من مكانها و تعانقني، لكنها لم تفعل.

كنت أنتظر أن تشاركني دموعا ذرفتها على أمي، لكنها لم تفعل.

كنت أعرف أن الحيرة تغطاها اغتيالاً، فليس من السهل أن تلد لك الأيام أخا في الخمسين من العمر، وليته كان أخا يشبهك.

و في لحظة الوداع، حاولت أن أبلغها رسالتي كاملة، فربما لن تتاح لي هذه الفرصة مرة أخرى، و قلت لها بأني لم آت للبحث عنها إلا لأمرين اثنين، أن تعلم بأن لها أخا في هذه الحياة حتى إن لم يكن في مقامها، و تعلم بأني قد شفيت غليلي و بلغت رسالة المرحومة أمي، و أنني لا أريد منها شيئاً و لن أعاود هذه الزيارة إلا إن كانت برغبتها، و أعطيتها رقم هاتفي و عدت إلى حال سبيلي مطمئناً، حتى إن كانت خلال توديعي صامتة لم تنبس ببنت شفة.

و عدت إلى بيتي أعيش وحيداً بين الجدران التي كانت تملؤها أمي، أقف من بيع الخضر في الشارع العام شهوراً عدة، حتى فقدت الأمل في اتصالها بعد طول انتظار، و بكيت من أجل ذلك كثيراً، لا لرغبة في نفسي،

ولكن لأنها رفضت أخوتي، أنا الذي كم حلمت بها في السجن و حدثت بها الآخرين، و عشت زمنا على أمل لقاءها.

و ذات ليلة مظلمة، وبينما كنت أشرب كأس شاي دافئ على نغمات قطرات المطر، جاءني اتصالها، لقد عرفتھا قبل أن أجيب، قلبي حدثني بذلك، إن من يتذكرك في مثل هذه لساعة، هو إنسان كان دائما يفكر فيك قبل أن ينام. كلمتها متلعثما، كان صوتها يبعث الدفء في فؤادي الذي طالما اجترحته الوحدة القاتلة، اعتذرت عن تأخرها، و طلبت مني زيارتها في القريب، القريب عندي هو الصباح إن لم يكن هو الآن، و عرضتني على زوجها و أولادها، كانوا لا يبالون بي كثيرا، لكنني كنت سعيدا بذلك، كنت أحاول أن أتصنع الكلام بلطف لأن كلاما آخر غير جميل يسبقني من حيث لا أدري، و أحاول أن أخفي الندوب الموجودة على جسدي حتى ما بقي يظهر مني إلا كفي و وجهي، و عندما أجلسني معهم كفرد من العائلة، و فسرت لهم حالتي، أجفل أحد ولديها التوأم و سألها:

tu veux dire que c'est mon oncle -

حاولت أن تهدئ من روعه، فقالت ببرودها المعتاد:

oui, en effet -

impossible, il est nègre !!! -

لم تثر في وجهه كما توقعت، لكنها أفنعتة بلطف بأنني خاله حتى إن كان لوني غير لونها، فأنا واحدة لكن أبوانا مختلفان، و كل واحد منا يحمل جينات أبيه ولونه وشكله، وأنا كلنا أبنا آدم و حواء.

و بعد أيام تخللتها زيارات متعددة، عرضت علي أن أشتغل كحارس للفيلا، و ذاك الذي حصل.

عندما كنت أكلّمها أو أكلّم ولديها، كنت أشعر بأن لغتي بعيدة عن الحياة، كأني لست من هذا الزمان، كأني جئت من كوكب آخر، كل الكلام الذي أحفظه و أعرفه و أنطقه و أظن بأنه لغتي، أرى بأنه غير صالح للتعبير عن الحياة الجميلة في هذا المكان، لكنني أعرف بأني مع الوقت، سوف أتأقلم وأتعلّم كلاماً آخر أجمل منه.

كان معظم حديث أولاد أختي باللغة الفرنسية، و هي كذلك تشجعهم على ذلك، كأن هروبهم من العربية هو هروب من البؤس، إلى الفرنسية التي تمثل لهم الملاذ الآمن، لذلك كنت أجد صعوبة في محادثتهم والتفاهم معهم، فإني أحس كأنهم جاءوا من الخيال إلى نصف الواقع الذي يعيشونه هنا، لم أكن أملك الشجاعة لأحدثهم من قبل، لكنني أملكها الآن، وأملك كذلك الرغبة الملحة في التعرف عليهم أكثر، رغم أني كنت أصدّم من سطحية حديثهم و انعدام تجاربهم و براءتهم التي لا تعبر عن شيء جميل، فإن

الكثير من البراءة تجعل كلامك وفعالك ومعظم تصرفاتك سطحية ومملة وغير نافذة إلى عمق الإنسان، وذلك لأن السذاجة، لم تكن يوما ما، مرادفا للجمال. لم يكن ابنا أختي مقتنعين بهذه الأخوة، لذلك فهما لا يفتران عن ذكرها لي، كان أحدهما قد تقرب مني كثيرا، على عكس الآخر، فسألني ذات يوم غير مبتسم: هل أنت أخ أمي؟ أجبته ضاحكا: نعم.

سألني بدون تردد مستنكرا كأنه يلوم القدر على انتماي إليه: لكنك أسود؟

أجبته ضاحكا: لكن قلبي أبيض. ثم سأل بالحاح: وكيف أعرف بأنه أبيض؟ ضحكت مليا ثم أجبته مازحا: انظر إلى هذه الابتسامة العريضة.

ما قد وصلت.

هذا الذي سيغادر السجن الآن ليس أنا، لقد جئت إلى هذا المكان و أنا شيخ الشباب، فها أنذا أغادره و أنا شاب الشيوخ، فرق كبير بين أن تدخل إلى مكان في الأربعين و تغادره في الستين.

حملت مذياعي و ساعتي و وسادتي و بعض ملابسي ثم توجهت نحو مكتب المدير، أخبرنا بأن التأخر الذي حصل هو فقط بسبب التفاهم مع إدارة السجن، مد لزوجتي أوراق الخروج فوقعت عليها و أنا واقف بجانبها كطفل صغير، لأن رجلا مثلي لا يوقع على شيء، و لا يتحمل حتى مسؤولية نفسه، ولا يفعل شيئا بنفسه، رغم أني ضقت بهذا و أخبرتهم بأنني لم أعد كذلك، لكنهم لا يصدقون الذين سبق لهم أن كانوا مجانين.

إني أعرف الطريق المؤدي إلى البيت، فالأمكنة لا تتغير حتى و إن ملأتها المباني، لكنني ما عدت أفهم كلام الناس، إنهم يتحدثون بجنبني في سيارة الأجرة، كأن كلامهم مشتم، كأن حديثهم لا يمت إلى المنطق بصلة، كأنهم ليسوا الذين كنت أعرفهم، أترى أنا الذي تغيرت؟

لو كان موعد خروجي في السنين الأولى من دخولي للسجن، كانت زوجتي أقامت من أجلي احتفالا و جاءتني بسيارة خاصة كأنها تزفني عريسا

من جديد، لكن الأمد طال، و المشاعر بردت و تكلست، و عدت إلى بيتي
نصف إنسان، فعلام تقيم احتفالاً؟ و علام تأتيني بسيارة خاصة؟

لم تقل زوجتي هذا الكلام ولكني فكرت فيه فقط، و لو كنت مكانها،
لحدثت روعي به، إني كنت في كل مرة أخطف نظرة إلى عينيها و هي تحمق
بعيدا من خلال زجاج النافذة، كل المعاني الإبداعية مدخلها لوحة فنية ترسمها
مخيلاتنا خلال النظر، فنترجها كيف نشاء و كما نريد.

في سيارة الأجرة، كانت الكثير من الهواجس تغتال مخيلتي، كنت لا
أتوقف عن التفكير الذي لا يفضي إلى نتيجة، كنت أفكر في أمي التي لم أرها
منذ زمن طويل، إنها أكثر الأحياء الأقارب بعدا عني، زارتنى قبل أن أنتقل إلى
مستشفى الأمراض النفسية و العصبية، لكنها بعد ذلك أصيبت بصدمة،
وصارت غير راضية بأن ترى ابنها و هو مجنون، إنها ترى الجنون مذلة تصيب
الأهل، كانت تتفادى بذلك حتى كلام الناس و أسئلتهم.

في سيارة الأجرة

دب معلق في الزجاج

يتأرجح يمينا و شمالا

في سيارة الأجرة

كسر وسط الزجاج الأمامي
يخفي عني القادمين من الاتجاه الآخر

في سيارة الأجرة
لغو السائق، ضجيج المذياع
لا أسمع شيئاً

في سيارة الأجرة
يتنافر الركاب مشدودين إلى بعضهم
كسلسلة بين فرسين

وصلنا إلى المنزل، كانوا ينتظروننا، أمي صارت عاجزة لا ترح
مكانها، ابنتي الكبرى "البوشتاوية" كبرت و صارت امرأة، حتى ملامحها
صارت أجمل، وعلى وجهها تضع المساحيق، لم تكن هكذا من قبل.
ابنتي "سكينة" التي تركتها في سن العاشرة، كبرت و قاربت
الثلاثين، ولها ابتسامة جميلة، يبدو بأنها متفاهمتين.

أختي "حكيمه" تعانق ابنها "ياسين" و تحدثه عني ضاحكة، يدوان كأخوين، لقد صار أطول منها قامه، و فقد البراءة التي عهدتها فيه صغيرا، أكثر الأشياء تبدا عندى، صوت "ياسين" الذي يشبه طريقة المتشردين في الكلام، وعجز أُمى و ملازمتها للفراش.

أيامى الأولى هنا كانت جميلة، آكل و أشرب و أنام و أستقبل الزوار. ثم بدأ يتغير الحال شيئا فشيئا، ففي كل صباح يخرج الجميع، و أبقى برفقة أُمى أحكى لها عن سجنى و تحكى لى عن حياتهم بعدى، كأنها بدأت تفقد الذاكرة، أو كأنها تبذل جهدا كبيرا من أجل أن تتذكر بعض الأحداث، وعندما يعودون من أعمالهم في المساء، يبادرنى كل واحد منهم بالقول إن أُمى قد صارت تهرف بما لا تعرف، و أنها صارت شبه مختلة، تخط القديم بالجديد، و تحكى ما لم تره و ما لا وجود له، و تتخيل أحداثا ليس لها في الواقع وجود. نعم، أنا كذلك لاحظت هذا، إن أُمى تتلعثم كثيرا، و تخطئ كثيرا، وبدل أن أستمع إليها، كنت أبذل جهدا كبيرا في محاولة تذكيرها و سؤالها وتصحيح المعلومات و الأخبار التي أرى فيها خللا، لكنى فكرت قليلا: ماذا أصحح لها؟ هل كنت معها؟ إنى كنت بعيدا غريبا، و هي أعلم منى بما كان يحصل هنا.

كان يبدو الاختلاف بينها و بينهم كبيرا، إنه أمر يحصل دائما بين الأجيال، الاختلاف، بينما كانت تتكلم بجد و لا تبسم، كأنها تستنكر تهكمهم و سخريتهم.

و عندما تبدأ بالحديث عن بعض الأحداث الكبرى التي وقعت في غياي، أجد متعة للكلام فأقرب منها و أنصت إليها، فما أن يدخل أحدهم حتى يحاول إسكاتها ضاحكا مستفزا قائلا: "ماذا تقول لك؟ إنها تهذي، لا تثق بكلامها"، كأنه يخشى أن تسرب إلي خبرا فأصدقه، فتتظر إليه باشمئزاز و تقول: "آه منك أيها المجرم".

كانت أمني تعطي لكل واحد منهم وصفا مختلفا عن الآخر، كنت أظن الأمر مجرد عبث و احتمال في الأول، لكن مع مرور الأيام، بدأت أدرك بأن تلك الأوصاف حقيقة، و صرت أنتبه إلى كل وصف و أحاول أن أسألها عنه دون أن أثير انتباهها إلى أن بي رغبة في المعرفة، لأنها إن علمت بهذه الرغبة، فهي ستتوقف عن مدي بمعلومات، أو تحاول إخضاعها لرقابة ما.

إن أمني تريد دائما أن تعرف كل الأخبار، حتى التافهة، فإذا سألتك عما كنت تقوله و حاولت أن تخبرها، فأنت تصطدم بضعف سمعها فتضطر إلى إعادة الكلام مرات حتى تكل، و تفسيره مرات حتى تمل، و لذلك فإن أقرب سبيل إلى الراحة عندهم هو التخلص منها و التملص من سؤالها و إخفاء

الأخبار عنها، بينما كانت تعرف كل شيء، فإن ما لم تعرفه منهم، ستحكيه لها إحدى الجارات التي تزورها صباح مساء، و أما أمي، فرأسها الآن فارغ، إلا من الأخبار.

كانت أمي تصف ابنتي "البوشتاوية" ب"الحدية"، وهي تعني بذلك طائر "الحداة" الجارح المعروف باللؤم و السرقة و السطو على ما ليس من شأنه.

و كانت تصف "ياسين" ابن "حكيمة" ب"السلقوط"، وهي تعني بذلك المتشرد و المنحرف و قليل الأدب.

كل هذا كان لا يهمني أكثر من تطلعي إلى معرفة الوصف الذي تطلقه على زوجتي، فهو لا محالة وصف ينبع من معرفتها بها لسنين طويلة خلت، إذ كنت أدفع أمي دفعا للنطق به في سياق الكلام، لكنها ربما كانت لا تجرؤ على ذلك.

لكن ما كنت أوقن منه، هو أن أمي كانت غير راضية عنهم، و أنها تعرف الكثير من الأمور، لكنها تراعي لمشاعري و لا تذكرها أمامي، و ربما نالت حظا كبيرا من التوصيات قبل أن أخرج من السجن.

كنت أعرف أن زوجتي تشتغل في "ضيعة الحاج احمد المقاوم"، هكذا يقولون، كانت تخرج إلى العمل في الصباح و لا تعود إلا بالليل، و أما أختي

"حكيمه"، فأعرف أنها تشتغل في محل لبيع الورود، كنت مندهشا في الأول لما عرفت ذلك، كيف يشتري الناس ورودا؟ و لمن يهدونها؟ فإني لم يسبق لي في حياتي أن فعلت هذا و لا فكرت فيه، لكنها فسرت لي بعد ذلك أن الورود التي يبيعون، معظمها يقتنى في الأعراس أو تستعمله بعض الشركات في تزيين مكاتب مدرائها، أو يستعمل في الاحتفالات الكبرى ثم يرمى عند نهايتها، ونادرا ما تجد عاشقا يقتني وردة واحدة ببعض دراهم لكي يهديها لحبيبته.

و أما "ياسين" فإني عرفت بأنه صار يتعاطى للمخدرات، بحيث أراه في كل مرة يبتز إحداهن من أجل دراهم فيخرج مسرورا، و تارة يهددها كأنه يعرف ملفها السري، و هو الأمر الذي دفعني إلى التجرد على الكثير من الأمور التي كنت أراها و لا أفهمها، و أولها وقوفي في وجه "ياسين" الذي كان لا يتردد في إدخال بعض أقران السوء إلى حجرته، فيتناولون الحشيش والمخدرات.

كانت صدمتي كبيرة عندما داهمته في غرفته و عاتبته على ما يقترفه، كنت أحسبه بريئا كما تركته و هو صغير، لكنه لم يتوان في مهاجمتي و شتمني ونعتي بألفاظ قبيحة، بل إنه هددني بأن لا أعود إلى طرق بابة مرة أخرى و إلا تكون العواقب وخيمة، و قد ألمني كثيرا عندما قال لي: "لست محتاجا إلى رجل

أحمق مجنون لينصحنني، انصح نفسك أولاً، و لو كنت رجلاً فذا و تملك بعض الشجاعة، لأخبرتنا عن سبب قتلك لرجل بريء؟"

لم أعرف كيف طفح الجواب في فمي كأنني لم أقبل كلامه: "لكنني لم أكن متعمداً"، فانزاح يغتال آخر علامات البراءة في نفسي مردداً: "و ماذا عن الجنون؟ هل هو كذلك لا إرادياً؟"

أحزنني كثيراً كلامه، ففضلت ألا أستمع، و انسحبت.

نعم، إن هذا الطفل يعرف كل شيء عني، إن كلامه ليس بريئاً، لقد اختزل خمسة عشر عاماً من الجراح في ثلاث جمل، مازال جرم القتل جهلاً يتعقبنني، و قد زدت عليه جرم الجنون.

إذا رضيت أن تكون مجنوناً، فلا تلم الآخرين لماذا يعاملونك كطفل؟ لماذا لا يستشيرونك؟ لماذا يعيشون حياتك؟ لماذا يفعلون كل شيء في مكانك و لا يتركون لك إلا المشي مطأطأ الرأس بين الناس؟

لا تلم الآخرين، ولم نفسك، فأنت وحدك المسؤول عنها.

سألتني أمي عن سبب الضجيج، أخبرتها بما فعله الصبي "ياسين"، قالت لي لم يعد صبياً، لقد صار الأمر النهائي في هذا المنزل، لعنة الله عليه، وأخبرتها بأنه نعتني بالمجنون، و بدل أن تنفي التهمة عني، قالت لي يا ولدي كلهم هنا مجانين.

و أخبرت أمه "حكيمة" بالأمر، فتعذرت بالكثير من الكلام الذي لم أره صحيحاً، كانت تتحدث إلي باستسلام كأنها تقول لي دعه يفعل ما يريد، فأخبرتها بأنه نعتني بالمجنون، و بدل أن تنفي التهمة عني قالت لي ليس من حقه أن يقول هذا الكلام...

و عندما أخبرت زوجتي كذلك، قالت نفس الكلام، و نمقتها بإظهارها بأن هذا الأمر لا يهم، و واستني بالكثير من المدح الجميل، كأن تقول لي دعك منه إنه مجرد طفل عابث لا يعرف ماذا يفعل، فأخبرتها بأنه نعتني بالمجنون، و بدل أن تنفي التهمة عني قالت لي متسائلة، و من أخبره بذلك؟

إنهم هنا يعتقدون بأنني مجنون، و ليس من بينهم واحد نفى عني هذه التهمة، حتى إن كنت قد حكيت لهم بأن الأمر يتعلق بخطة قمت بها من أجل الهروب من السجن، ولكني الآن فقط فهمت بأنني كلما أعدت على مسامع الآخرين هذا الكلام الذي أظنه أنا تفسيراً صحيحاً لحالتي، اعتقدوا أكثر بأنني لازلت أعاني من أعراض الجنون، و لذلك، فما علي إلا أن أستسلم للقدر الذي سطرته لنفسي، و أسلم بأنني كنت حقاً يوماً ما مجنوناً.

و من قال عكس ذلك؟ فقد عشت مع المجانين و كنت أفهمهم وكانوا يفهمونني، و ربما جننت حقاً، فالمجانين لا يدركون ما يحصل لهم.

و أما ابنتي "البوشتاوية"، فإنها كانت في كل مرة تسألني هل أتناول الدواء؟ كأنها تخاف علي من أمر أنا نفسي لا أعرفه، كأن كل فعل يغضبني، سببه فقط أني لم أشرب المسكنات.

كان يحصل لي هذا كذلك عندما بدأت أخرج من البيت و ألتقي بعض الذين أعرفهم، إنهم لا يسألونني عن السجن، ولكن يسألونني عن مستشفى المجانين، إنهم لا يريدون أن يؤمنوا بأنني لست مجنوناً، إنهم لا يريدون أن يفهموا بأن اعتقادهم هذا يؤلمني أكثر، و آلمني أكثر تهكم أحدهم علي قائلاً: "أعطني دليلاً واحداً بأنك لست مجنوناً و سوف أثق بكلامك"، و لا أنكر أني فكرت حقاً أن أعطيه دليلاً، لكنني لم أجده، لم أجده، و عرفت حينها كم من الصعب أن تنال الشهادة بأنك عاقل؟ و كم من الصعب أن تحاول إثبات ذلك؟ لأن ما ستثبت به تعقلك، هو نفسه تتهم به الآخرين بالجنون.

و ذات مساء، بينما كنا جالسين نتناول عشاءنا، حتى دخل علينا "ياسين" فاقداً للوعي بسبب المخدرات، أخبرتني ابنتي "سكينة" بأنه يتناول الحبوب المهلوسة، و أنها تفقده كل حاسة للعقل، و قد يقول أي كلام حتى إن كان غير صحيح، فصار يصرخ في وجوههم و يشتمهم، ناعتاً إياهم بأقبح الأوصاف، كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الكلام، حتى طريقة كلامه تبدلت، فصار ينطق الجملة و يكررها ثلاث أو أربع مرات بفعل

المخدر، و كأنه يثبتها أو يؤكدها، و حتى الحركة نفسها قد يفعلها و يكررها مرات، فصرت أراه كأنه يقول كلمة واحدة و يكرر حركة واحدة..

لقد قال لأمه "حكيمة" بأنها عاهرة طلقت زوجها من أجل التسكع وممارسة كل أشكال الرذيلة، و قال لابنتي "البوشتاوية" بأنها خاطفة الرجال، وقال عن زوجتي "شرقية" بأنه سيأتي اليوم الذي يفصحها فيه أمام الجميع. لكنهم كانوا لا ينتبهون إلى كلامه، لأنه في عرفهم نابع عن طفل عابث قاصر العقل لا يعرف ماذا يقول.

إذا أردت أن تكذب كلام غيرك، فاتهمه بالجنون، لقد حصل معي هذا أنا كذلك، و حاولت أن أثبت لهم بأني لست مجنوناً و أني لم أكنه يوماً، لكنهم لا يصدقون كلامي، و يريدونني الآن ألا أصدق كذلك كلام "ياسين".

إنه يتهمهم بالعهر و بالخيانة، و هو أعلم بهن مني، فإنه يعرف أسرارهم و ما يكتُمون، و أنا الآن، أتمنى أن يعطوني دليلاً واحداً يثبت عكس هذا القول لكي أثق بكلامهم و أكذبه.

و صارت الإشارات تنهال علي من الناس، و الأخبار تأتيني تباعاً، كانت أختي لا تهمني، و حتى بناقي صار لا يهمني أمرهن، ولكن الذي يهمني هو زوجتي التي أخبرني الكثير من الناس بأنها تعرف رجلاً منذ سنين مضت،

و أنه كان يريد أن يتزوجها، و آلمني أكثر، أن بناتي على علم بالأمر، لكنهن تخفينه عني و لا تقفن إلى جنبي.

غضبت و زجرت و صرخت و تكلمت مع زوجتي أياما و لياليها بشأن هذا الأمر، لكنها تنفي كل هذه التهم، و تكذب كل الناس، و لا أملك إلا أن أصدقها حتى إن لم تصدق بأنني لست مجنوناً، لأنها تملك ما لا أملكه أمامي و أمام الآخرين، و هو العقل.

إن هموم السجن أرحم بكثير من هموم الحرية، لأنك في السجن، لا تهفو إلا إلى أن تتحرر، لكنك خارجه، تبحث عن الكرامة و الشرف، تبحث عن الإنسان، فإن لم تجده حولك، تضع، و ذلك سجن أمر و أدهى.

لقد فكرت أن أطلقها، إن هذا الكلام لا يناسبني، إني لا أعرف ما يقوله الناس عني، و ربما الكثير منهم يستهزئون مني و أنا غافل، و لن أعيد لنفسي الاعتبار إلا بتطليقها، و ربما هي كذلك ترغب في ذلك.

و في تلك الليلة المظلمة، قررت أن أثور في وجهها و أعترف لها بكل وساوسي، و أعلن جهارا عن رغبتني في تطليقها، إلا أنها فاجأتني بتصلها من كل التهم، و برفضها لكل ما أقول، و بأن كل كلام الناس ليس إلا ضرباً من الشك و الريبة.

لم أتقلم هنا، لقد صرت غريبا في هذا المكان، و كلما أبديت استنكارا أو رد فعل على ما أراه و لا يروق لي، صرت في عرف الآخرين أكثر اتهاما بالجنون، و من قال؟ لعل الناس يسألون زوجتي و بناتي عن الأسباب التي تدفعني إلى الصراخ في وجههم في كل يوم، فيخبرونهم بأن الجنون قد ثار علي و أنني سأشرب الدواء لكي أكون بخير.

إن الناس هنا ينظرون إلي نظرة شامت و متعاطف و متأسف على الحالة التي أنا فيها، و لا أحد من بينهم فكر و لو للحظة بأني قد لا أكون مجنونا، و بأن ما يحصل، هو بدافع الثورة في وجه الخطي، لا بدافع ثورة الجنون على نفسي.

إني الآن لا أفكر إلا في أمر واحد، هو أن أثبت للناس بأنني لست مجنونا، و أني لم أكن يوما مجنونا، و أن الجنون رغم ذلك ليس عذرا للاضطراب على مشاهدة الظلم و الخيانة و السكوت عليه، و أن ما حصل لي، هو فقط انحراف بسبب خطة فاشلة، أخرجتني من سجن الأسوار، و أدخلتني في سجن أكبر، هو حكم الآخرين علي بالجنون.

إن الذي أذهلني أكثر، هو هذه القدرة الكبيرة على الاستقلال بالنفس، و التي صارت تملكها فتاة مثل ابنتي "سكينة"، و ذلك عندما صرخت مرة في وجهها بعدما دخلت إلى المنزل في وقت متأخر من الليل،

فأقنعني بأنها تعمل من أجل إطعامي أنا الجالس في ركن البيت و لا أتقن إلا الملاحظة و الكلام، و أي لو وجدت عملا أشتغل به، لما وجدتني كمثل المرأة العجوز أُمي، أنصيد هفوات الآخرين من أرذل الكلام ثم أعلق عليها كمسؤول على أسرة لا يعرف من المسؤولية إلا الأكل و الشرب و النوم.

و عندما سألتها عن عملها قالت: و ما شأنك بعملي؟ أما يكفيك أنك تأكل و تشرب هنيئاً مرتاحاً؟

و عندما هددتها، حلفت باليمين بأنني إن تكلمت مرة أخرى في هذا الموضوع، فستختفي من حياتي إلى الأبد و لن تعود، و أنها مهما كان، ستعيش حياة أجهل بعيداً عني، و عاج الخبر بين الناس و راج، فبت كالمتهم، كالمجنون حقاً، كلما لاقيت رجلاً إلا أوقفني و حدثني و أوصاني بشرب دوائي في الوقت المناسب لكي لا يثور علي الجنون فأنكد الحياة على أسرتي، إنهم لا يفكرون في همتي و شرفي و رجولتي، حتى إن كانوا يعرفون أنني على حق فيما أقوم به، ولكنني بالنسبة إليهم مخطئ تماماً، لأن الدافع بالنسبة إلي عندهم هو الجنون.

لكنني لست مجنوناً، و لم أكن مجنوناً يوماً، فكيف أقنعهم بذلك؟

فات الأوان على هذا، سأصدق نفسي فقط، و نفسي تصدقني.

لقد تجاوزتني الحياة، و صرت أبدو صغيراً مقارنة بها، كبرت أنا، و كبر الأولاد، و كبرت همومهم و طموحاتهم، و كبرت الأحداث من حولي، و تلك

عقوبة من لم يعيش الحياة، لقد كنت أعتبر نفسي في قاعة الانتظار لمدة خمسة عشر عاما، و تلك أكبر خطيئة ترتقي على الإنسان، كان علي أن أستمّر في العيش كما استمر العالم حولي.

كلهم خاصمونني هنا، و ربما أنا الذي خاصمتهم، بشكي و نكدي و جرأتي المتواصلة، أمي وحدها تتحملني و تحدثني بدون خلفيات، إن هذا المكان قد صار يلفظني، إني لم أتأقلم، و صرت أكره أسرتي و أكره بيتي و أكره الناس، و أكره كل من يعارضني في الرأي، صرت قليل الكلام كثير الشك سريع الغضب، حتى اسودت الحياة في وجهي و صار النوم يخاصمني، فلا أنام إلا بعد أن يطلع النهار، و أما زوجتي، فأكاد أحسدها على نومها العميق، إني أفرع من فراشي مرات خلال الليل، و قد أصدر ضجيجا، لكنها لا تفتح عينيها كما أريد، فقط تنقلب يمينا أو شمالا، و تغرق في رقادها الطويل.

ربما ترهقني الوسوس و الشكوك، و ربما عندما أفهم، أنام.

دست على كرامتي، و تخلّيت على كل مبادئ و قصدت "ياسين" في غرفته، كان يتناول الحشيش و بجنبه كأس من الشاي البارد بلونه الأحمر الداكن، يبدو بأن هذا الكأس كان موضوعا في ذلك المكان منذ مدة ليس بالقصيرة، ربما منذ أمس، لكنه بهذا الشكل على حد تعبير الحشاشين، يزداد لذة و حلاوة.

لم يسألني ماذا أريد و لم يكن منتبها إلي، كأني لست موجودا، كان منهمكا في صنع سيجارة من حشيش، و لم ينظر إلي ملئ عينيه إلا عندما انتهى من صنيعته، فبدأنا نمهد للصلح بحديث عن الحياة و قسوتها، و حدثني عن حياته التي تتوزعها العلاقات مع الحشاشين من الشباب ذكورا و إناثا، لكنني كنت أعتبر كل الذي فات مجرد تمهيد للحديث الذي جئت من أجله.

كان يتناول الحشيش بشراهة كأنه خبز، و العجيب هو أنه يغلق باب الغرفة و النافذة مخافة أن تخرج الرائحة ربما مخافة أن يفتضح أمره، لأنه رغم كل ذلك، لازال يعتقد بأن ما يقوم به أمرا غير صالح، لكنه يخنق نفسه، و يخنقني أنا كذلك، لكنني صبرت لأنني أنا الذي هجمت عليه، فليس من حقي أن أملي شروطي أو أعطي حتى رأيي في غير مكان أملك حق التصرف فيه.

لم أتخلص من جبني إلا عندما احمرت عيناه و ظهرت عليه علامات الشالة، فسألته عن زوجتي، و عن تهديده لها في المرة السابقة، بأن يفضحها ويوبح بكل ما يعرفه عنها.

كان غير متحمس للجواب على سؤالي، لكنه أبدى كرهه لها وللجميع، و خرج عن مغزى الكلام، متحدثا عن بطولاته و عن أمه الزانية، فحاولت أن أردّه إلى موضوع زوجتي، فاستنكر و أخبرني بثبات غير معهود بأنه ليس من حقه أن يتحدث عنها أمامي، أو أن يوبح بسر مهما كان بسيطا،

وأنه كان علي أن أسألها هي بدل أن أسأله، ثم طفق يتفاخر بعزته و كرامته ورجولته، وأنه لم يكن علي أن أعتبره وأشيا حتى أتسلل من بين ثنايا الحديث وأسترق معلومات عن زوجته، و قال لي بأن ما قمت به الآن هو أكبر احتقار لشخصه، ثم بدأ يكرر الكلمة نفسها مرات، و يعيد الحركة نفسها مرات كعادته عندما يغضب، و يؤكد لي نبلة ورجولته، فما كان مني إلا أن أنسحب راجعا بخفي حنين.

حتى الأنذال يتحدثون عن القيم العليا و يمجدونها عندما يتعلق الأمر بمصالحهم، تبا للغة، لقد أتاحت لهم فرصة الكلام فيما لا يفعلونه.

حملت مذياعي و ساعتني و وسادتي، و معها بعض ملابسي و أفرشتي، و عدت إلى بيتي القديم في البادية دون أن أخبرهم بذلك، فرغم ما أحسه من ذكرى سيئة تجاه هذا المنزل، فإني أكن له حبا كبيرا.

ذهبت إلى محطة سيارات الأجرة.

يا إلهي، مر خمسة عشر عاما، و لازال الحال على ما كان عليه، المحطة التي أعرفها بحركتها المعهودة و حيطانها المتسخة و كومة الأزبال الملقاة قرب سور المدرسة المثقوب، و الرائحة الكريهة التي تجتاحك عندما ترتاد هذا المكان، إنهم لا يشموننا هنا، لأنهم ألقوها و صارت جزءا من الهواء الذي يستنشقونه، حتى السائقون الذين أعرفهم منذ تلك الأيام لم يتغيروا، و لم تتغير

ملاحظهم كثيرا، كأنهم متمسكون بمسؤوليتهم على هذه المحطة، كأن الزمن متوقف في هذه الربوع.

الطريق نفسه، و المعالم نفسها، و بعض الأشجار التي أعرفها كأنها علامات، هذه أرضي التي كم أحسست بالحنين إليها، أخرجت منها مرغما، وعدت إليها غير محمل بالهدايا:

هديتي إليك، فيك، أنا الظمآن يا بلادي،

هل تقبلين من الأضحيات لحم بنيك؟

هل تقبليني قربانا،

يكفر خطيئة المعتدين عليك؟

هديتي إليك،

بعض الأشعار حو اليك،

فكل الكلام لا يطاوعني،

أن أنسج عنك ما ينتسب إليك.

بالأمس ويلا تهم يا بلادي شرقت بفيك،

واليوم مس من شياطين الإنس يعتريك،

ولم تشتك، رغم الآهات من ذويك،

هديتي إليك بعض الأشعار حو اليك،

فأنت ترين في الأبيات،
غير ما ترين في بيوت أهليك،
-أسوار، لا تنسب، مهما تعالت إلى الخلود،
لو لم يكن فيك من بنيك،
من يمجّد آثار الجدود-
وأنت العين التي ماؤها يعود في كل صيف،
لينحت مجاريه على ورد الخدود،
هيهات يجود جاحد بك، عليك،
يا بلدة نسيت ثأرها من ذويها، فجودي،
وترشفين من ظلم ذوي القربى تريق البقاء لكي تسودي،
أهلوك، ذبحوك ظلماً،
في مشهد قتل داعم وكتيب،
بكاؤك عند النحر كالتيس، يمالأ النفس غمة،
من التأوه والنحيب.
وزعوا الغنيمة بينهم،
وأهدوا بقايا شحومك للغريب،
وما ظفرنا إلا بحق الانتساب و اكتساب الاسم،

و عظام خالية من لحم،
 وأضلاع مكسورة وجلود.
 إذا أتت الإساءة من وضع، ولم ألم المسيء،
 فهل أرمي اللوم على المجيد؟
 فتشي في سويداء قلبك،
 لو ما زال يسقيه نبض الوريد،
 عن نقطة دم حمراء،
 فتشي في أوراق ريشك المنتفش،
 لو تجددين آثار ثوب قد من قدودي،
 وألصق بجسمك في يوم العراء،
 هذا من أسمالي،
 أنا المشتاق بأن أراك في حلة البهاء،
 وليس عندي ما أهديك،
 يا بلاد الخضرة والضياء،
 يا بلاد كانوا حقاً رجالاً أوفياء،
 إلا بعض الكلمات الممزوجة في شغافي بالدماء،
 أماء، إني منهم براء،

أنت عيني،

فإن رأيت أرى،

وأعينهم أغمضت دهرًا من الكرى،

أناصبك المودة، حتى إن ناصبوك العداء،

لست أرضا يا بلادي،

إنما أنت بالغمام والنجوم اللامعات، السماء...

و خضت في الطريق الرملي المؤدي إلى بيتي القديم في البادية، و تحت
كل خطوة تولد زوبعة من الغبار ثم تتلاشى، نظرت خلفي، فأثار انتباهي منظر
آثار خطواتي بوضوح، كانت الآثار ممسوحة ليست فيها رسوم، كيف حصل
هذا؟

توقفت لحظة، شددت رجلي اليسرى و رفعتها ثم نظرت إلى قاعها،
لقد انمحت الخطوط مع الحركة و الزمن، كدت أقع، أرخيت رجلي، ثم
أكملت المسير.

المساحات الخضراء تبدو شاسعة، و بعض المباني متفرقة في كل اتجاه،
و على بعد عشرات الأمتار يترنح منزلي و قد زال لون طلائه الأبيض، و قدت
جذوع أشجاره من الوسط.

كانت المقبرة تبدو شامخة على يساري، و القبور فيها تكاد تختفي تحت جلالة نبتة الدوم المتكاثرة الخضراء طول العام، خفق قلبي، "هناك، سنلتقي جميعا"، كنت أحث الخطى مسرعا كأني أريد أن أصل، كأني أريد أن أتخلي عن الذكريات، و عن كل ما كنت أعتقد بأن اسمه قبل اليوم الحياة، كأني سأبدأ من جديد.

لست مخولا بتغيير واقع متجذر و لست أنا من صنعه، ولكني منوط بأن أصنع واقعا و أهتم به تماما كما أقلم أظفري، و لست مهتما بمعرفة كيف سيكون هذا الواقع، لكنني متأكد من أنه لن يشبه الماضي الذي أهرب منه اليوم. رن هاتفني، إنها أمي المسكينة، وحدها تحن علي عندما أجوع، و تحن إلي عندما أغيب، أخبرتها بأني لن أعود، و تساءلت لأنها تريد أن تفهم، و إنني تساءلت قبلها كثيرا، لكنني لم أفهم.

و ها قد وصلت،

أعرف أن الفزاعة الموجودة في الحقل المجاور ما عادت تخيف الطيور، و أن شبح الشجرة مذ غادرتها، يفتقد البذور، و أن الخواء الذي بدد الامتلاء، كمثل الغياب الذي شتت الحضور، عشرون عاما لم يتغير في هذه البلاد شيء، إنها مثلي كانت في السجن، كانت في مستشفى المجانين، و من يصدق أنها كانت تلعب مثلي دورا لتصرف عنها النظر؟ هل صدقوني؟ لو فعلوا لتحملوا عبء

التصديق، لكنهم أنكروا فحملته وحدي، سأحاول أن أقنع خيالي بانتزاع الصورة القديمة للمكان، و الذكريات تستقبلني مشرعة اليدين، و كل الأحاسيس بداخلي تتساءل، و كل العلامات هنا، لا تجيب...

الفهرس

هَذَا

٧.....

٨..... الجزء الأول

٨..... "أبوك سيأتي نحا"

٩..... حلم أم حابوس

١٣..... الخوافون من الحياة

١٦..... حديثه الجذور

٢٤..... (وجه القاتل) (هروية)

٣٦..... امرأة معلقة

٥١..... "أبوك سيعود نحا"

٦٦..... أخيه القاتل (حكمة)

٧٧..... أخبار المغرب (الجريدة)

٨٦..... الطريق إلى السجن

٩٥..... "البزيد الأهل"

١٠٤..... ربه القاتل (سكينة)

١١٧..... الخطيئة

الخوابيس	محمد البوعبيدي
اللوحة السيئة.....	١٢٤
وصالة ملعون.....	١٣٠
عوبه بطيء.....	١٤٣
مغفل الأموات.....	١٥٥
الجن العاقل.....	١٥٨
أصوات عالية.....	١٧١
شهادة حياة.....	١٨٢
مغامر.....	١٨٨
لو حانبه علاقتنا رواية.....	١٩٩
خرائب المرأة.....	٢٠٦
عودة إلى الجذور.....	٢١٤
بيع المعادة.....	٢٢٠
اختبار فيسبول.....	٢٣٤
الجزء الثاني	
"جدران الألم".....	٢٤٠
وصف زلزلة.....	٢٤١
الغزو والبراءة.....	٢٥٢
وصف وطن.....	٢٥٦

قوة القانون..... ٢٦٥

الأعتاذ..... ٢٧٤

السجين "خونار"..... ٢٨٨

اهل أعزاءك..... ٣١٣

المطالمة..... ٣١٩

الجزء الثالث..... ٣٢٦

مجانين أم عذراء..... ٣٢٦

للجنون علامات..... ٣٢٧

المجانين في نعيم..... ٣٣٥

الرسالة..... ٣٤٤

سيرة مجنون..... ٣٦٣

زيارة خير معتادة..... ٣٦٨

خطيب المجانين..... ٣٧٧

"الحاج الموساوي"..... ٣٨٣

الكتاب (الإشارة، فحل علامة خديج)..... ٣٨٦

"أبو نواس"..... ٤٠٢

الجزء الرابع..... ٤١١

الكوايبس	محمد البوعبيدي
"المسير".....	٤١١
البطء.....	٤١٣
الرسو على الحيطان.....	٤١٥
قبور تمهي.....	٤٢٤
أخطاء الآخرين.....	٤٢٧
كان يحبها بجنون.....	٤٣١
نوبة فائقة.....	٤٣٣
أنته أختي.....	٤٣٦
ما قد وصله.....	٤٥١
القموس.....	٤٧٤
